مكتبة ٧١٥

دراسات

باتمان والفلسفة

الخوض في روح فارس الظلام

إعداد: مارك د. وايت وروبرت آرب

ترجمة: المجتبى الوائلي

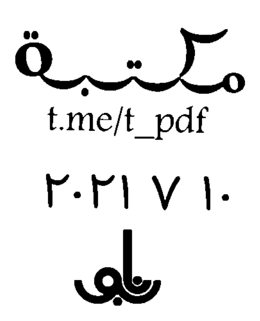
مراجعة: رقية طارق



مكتبة | 716
سُر مَن قرأ

باتمان والفلسفة

الخوض في روح فارس الظلام



باتمان والفلسفة، ت: مجتبى الوائلي
الطبعة الأولى ٢٠١٩

حقوق النشر والترجمة والاقتباس محفوظة لمنشورات نابو في بغداد
Nabu Publishers
تلفون: ٩٦٤٧٨٠٤٤٢٣٦٢٩+
ص.ب: ٥٠٤٧ مكتب بريد الرشيد، بغداد، العراق
E-mail: info@nabupub.com
التوزيع خارج العراق: دار التنوير
لبنان - مصر - تونس
التصميم والإخراج الفني: وليد غالب

All Rights Reserved. This translation published under license with the original publisher John Wiley & Sons, Inc.

ISBN:978-614-472-090-5

باتمان والفلسفة

الخوض في روح فارس الظلام

محرر السلسلة: ويليام اروين

إعداد: مارك د. وايت وروبرت آرب

ترجمة: المجتبى الوائلي

مراجعة: رقية طارق

مكتبة | 716

سُر مَن قرأ



الإهداء...

إلى ذكرى هيث ليدجر (1979 - 2008)

ملاحظة المترجم:

جميع الأسماء الرمزية للأبطال الخارقين تقريباً قد تمت ترجمتها كما هي دون تحويلها لما تعنيه في اللغة العربية، أي أنها قد عوملت كأسماء أعلام. مثلاً، تُرجم Batman إلى باتمان ولم يترجم إلى الرجل الوطواط، وSuperman إلى سوبرمان ولم يترجم إلى الرجل الخارق. كذلك هي عناوين القصص المصورة والأفلام، أبقيتها كما هي باللغة الانكليزية.

كما واستعنت بترجمة الأستاذ القدير علي مصباح فيما يخص الإقتباسات المأخوذة من كتاب «هكذا تحدث زاردشت» لنيتشة.

شكر وتقدير

خطاب الأوسكار الذي لن يتسنى لجورج كلوني إلقاءه أبداً

نود أن نشكر فرقة العدالة (إيريك نيلسون، كوني سانتستيبان، وبقية الأعضاء في ويلي) على ملاحظاتهم المفيدة والقيمة؛ المفوض غوردن ومركز شرطة مدينة غوثام (جيف دين وبلاكويل)، الذين بدأ هذا المشروع بإشرافهم؛ وتوماس واين (بيل إيروين) لدعمه اللا محدود والملهم. (لا تخف أبداً، فبيل لا يزال حياً ـ من الذي كان ليشهد باتومان لو لم يكن موجوداً؟)

يود مارك شكر جحافل الكُتّاب والفنانين والمحررين الذين جعلوا من باتمان شخصة حيَّة على مدى عقود. ويود روب شكر زوجته سوزان (حتى لو لم تكتب قصة واحدة عن باتمان في حياتها!)

المقدمة:

وضح لي هذا

نحن نعلم بمَا تفكر (وذلك لأننا أذكياء، إذ أننا فلاسفة) "باتمان والفلسفة"؟ هل أنت جاد؟ ولكن لماذا؟

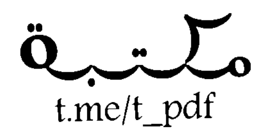
حسناً، بما أنكم قد طرحتم تلك الأسئلة .. فذلك لأننا نعتقد بأن باتمان هو الشخصية الأكثر تعقيداً على الإطلاق بين تلك التي ظهرت في القصص المصورة. إذ بسبب تلك القصص التي ميزته خلال السبعين عاماً الأخيرة، وليس في القصص المصورة لوحدها بل وفي الرسوم المتحركة ومسلسلات الأكشن على التلفاز وفي الأفلام، قد وفرت لنا ثروة من المواد الفلسفية لمناقشتها. و لأن لدينا إمكانية، بالتعاون مع حوالي عشرين معجبا آخر، أن نجمع شغفنا بهذه الشخصية مع حبنا للتفلسف، فقط لنشكّل هذا الكتاب الذي هو بين يديك الآن. (لا ضرورة لشكرنا، فنحن فرحون لإنجازه).

إن أحد الأسباب التي جعلت من باتمان البطل الخارق المفضل لدى الكثير من الجماهير حول العالم هو لكونه إنسانا فقط، حتى رغم عدم شبهه بأي أحدٍ منّا. حيث كرّس حياته بأكملها للانتقام لوفاة والديه وجميع ضحايا

جريمـة الآخرين من خلال المخاطرة بحياته لحماية مدينة غوثام وما هو أبعد منهـا. إذ أمضى سـنواتٍ عديـدة وضحى بكل شيء لأجل أن يدرب جسـده وعقله ليصلا الى الكمال. هو فاحش الثراء، ورغم ذلك فقد عزل نفسه بعيداً عـن جميع تلك الكماليات (باسـتثناء كبيرِ خدَمِهِ) سـعياً وراء هدف لن يحققه أبداً. وقام بصنع هذا الزي الذي يشبه وطواطاً عملاقاً.

لكن ما الذي يدفع شخصاً ما للذهاب الى هذا الحد؟ هل ما يفعله باتمان جيد، أو صائبٌ أو فاضل؟ وما الذي يقوله هوسه وتفانيه للـ"مهمة"، عمّن يكـون؟ كيف يتعامل مع والديه وأصدقائـه وأعدائه؟ وكيف هو الحال حين تكـون باتمـان؟ كل تلك هي أسـئلة فلسـفية صميمية، وعندمـا نقرأ قصص باتمان، فلا يمكننا الامتناع عن التفكير بهذه الأشياء (ومن ثم كتابة أفكارنا).

إن العشرين فصلاً في هذا الكتاب تستكشف قضايا في الأخلاق، والهوية، والصداقة والسياسة، وأكثر من ذلك أيضاً، باستخدام أمثلة مستقاة من قصص باتمان الشـهيرة مثل عودة فارس الظلام (The Dark Knight Returns)، وباتمـان: السـنة الأولى (Batman :Year One)، والأرض المحرمـة (No Man's Land)، ومـوت في العائلـة (A Death in the Family)، والمزحة القاتلة (The Killing Joke)، جنباً الى جنب مع العدد الهائل الآخر من الأفلام، والمسلسـلات الكارتونيـة، ونعـم، الرفاق القدمـاء من المسلسـل التلفزيوني في السـتينات مـع آدم ويسـت Adam West وبـيرت وارد Burt Ward. لـذا سـواء كنت تعلم أو لا تعلـم عن الانبعاث الأخير لجيسـون تود Jason Todd، أو سـواء كنـت تسـتطيع قـراءة خطـوط جـاك نيكلسـون Jack Nicholson مـن أول أفـلام باتمان لتيم بورتـن Tim Burton، أو إذا كانـت لديـك مجـرد ذكريـات فقط عن لبـاس الهالوين الخـاص بك قديماً، فسـتجد هنالك شـيئاً لأجلك في هذا الكتـاب، ضوءا لامعا سـطع في سماء المدينة، إنها إشارة الوطواط، هيا لنبدأ!



الباب الأول

هل فارس الظلام دوماً على حقّ؟

1
لماذا لم يقتل باتمان الجوكر؟

بقلم: مارك وايت

قابل الجوكر..

في العقود القليلة الماضية، حوّل الجوكر نفسه من مجرد مهرج مجرم الى قاتل شنيع ليس له منافس. إذ كانت أكثر أفعاله شناعة هو قتله لروبن الثاني، جيسون تود، ضارباً إياه بقضيب معدني بطريقة دموية قبل أن يفجره. ثم قام بإطلاق النار على سارة إيسين Sarah Essen، زوجة المفوض جيم غوردن Jim Gordon الثانية، مردياً إياها قتيلة، أمام العشرات من الأطفال الرضع، والذين هدد بقتلهم ليجذب إيسين إليه. وقبلها بسنوات، قام بإطلاق النار على باربرا غوردون Barbra Gordon – إبنة جيم غوردون بالتبني والمرأة الوطواط Batgirl السابقة – برصاصة استقرت في عمودها الفقري،

ليصيبها بالشلل من خصرها وصولاً لأطرافها السفلية. ثم قام بتعذيب جيم بصور مفبركة لها تظهر فيها مستلقية على وجهها وهي عارية وغارقة بدمائها. ودعونا لا ننسى العدد اللانهائي من مواطني مدينة غوثام الاعتياديين، إذ أن الجوكر قد قام حتى بإبادة جميع أتباعه الخاصين في الفترة الأخيرة![1]

وفي كل مرة يهرب فيها الجوكر من مصحة آركام يقوم بارتكاب جرائم لئيمة - من النوع الذي يدعوه الفيلسوف جويل فاينبيرغ Joel Feinberg (1926 - 2004) "مريضة! مريضة! مريضة!" أو "مريضة تكعيب!"[2] وبالطبع يعود باتمان ليمسك بالجوكر ويزجّه مرة أخرى في مصحة آركام.[3] يعلم باتمان بأن الجوكر سيهرب، وأنه من المرجح أن يرتكب جريمة قتل مرة أخرى مالم يمنعه الفارس المقنع والذي، كما يبدو، بأنها مهمة لا ينجح فيها دائماً.

لذا فما الذي يمنع باتمان من حل المسألة بقتل الجوكر؟ فكر فقط بجميع الأرواح التي سيستطيع إنقاذها بذلك! والأكثر من ذلك، فكر بكل تلك الأرواح التي كان سينقذها قبل سنوات من ذلك من بين أصدقاءه المقربين وأقربائه فقط. لقد فكر المفوض غوردن في قتل الجوكر بنفسه في عدّة مناسبات، وعادة ما يكون باتمان هو الشخص الذي يقوم بمنعه عن ذلك.[4] وفي مشهد رائع خلال مسار القصة، كان باتمان أيضاً قريباً جداً من القضاء على الجوكر ولكن كان جيم هو الشخص الذي أوقفه. ثم سأل باتمان جيم: "كم عدد الأرواح الأخرى التي سنسمح له بتدميرها؟" ليجيبه جيم: "لا يهمني ذلك، لن أسمح له بأن يدمر حياتك أنت."[5]

لذا و بالرغم أن الفرصة قد أتيحت كثيراً، لم يقم باتمان بقتل الجوكر أبداً، وهو الذي يعتبر بالتأكيد أخطر أعدائه. ولكن بالطبع، فباستثناء أولى قضاياه، كان باتمان يرفض القتل بشكل مطلق، وكان يصرح عادة بأنه إذا قام بالقتل، فلن يجعله ذلك أفضل من المجرمين الذين أقسم على قتالهم.

ولكـن ألا يبـدو ذلـك أنانياً قليلاً؟ إذ يسـتطيع شـخص ما أن يقـول: "هيا، إن الأمـر ليـس محصورا بكـم أيها الوطاويـط." أم هو كذلـك؟ هل يجب أن يكون كذلك؟ عادة ما نعتقد بأن الشخص ملزم بأن يفعل أي شيء إذا كانت فائدته ستصب على أكبر قدر ممكن من الأشخاص، ولكن ماذا لو كان ذلك "الشيء" هو ارتكاب جريمة قتل؟ إذ ما هو الأكثر أهمية، هل هو فعل الخير؟ أم فعل الخطأ؟ (يا إلهي، آلفريد، نحن بحاجة إلى الأسبرين هنا).

في هذا الفصل، سنهتم بأخلاقيات القتل لنمنع القتل في المستقبل، وهي نفس المشـكلة التي واجهها باتمان بالضبط عندما وازن بين مبادئه الأخلاقية الخاصـة مقابـل عدد لا يحـصى مـن الأرواح التـي كان يسـتطيع إنقاذها. في الواقع، فقد أثيرت هذه المسـألة في العديد من المرات، ومنذ وقت قريب جداً بين الشرير هاش Hush وجايسون تود (العائد من الموت) نفسه، وفي وقت سـابق بـين جين – بـول فـالي (Jean – Paul Valley) (سـقوط "الفارس" باتمـان The «Knightfall» Batman)، ولم يكـن لأي منهـم تلـك المبـادئ الأخلاقية الصارمة التي امتلكها باتمان.[6] وأنا بدوري سأتناول هذا الموضوع من خلال إضفاء بعض التجارب الفكرية الفلسـفية الشـهيرة التي ستسـمح لنـا بالخوض خـلال أخلاقيات الموقف بتحليلهـا الى عناصرها الأولية، تماماً كما يقوم باتمان بحل جريمة مخطط لها بذكاء بالغ. (حسـناً، ليس تماماً، ولكن عليك أن تدعني أحلم بذلك!).

هل يعتبر باتمان نفعياً؟ أم ملتزماً بالأخلاق الواجبة؟
(أو لا شيء مما سبق؟)

إن الحجة المؤيدة لقتل الجوكر واضحة الى حد ما، حيث إذا ما قتل باتمان الجوكر فإنه سـيمنعه مـن ارتكاب جميع الجرائم التي مـن الممكن أن يقوم بها

مستقبلاً. وهذا المنطق يعتبر نموذجا للنفعية، وهو نظام من الأخلاقيات يتطلب منا تحقيق أقصى قدر من السعادة أو المصلحة العامة تنتج من خلال أفعالنا.7 حيث أن إنقاذ العديد من الأشخاص مقابل التضحية بشخص واحد من شأنه أن يمثل زيادة صافية في الرفاهية أو المنفعة العامة، وعلى الرغم من أن الاختيار سيكون مأساوياً بالتأكيد، إلّا أن النفعية تبقى مؤيدة بشكل عام. (إذ بإمكاننا إضفاء المزيد من الاعتبارات، كدافعية السعي الى الانتقام من قبل عوائل ضحاياه، أو الحزن الذي يصيب بعض الناس عند مقتل شخص ما، ولكن دعونا لا نعقد الأمر حالياً).

إن الأبطال الخارقين، بصورة عامة، ليسوا نفعيين. إنهم يحبون، بالتأكيد، أن يكونوا سعداء وبحال جيد، أن يكون حالهم في ذلك حال أي شخص طبيعي، ولكن هنالك بعض الأشياء التي لن يقوموا بفعلها حتى لو عنت تحقيقهم لذلك. والمجرمون يعرفون ذلك بالتأكيد ويوظفونه كأفضلية لصالحهم: فبعد كل شيء، لماذا برأيك يقوم المجرمون باحتجاز أناس أبرياء كرهائن؟ والأبطال الخارقون – مثل الشرطة في العالم الواقعي بالضبط – عادة ما يمتنعون عن المخاطرة بأرواح الأبرياء بهدف إلقاء القبض على الأشرار، حتى لو كان ذلك الأمر يعني منع أولئك الأشرار من قتل المزيد من الأبرياء مستقبلاً. وبشكل عام، فإن معظم الأبطال الخارقين لا يُقدمون على القتل، حتى لو كان ذلك الأمر يعني إنقاذ مزيد من الأرواح.[8]

ولكن ما الذي يجعلهم يرفضون القتل في هذه الحالات؟ فالنفعي لن يفهم كلاماً كهذا. "إنك تُعرّض الكثير من الناس للموت لأنك ترفض قتل شخص واحد؟" هذا هو تقريباً بالضبط ما قاله كل من جايسون تود وهاش لباتمان مؤخراً. حيث قال هاش: "كم من الأرواح التي تعتقد بأنك قد فرطت فيها، وكم من العوائل قد دمرت، من خلال تركك للجوكر حياً؟ ولماذا؟ من أجل واجبك الأخلاقي؟ أو حس العدالة خاصتك؟"

ولكـن جيسـون تود قد قـام بالإلتفاف عليه بصـورة أكبر (بالطبـع) قائلاً: "بروس، أنا أسـامحك لعدم إنقاذي. ولكن لماذا.. لماذا بحق السماء ما يزال حياً؟ متجاهلاً ما فعله في الماضي.. متجاهلاً بكل غباء وعلى نحو أعمى كل تلـك المقابر التي قام بملئها، والآلاف ممن عانوا بسـببه، والأصدقاء الذين أصيبوا بالشـلل، وكما أعتقد -وكما أعتقد متجاهلاً قتلي- هل سـأكون آخر الأشـخاص الذين تركتهم يعانون؟"[9] ولكن معايير الاستجابة لدى باتمان كانـت دائماً بأنه إذا ما قتل، فلن يجعله ذلك أفضل من المجرمين الذين يقوم بقتالهم، أو أنه سـيقوم بتجاوز خط لن يسـتطيع العودة فيه أبداً، على الرغم من أنه صريح جداً بشأن رغبته القوية في قتل الجوكر.[10]

في الحـين الـذي سـيؤيد فيـه النفعيون بشـكل عـام قتل شـخص لمنع قتـل أشـخاص أكثر، فـإن متبّعي المدرسـة الأخلاقيـة التي تدعـى بالمثالية (الواجبيّـة) لن يفعلوا ذلك.[11] فالمثاليين (الواجبيين) يحكمون على أخلاقية فعـل ما بالاعتـماد على الخصائص الجوهريـة للفعل ذاته، بغـض النظر عن العواقـب التي قد تنتـج عن هذا الفعل. إذ بالنسـبة للمثاليين (الواجبيّين)، فإن النهايات لا تبرر الوسـائل أبداً، ولكن بدلاً من ذلك فعلى الوسـائل أن تكون مبررة وفقاً لأساسـاتها الموضوعية الخاصة. لـذا فإن حقيقة أن القتل مـن شـأنه أن يمنع المزيد من القتل مستقبلاً هو أمر غـير ذي صلة، والأمر الوحيـد ذو الصلـة هـو أن القتل فعل خاطئ في كل الأحـوال. ولكن حتى بالنسـبة لأكثر المثاليين (الواجبيين) تشدداً، توجد هنالك استثناءات -فعلى سـبيل المثال، في خطر التعرض لمحاولة القتل- افلدفاع عن النفس سيكون مسـموحاً به من قبـل المثاليين (الواجبيين). لذا فإن القتل مسـموح، ولكن فقط لأجل الأسـباب الصحيحة؟ هل يمكن اعتبار قتل قاتل مهووس هو واحد من تلك الأسـباب فقط؟ سـنرى ذلك، ولكن علينا أولاً أخذ جولة في العربة.

توجه لعربة الوطواط، بروفيسور طومسون!

إن أحد المعضلات الأخلاقية الكلاسيكية العديدة التي ناقشها الفلاسفة هي: «إشكالية العربة»، وقد تم تقديمها من قبل فليبا فوت Philippa Foot وفُصّلت من قبل جوديث غارفيس طومسون.[12] تخيل أن عربة تتقدم متسارعة خلال مسار ما. والى الأمام في هذا المسار هنالك خمسة أشخاص لم يسمعوا العربة قادمة ولن يستطيعوا الابتعاد عن الطريق. لسوء الحظ، لا يوجد وقت كافٍ لإيقاف العربة قبل أن تصطدم بهم وتقتلهم. والطريقة الوحيدة لتلافي قتل هؤلاء الخمسة هو بتغيير مسار هذه العربة الى مسار آخر. ولكن لسوء الحظ، هنالك شخص ما يقف في ذلك المسار، وقريب جداً أيضاً من العربة بحيث لا يمكن إيقافها وإنقاذه. والآن تخيل وجود متفرج واقف قرب مقبض تغيير مسار العربة و بإمكانه أن يقوم بخيار: أن لا يفعل شيئاً، وهو ما سيؤدي الى مقتل خمسة أشخاص على المسار الحالي، أو التصرف بتحويل العربة الى المسار الآخر، والذي سيؤدي الى مقتل شخص واحد.

لندعو الشخص المتحكم ببروس. هل ستسمح أخلاقيات بروس بتحويل العربة الى المسار الثاني أم لا؟ ولو كانت كذلك، فهل يمكننا أيضاً أن نقول بأنه مطلوب منه القيام بذلك واقعاً؟ تقوم طومسون هنا باتخاذ الخيار الوسطي، خالصة الى أن بروس مسموح له –ولكنه ليس مطالبا– بتحويل مسار العربة. إذ أن من شأن النفعي النموذجي أن يطالب بروس بتدوير القضيب المعدني لتغيير مسار العربة وإنقاذ أكبر عدد ممكن من الأشخاص، في الحين الذي ستكون فيه مشكلة الملتزم بالأخلاق الواجبة هو تصرف بروس والذي سيؤدي الى زهق روح واحدة (بدلاً من السماح لخمسة بالموت بسبب عدم فعله لشيء). يبدو بأن جواب طومسون قد جمع بين مخاوف كل من النفعيين والملتزمين بأخلاق الواجب. مسموح لبروس (وربما مُشجّعٌ أيضاً) بتغيير مسار القطار وقتل شخص واحد بدلاً من خمسة، ولكن

مسموح كذلك لبروس بأن تكون لديه إشكالية تمنعه من القيام بذلك بنفسه.

إحدى الطرق للتفرقة بين منهج النفعية والأخلاق الواجبة هي من خلال النظر الى أنواع القواعد التي تصف كلاً منهما. حيث يتم قياس نتائج النفعية بقواعد محايدة طبيعياً، كتحقيق "الانتفاع الأكبر"، والنفعيون لا يعيرون اهتماما لمن سيتبع القاعدة. إذ أن على الجميع أن يتصرفوا لأجل تحقيق الانتفاع الأكبر، ولا يوجد أي سبب أو عذر لأي شخص ليقول: "أنا لا أستطيع القيام بذلك". أمّا على النقيض من ذلك، تتعامل الأخلاق الواجبة مع الوسيلة نفسها بقواعد محددة، إذ عندما يقول الملتزمون بأخلاق الواجب: "لا تقتل" فإنهم يعنون بأن عليك "أنت" أن"لا تقتل" حتى لو كانت هنالك أسباب أخرى تجعل من ذلك الفعل فكرة جيدة. هذه مجرد طريقة مختلفة للمقارنة بين تركيز النفعي على النتائج الجيدة وتركيز الملتزم بأخلاق الواجب على الوسيلة الصحيحة للحصول على النتائج. ففي الحين الذي يبدو فيه تدوير قضيب مسار العربة لقتل شخص بدلا من خمسة جيداً، فهو قد لا يكون صحيحاً (بسبب ما على ذلك الشخص المحدد فعله).[13]

سيحب هاش هذه القصة

تحب طومسون مقارنة موقف العربة بقصة تتضمن جرّاحاً مع خمسة مرضى، كل منهم يموت بسبب فشل عضوي مختلف وبالإمكان أن يتم إنقاذهم جميعاً من خلال عملية زرع للأعضاء. وبما أنه لا توجد أعضاء متوفرة بالأساليب الطبيعية، تراود الجرّاح فكرة تخدير أحد زملائه (من الذين هم بصحة جيدة) و استئصال أعضائه لاستخدامها في عملية الزرع.[14] وبفعل ذلك، فأنه سيقوم بقتل زميله، ولكنه بذلك سينقذ مرضاه الخمسة.

مع الاستثناء المحتمل لضمادات وجنون الدكتور هاش خاصتنا، فإن

القليل من الأشـخاص سـيؤيدون هـذه الخطـة المتطرفة (إذ كان سـيرفضها الدكتـور توماس وايـن Dr. Thomas Wayne، على روحه السـلام، بكل تأكيـد). أعتقد بأنك تسـتطيع رؤية ما أهدف للوصـول إليه في هذا الموضوع (فمحبو باتمان شـديدو الذكاء في النهاية)، "ما هو الفرق بين المتحكّم في كل من قضية العربة وقضية زرع الأعضاء الخاصة بالجرّاح؟" ففي كلا الحالتين، بإمكان شـخص ما أن يقـف مكتوف الأيدي في كلا القضيتين، تاركاً خمسـة أشـخاص للموت، أو القيام بفعل من شـأنه أن يقتل شـخصا واحدا مقابل إنقاذ خمسـة أشـخاص آخريـن. إن طومسـون، والعديـد من الفلاسـفة من بعدهـا، كافحـوا للإجابـة على هذه الأسـئلة، دون أن يجـدوا جوابـاً قاطعاً. فالعديد من الأشـخاص سـيوافقون على أن تدوير مقبض تغيير سـير العربة له ما يبرره، وسيتفقون أيضاً على أن أفعال الجرّاح ليس لها ما يبررها، ولكننا نجد صعوبة شـديدة في تحديد أسباب شـعورنا حول كلا الأمرين، وصعوبة الأمر تشمل الفلاسفة أيضاً!.

الأسباب العشرة الأهم حول أن الباتموبيل ليست بعربة . . .

كيـف يمكـن مقارنـة وضـع باتمان مـع قصـة العربـة (أو قصـة زراعة الأعضـاء)؟ ومـا هـي العوامـل ذات الصلـة بباتمـان والجوكر والتـي نراها مفقودة في كلا المعضلتين الفلسـفيتين الكلاسيكيتين؟ وما الذي يقوله رفض باتمان "للقيام بفعل" عنه؟.

أحـد الفـروق الواضحة بين قضيتي طومسـون من جهـة وقضية باتمان والجوكر من جهة أخرى، هو أنه في قضايا طومسـن فإن الأشخاص الخمسة الذين سـيموتون إذا لم يتغير مسـار العربة، والشخص الذي سيقتل إذا ما تمَّ تغيير المسـار، يتم إفتراض تسـاويهم من الناحية الأخلاقية. بعبارة أخرى، لا يوجد هنالك أي فرق أخلاقي بين أولئك الأشخاص من حيث الكيفية التي

ينبغي أن يُعاملوا فيها، وماهية حقوقهم، وهكذا دواليك. فجميع الأشخاص على المسارين في قضية العربة هم "بريئون" أخلاقياً، كما هو الحال مع المرضى وزميل الجرّاح في قضية زرع الأعضاء.

ولكن هل يشكّل ذلك فارقاً؟ تقدم طومسن العديد من التعديلات لتقترح بأن هنالك فارقاً. إذ ماذا لو كان الأشخاص الخمسة على الطريق الرئيسي قد انهاروا هناك في حالة من الثمالة في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، والشخص الموجود على المسار الآخر هو عامل صيانة سكك الحديد لذلك المسار؟ حيث لعامل الصيانة الحق في أن يكون هناك، على العكس من أولئك السكارى الخمسة. هل سيجعلنا ذلك أكثر ارتياحاً مع عملية تدوير مقبض تغيير المسار؟ وماذا لو كان المرضى الخمسة الذين هم بحاجة لعملية زرع أعضاء قد وصلوا الى حالتهم اليائسة بسبب إهمالهم لصحتهم، بينما كان زميل الطبيب مراعياً لصحته؟ في كلا الحالتين سيمكننا القول بأن الأشخاص الخمسة هم في محنتهم بسبب خياراتهم (السيئة) الخاصة، وعليهم تحمّل مسؤولية عواقبها كاملة. وعلاوة على ذلك، فإن أرواحهم يجب أن لا تُنقذ على حساب الشخص الآخر والذي تحمّل مسؤولية نفسه وحياته جيداً في كلا الحالتين.

ولكن قضية الجوكر تمثّل العكس تماماً: حيث أنه يمثل الشخص الموجود على المسار الثاني للعربة أو على طاولة العمليات، وضحاياه (الأبرياء المفترضون) هم الأشخاص الخمسة الآخرون. لذا وباتباع المنطق أعلاه، سيكون لدينا قرينة تؤيد قتل الجوكر. فبعد كل ذلك، لماذا على ضحاياه أن يضحوا بأنفسهم ليبقى هو على قيد الحياة، خصوصاً وهو يعيش حياته لأجل قتل الأبرياء؟

هذه القضية تختلف عن القضايا الفلسفية الأصلية، بطريقة أخرى تنطوي على اختلافات أخلاقية بين الطرفين. إذ على النقيض من قضايا

العربة وزرع الأعضاء، فإن الجوكر في الواقع يعرِّض الآخرين للخطر. حيث بالنسبة لحالة العربة، سيكون الأمر كما لو كان الجوكر هو الشخص الذي ربط الاشخاص الخمسة على المسار الرئيسي، ثم وقف على المسار الآخر ليرى ما سيفعله باتمان! (نحن نتحدث عن لعبة شخص جبان!) إذ لو كنّا ميالين لقتل شخص من أجل إنقاذ خمسة، فإن ميلنا ذاك سيُعزز أكثر حتى من خلال معرفة أن أولئك الخمسة يتعرضون للخطر بسبب ذلك الشخص الواحد!

ويمكننا أن نقول بأن الشخص الواحد على المسار البديل لديه الحق في أن لا يتعرض للقتل، حتى لو كان لغرض إنقاذ خمسة أشخاص. وفي الحين الذي سيكون نبلاً منه أن يضحي، فإن أغلب الفلاسفة (بغض النظر عن النفعيين) سيرفضون تحميله مثل هذه المسؤولية. ويكون هذا الأمر أكثر وضوحاً في عملية زرع الأعضاء. حيث بإمكان الجراح التأكد بسؤال زميله فيما لو كان مستعداً لأن يتخلى عن أعضائه (وحياته) من أجل إنقاذ المرضى الخمسة، ولكن من الصعب علينا أن نقول له بأن عليه فعل ذلك. ومرة أخرى، فإن الاختلاف مع الجوكر هو بأنه يعرض الآخرين للخطر، وسيكون من غير المعقول – بعبارة أخرى، ليس من المعقول مع شخص مثل الجوكر – أن يقول: "بالطبع سأقوم بقتل أولئك الأشخاص، ولكنني لن أتعرض للقتل لأجل إنقاذهم!".

وتقديراً لدور الجوكر في صناعة هذا الموقف فإن ذلك يسلط الضوء على المسؤولية التي يواجهها باتمان. فإذا ما قلنا لصاحب القناع الجلدي، كما فعل الجميع، "إذا لم تقم بقتل الجوكر، فإن دماء جميع ضحاياه في المستقبل ستلطخ يديك." فبإمكانه أن يجيب على ذلك بشكل جيد للغاية قائلاً، "لا، فالقتل الذي ارتكبه الجوكر هو مسؤوليته ومسؤوليته لوحده. أمّا أنا فسأكون مسؤولاً عن القتل فقط إذا ما قمت أنا به."[15] وهذه هي طريقة أخرى للنظر

الى القواعد التي يكون الحُكمُ فيها مركزياً ومستقلاً بالنسبة للشخص ذاته والتي ناقشناها سابقاً: فالمتحكم في مثال العربة بإمكانه القول بكل سهولة: "أنا لم أتسبب في جعل هذه العربة تُعرِّض حياة أولئك الخمسة للخطر، ولكنني سأتسبب بموت شخص فيما لو قمت بتغيير مسارها".[16]

"أنا بحاجة الى محامٍ! أوه، هذا صحيح، لقد قمت بقتله أيضاً!"

ما فعله الجرّاح في قضية زرع الأعضاء غير شرعي البتة. ومع ذلك فيما لو دوّر المتحكم مقبض تغيير مسار العربة عارفاً بأنها ستتسبب بمقتل شخص واحد لإنقاذ خمسة آخرين، فشرعية فعلته هذه غير واضحة تماماً. بالطبع، فإن الجوانب الشرعية في قضية باتمان/ الجوكر تبدو أكثر بساطة. ولكن دعونا نفترض (في الوقت الحالي) بأن لباتمان نفس الحقوق الشرعية والقانونية التي لضابط شرطة. فتحت أي الظروف سيسمح لضابط الشرطة بقتل الجوكر (بغض النظر عن حالات الدفاع عن النفس)؟ سيكون ذلك عندما يوشك الجوكر على قتل شخص ما، حينها سيكون لضابط الشرطة مسوغ قانوني لإطلاق النار عليه وقتله (فيما لو كان إيقافه مستحيلا والطريقة الوحيدة هي بقتله). لذا لو قدِم باتمان أثناء محاولة الجوكر لقتل شخص بريء ما، والطريقة الوحيدة لإنقاذ ذلك الشخص هي بقتل الجوكر، فسيكون لباتمان مسوغ لفعل ذلك. (على الرغم من علمي بأن باتمان سيستطيع إيجاد طريقة أخرى لإنقاذ الضحية دون الاضطرار لقتل الجوكر).

لنجعل القضية الآن أكثر صرامة قليلاً ولنقل بأن باتمان قد وجد الجوكر بعد قتله لشخص ما مباشرة. لن يستطع باتمان (أو ضابط الشرطة) فعل أي شيء لإنقاذ الضحية، ولكنه لو قتل الجوكر، فسيقوم بإنقاذ أشخاص مجهولين آخرين ربما سيقتلهم الجوكر لاحقاً، ربما؟

حسناً، لنكن منصفين الآن، فنحن لا نعلم إذا ما كان الجوكر سيقتل أشخاصا آخرين مستقبلاً. يقول الجوكر: «هذه هي المرة الأخيرة التي سأفعل بها ذلك، باتي Batty، أنا أعدك!“ بالتأكيد فأن الجوكر قد أدعى سابقاً بأنه سيتوب عن قتله للآخرين؛ ربما ستكون هذه المرة حقيقية. أو ربما سيموت الجوكر بمسببات طبيعية غداً، فلن يستطيع القتل بعدها أبداً. الحقيقة هي أننا لا يمكننا أن نكون متأكدين من انه سيرتكب جرائم قتل مرة أخرى، لذا فلا يمكننا التأكد أبداً بأننا سننقذ أرواحاً من خلال سلبه روحه.

ونظراً لهذه الحقيقة، فنحن كما لو كنّا قد غيرنا مثال العربة ليصبح بهذا الشكل: هناك ضباب كثيف يحجب الرؤية عن الطريق الرئيسي، ولكننا نستطيع رؤية الشخص الوحيد الواقف على المسار الثاني. نحن لا نعلم فيما لو كان هناك أي شخص في خطر على المسار الرئيسي، ولكننا نعلم أن في بعض الأحيان يتواجد أشخاص هناك. ما الذي سنفعله حينها؟ أو، بتعديل حالة زرع الأعضاء، لا يمتلك الجرّاح أي مرضى بحاجة الى نقل أعضاء في الوقت الحالي، ولكنه يخمّن بأن غداً سيكون هناك بعض منهم، في الوقت الذي سيكون فيه زميله السليم في إجازة من العمل. هل لا يزال عليه أن يضحي بزميله اليوم؟

أنا أعتقد بأن لا أحد فينا سيكون مرتاحاً، بكلا الحالتين، لاختيار قتل شخص واحد من أجل تلافي احتمالية مقتل الآخرين. فأن تحاسب الجوكر على مسؤوليته في مقتل أولئك الأشخاص هو شيء، وهذا قد يؤدي به الى أن يحكم بالإعدام (إذا لم يتم الدفاع عنه باعتباره مجنونا)، وتخميننا بأنه سيقوم بقتل أناس آخرين في المستقبل هو شيء آخر تماماً. يتبع الجوكر نمطاً متوقعاً بالفعل، وهذا أمر مسلم به، وربما سيقوم حتى بالتصريح بأنه سيقتل أشخاصا أكثر في المستقبل. فماذا لو كان لدينا جميع الأسباب – كما هو الحال مع باتمان – لتصديقه؟ هل بإمكاننا التعامل معه قبل قتله للمزيد؟

تـم وصـف معاقبـة الناس قبـل ارتكابهـم للجرائم من قبل الفلاسـفة بالعقـاب المسبق، وهـذا المفهوم قـد أصبح شـائعاً بفضل القصـة القصيرة لفيليـب ك. ديـك Philip K. Dick عـام 1956 "تقريـر الأقليـة" والذي تحـول الى فيلـم حديثٍ من إخـراج سـتيفن سـبيلبيرغ Steven Spielberg وبطولة توم كروز.[17]

ولأن قتـل باتمـان للجوكر لـن يكون عقاباً بشـكل حرفي، طالمـا أنه لا يمتلـك مثل هذه الصلاحيـة لتنفيذ حكم كهذا، فلا يزال بوسـعنا أن نتأمل فيما لو كان العقاب المسبق مقبولا أخلاقياً أم لا، وخصوصاً في هذه المسألة. قـد يقـول بعض أنه لو كان الجوكـر قد عزم على القتل مـرة أخرى، وأعطى تصريحـات واضحـة في هـذا الشـأن، فلن تكـون هنالـك صعوبـة أخلاقية بخصـوص معاقبتـه (ومع ذلـك، فقد تكون هنالك مشـكلة إسـتعلامية أو معرفيـة، إذ لماذا يعـترف بجريمته المسـتقبلية لو كان يعلم بأنه قـد يُقتل قبل أن تُتـاح لـه فرصة لارتكابها؟)، ولكن آخرون قـد يقولون حتى لو قال بأنه سـيقتل مجدداً، فإنه لا يزال يمتلك الفرصـة لتغيير رأيه هذا، وهو تقليل من احـترام تلك القابلية على اتخاذ الخيـارات الأخلاقية لذا لا يمكننا أن نعاقب الناس مسبقاً.[18] وقد يضغط العقاب المسبق على زر الرعب داخل كل واحد منا، ولكن في عصر يمكن أن يموت فيه العديد من الأشخاص بسهولة على أيدي القليل من الأشـخاص، فربما نوشـك على مواجهة هذه الإشـكالية في المستقبل القريب.[19]

إذاً فالقضية قد أُغلقت – صحيح؟

لـذا الآن، نحـن جميعـاً مقتنعـون بأن باتمـان قـد كان محقاً في عـدم قتله للجوكر.

ماذا؟ لا، نحن لسنا كذلك؟

حسناً، بالطبع لستم كذلك. أنظر لها بهذا الشكل – أنا أعتبر نفسي ملتزم بالأخلاق الواجبة بشكل متشدد، ولكن حتى مع ذلك فعليَّ أن أعترف بأنه ربما كان على باتمان أن يقتل الجوكر. (أتمنى أن لا يقرأ أحد من زملائي في المجتمع الكانطي لأمريكا الشمالية هذا – لأنني سأتعرض للضرب – وأعمل في مخبز للمعجنات لعام كامل!) فعلى الرغم من أننا جميعاً، أقصد معتنقي الأخلاق الواجبة، نقول بأن الصواب دائماً يأتي قبل الخير، فإن قدراً كبيراً من الخير كان ليحدث لو تم إنهاء حياة الجوكر قبل سنوات. قارن هذه الإشكالية مع النقاشات الأخيرة التي تخص التعذيب، إذ حتى أولئك الذين يعارضون بكل حماسة اللجوء إلى التعذيب تحت أي ظرف من الظروف ستكون لديهم بعض التحفظات عندما يتعلق الأمر بتعرض أرواح الآلاف أو الملايين للخطر.

لحسن الحظ، فإن الأدب – وبقولي الأدب فأنا أعني «القصص المصورة» يوفر لنا طريقة لمناقشة إشكاليات مثل هذه من دون الحاجة لاختبارها. حيث ليس علينا أن نحتال على الناس لندفعهم إلى الوقوف في مسار عربة، ولا أن نمتلك باتمان والجوكر في الحياة الواقعية. حيث أن هذه هي ما عليه التجارب الفكرية، حيث أنها تسمح لنا باللعب ضمن سيناريوهات خيالية حول ما على البطل فعله من عدم فعله. ولسوء الحظ بالنسبة لباتمان، فإن الجوكر ليس خيالياً بالنسبة له، وأنا متأكد بأنه سيبقى يعاني بسبب هذه الإشكالية لعدة سنوات أخرى.

هوامش الفصل الأول:

1- قتل جيسون تود في Death in The Family 1988، وقتلت الملازم إيسين في No Man's Land المجلد الخامس 2001، وأصيبت باربرا غوردن بعيار ناري في The Killing Joke 1988، أمّا أكثر أتباع الجوكر فقد قتلوا في Batman العدد #663 في أبريل 2007.

2- "الشر" في كتاب جويل فاينبيرغ، مشاكل في جذور القانون (Oxford: Oxford Univ. Press2003)، الصفحات 125-192.

3- الجوكر هو مثال للدفاع عن المتهم بحجة الجنون، لذا فهو لا يتلقى عقوبة الإعدام أبداً.

4- بعد مقتل الملازم إيسين في No Man's Land على سبيل المثال.

5- العدد #614 من Batman في يوليو 2003، ضمن المجلد الثاني من Hush 2003. لم أتمكن للأسف من توفير مكان لإقتباس حوار باتمان الذاتي في هذا الفصل حول هذه المسألة كما أحب، ولكنها كتابة رائعة يستحق جيف لويب الثناء عليها.

6- راجع Hush في العدد #74 المعنون Gotham Knight في أبريل 2006، وجيسون تود في Batman العدد #650 أبريل 2006، وجين بول فالي في Robin العدد #7 يوليو 2006.

7- يمكن تتبع النفعية وصولاً لكتاب جيرمي بينثام مبادئ الأخلاقيات والتشريعات (1781; Buffalo NY: Prometheus Books edition 1988).

8- يُعد إعدام وندرومن الأخير لماكس لورد في قصة Sacrifice، لإنهاء سيطرته النفسية على سوبرمان، إستثناء هاما وقد تمت معالجة الأمر بنفس الطريقة في قصص لاحقة. (لاحظ Wonder Woman العدد #219 سبتمبر 2005، والمجموع أيضاً في Superman: Sacrifice 2006).

9- راجع الملاحظة 6 من المصادر.

10- في مشهد مع جيسون تود، يقول مفسراً: "كل ما أردته دائماً هو قتله، أريده ميتاً - ربما أكثر من أي شيء أردته أبداً." في The Man Who Laughed 2005، حيث

يحمل الجوكر معلقاً إياه فوق خزان مدينة غوثام المسموم، "هذه المياه مليئة بسم كافي لقتل الآلاف. يبدو من السهل تركه يسقط فيه فقط. الكثيرون قد فقدوا حياتهم بسببه. . . لكنّي لا أستطيع فعل ذلك."

11- أكثر أخلاقيي الواجب شهرة هو إيمانويل كانط، والذي كان عمله الرئيسي هو كتاب أسس غيبيات الأخلاق (1785; Indianapolis IN: Hackett Publishing Company 1993).

12- للاطلاع على معالجة فوت الاصلية، راجع مقالتها "مشكلة الإجهاض وعقيدة التأثير المزدوج" في كتابها "الفضائل والرذائل" (Oxford: Clarendon Press 2002) الصفحات 19-32. وبالنسبة لنسخة ثومبسون، لاحظ "مشكلة العربة"، أعيد طبعها في كتاب "الحقوق، التعويضات، والمخاطر" الذي حرره وليام بارنت (Cambridge: Harvard Univ. Press 1986) الصفحات 94-116؛ وكذلك الفصل السابع من "مملكة الحقوق" (Cambridge: Harvard Univ. Press 1990).

13- للحصول على معاملة ممتازة لأجل وكيل مقرب نسبياً، راجع كتاب ساموِيل شيفلر "رفض التبعية"، النسخة المنقحة (Oxford: Oxford Univ. Press: 1990).

14- دون الاهتمام بالصعوبات الهائلة لكون أحد زملائه سيكون مانحاً لخمسة مرضى!

15- في العدد #614 من Batman يفكر، "لا أستطيع، لن أستطيع إلقاء المسؤولية على الجوكر." لكنه يضيف بعدها، "إلّا أنه كان ينبغي أن أقتله منذ زمن بعيد." أخيراً، وبعد التفكير في أن الجوكر قد يقتل شخصاً مقرباً منه مرة أخرى، "سيموت الليلة بيديَّ هاتين." ليسرح بخياله بعدد من السيناريوهات الممكنة لقتله. ليجعلك تتساءل ما الذي كان سيحصل لولا وجود جيم هناك لمنعه. . .

16- هذا يستحضر أيضاً التمييز الأخلاقي المثير للجدل بين التسبب في الوفاة من خلال اتخاذ موقف فاعل والتسبب في الوفاة من خلال عدم اتخاذ موقف فاعل. يعتبر مجرد السماح بالموت أسهل من التسبب المباشر في الموت، ضع في اعتبارك خيار نايتوينغ بعدم منع تارانتولا من قتل عدوه اللدود بلوكباستر، الذي صادف أيضًا أنه وعد بقتل المزيد من الأشخاص في المستقبل (Nightwing العدد #93، يوليو 2004). ومن المثير

للاهتمام أن ديك قام بالفعل بقتل الجوكر في أحد المناسبات، على الرغم من أن باتمان قد أعاد إحياءه لاحقاً (Joker: Last Laugh العدد # 6، يناير 2002).

17- يمكنك العثور على القصة القصيرة في مجموعة فيليب ك. ديك "تقرير الأقلية" (New York: Citadel 2002). إن توم كروز، المعروف بشكل أساسي بكونه متزوجًا من الممثلة كاتي هولمز من Batman Begins في حال عدم معرفتك به (لم يفعل شيئًا آخر يستحق الذكر، على حد علمي).

18- يجادل كريستوفر نيو من أجل المكافأة في "الوقت والعقاب"، التحليل 52، الرقم. 1 (1992): الصفحات 35 - 40، ويجادل ساؤول سميلانسكي ضده (ونيو) في "حان الوقت العقاب" ، تحليل 54، الرقم. 1 (1994): الصفحات 50 - 53. ثم إستجابة جديدة لسميلانسكي في "أوقات العقاب: الرد على سميلانسكي،" تحليل 55 الرقم. 1 (1995): الصفحات 60 - 62.

19- واجهت وندرومن هذا السؤال بالفعل فيما يتعلق بماكس لورد، الذي وعد بإجباره سوبرمان على القتل، وتوصلت إلى استنتاج معاكس. (يبدو أنها كانت قد قرأت أوراق نيو.) ولكن من المفارقات أنها هي التي منعت باتمان من قتل آليكس لوثر (الذي كاد أن يقتل نايتوينغ) في العدد #7 من Infinite Crisis (يونيو 2006). ومما يثير السخرية أكثر، من الذي قتل آليكس في نهاية المطاف في نهاية نفس القضية؟ إنه الجوكر.

2

هل كان من الصائب صنع روبن؟

بقلم: جيمس دي جيوفانا

ما الذي ينبغي على باتمان فعله؟

باتمان وروبن، فارس الظلام the Dark Knight والفتى الأعجوبة the Boy Wonder، ذلـك الثنائي الفعّال، مـن الذي يمكن أن يبدو طبيعيا أكثر مـن ذلك؟ ولكن بغض النظر عن مدى ظهوره المألوف والمناسـب للحبكة، فإنك قد تتسـاءل: هل هو قرار صائب حقاً بالنسـبة لباتمـان أن يدرّب طفلاً صغيراً ليصبح روبن لغرض إرساله لقتال مجرمين خطرين؟ ولأجل الإجابة على هذا السؤال، علينا أن ننتقل الى فلسفة الأخلاق، وهو فرع الفلسفة الذي يهتم بأسئلة مثل "ماذا عليَّ أن أفعل؟ وكيف عليَّ أن أعيش حياتي؟ وأيُّ نوع من الأشخاص عليَّ أن أكون؟".

لنقل، على سـبيل المثال، بأنك تمتلك فكراً متفوقاً، وبراعة غير مسـبوقة في فنون الدفاع عن النفس، وذاكرة مؤرقة تعيد عليك مشاهد مقتل والديك مـن قبل المجرمـين. ربما حينها سـتجيب عن تلـك الأسـئلة الأخلاقية بهذه الطريقـة: "ربـما عـليَّ أن أرتدي قناعاً وعبـاءة وأتخفى في ظلمـة الليل لأجل

إيقـاف المجرمـين مانعاً إياهم من مزاولتهم أعمالهم الشـنيعة بالقوة"، أو ربما ستجيب عن هذه الأسئلة بـ: "عليَّ أن أحصل على بعض العلاج النفسي. ينبغي أن أصبح شـخصاً أقلَّ هوسـاً وأكثر إنسـانية. ينبغي أن أكـون مربياً حنونا"، (ولكن بعدها سيكتب أناس أقل بكثير قصصاً مصورة عنك).

مـاذا عـن هذا: أفـترض بأنك وجـدت طفلاً يتيـماً يعيش في الشـوارع، وأردت مسـاعدته. فما الـذي عليك فعله؟ يبدو بـأن الإجابة الأخلاقية على ذلـك تتضمـن تحويله إلى الخدمـات الإجتماعية، وإيجاد منزل لـه، وإيجاد من يتبناه ويرعاه. ولكن ماذا عن إعطائه لباسا معينا، وتدريبه على محاربة الجريمة، وتعريضه للخطر بحجة صقل وتحسين مهاراته وشخصيته؟ هذا هو بالضبط مـا فعله باتمان مع روبن في مناسـبتين ومع شـخصيتين مختلفتـين (وهما ديك غريسـون Dick Grayson وجيسون تود Jason Todd)!. إن من الصعب التخيل بأن هذا القرار مقبول أخلاقياً بنفس قدر تحويله الى إدارة المدينة، وما يتبعها. ومع ذلك، ومن خلال تتبع التاريخ، فإن العديد من الناس قد اتخذوا مسـاراً مشـابهاً في تربية الأطفال. فالإسـبارطيين القدماء، وملوك أوروبا في العصـور الوسـطى، ومحاربـو غينيـا الجديدة، جميعهـم قد عرّضـوا الأطفال الصغـار الى خطر مميت بحجة تحويلهم الى بالغـين أقوياء. في الحين الذي قام فيه ملوك أوروبا في القرون الوسطى بإلباس الأطفال عباءات ورموزا فقط، ولكـن لا يـزال هنالك شيء يختلف عمّا حـدث مع باتمان عـمّا هو موجود في سلوك جميع أولئك الناس.[1]

هـل بإمكاننـا تبرير هذا النوع مـن طرق تربية الأطفـال؟ وهل بإمكاننا أن نعـذر ميـل باتمان لأخـذ الأطفال والدفع بهـم أمام العديد مـن المجرمين الذين يرتدون ملابس شبيهة بالمهرجين؟ تشكّل هذه القضايا جوهر المسائل الأخلاقية التي تتعلق بالتربية والتعليم المناسـبتين لروبن، وهي تشـكّل أيضاً أساس هذا الفصل.

واجب البطل الخارق

يمكــن تعريــف الأخلاقيــات بمحاولــة العيش من خــلال مجموعة من القواعــد والواجبات، حيــث أن من الضروري إتباع بعـض هذه القواعد أو السـير وفقاً لبعـض تلك الواجبات بغـض النظر عن العواقـب، وذلك لأن الواجـب بحد ذاته هو الأكثر أهمية بكل بسـاطة. نحـن ندعو هذه الأخلاق بالواجبـة deontological، وهـذا المصطلح مشـتق من الأصـل اليوناني deon، ومعنـاه "الواجـب duty" . وأهم أخلاقيي الواجـب هو إيمانويل كانط (1724 – 1804)، والذي أيد بشـكل شهير بأن أهم الواجبات يجب أن تكـون عالميـة ومطلقـة. وعبارة "مطلقـة" تعني "من دون إسـتثناءات"، بعبـارة أخـرى، لا أسـتطيع أختيار واجب ومـن ثم أفكر بعدهـا في حالات لا يمكـن تطبيقـه عليهـا، أو أختيـار عدم تطبيقـه في بعض الحـالات المعينة. لـذا، وعـلى سـبيل المثال، يقول كانـط بأن هنالـك واجبا أخلاقيـا بعدم قول الأكاذيب. لنفترض بأن باتمان قد تمَّ إمسـاكه من قبل الجوكر، وأراد الجوكر معرفـة مكان روبن. بالتأكيـد فإن بإمكان باتمان أن يرفـض الإفصاح، أو أن يلتف على السـؤال، ولكنه لا يسـتطيع الكذب على الجوكر والقول بأن روبن في موقـع ما حيث يصنع باتمان فخـاً للجوكر إلّا إذا كان روبن هناك بالفعل، لأن ذلك من شأنه أن ينتهك واجب عدم قول الأكاذيب.[2]

وعبـارة "عالمية" تعنـي بأن القاعدة يمكن تطبيقها عـلى الجميع، بعبارة أخـرى، علينا أن نسـأل عـن أي تصرف مقـدّم، مثل: "ماذا لـو فعل الجميع هذا؟" أو كما يقول كانط: "تصرف فقط وفقاً لهذا المبدأ (القاعدة التي ينبغي عـليَّ إتباعهـا) حيث يمكنـك، في الوقت نفسـه أن تخلق منه قانونـاً عالميا"[3]، حيث يجادل كانط بأنه إذا لم يسـتطيع مبدأك أن يكون "عالميا" بهذه الطريقة، فهو ليس بأخلاقي، لأن كل شـخص عليه أن يكون قادراً على العيش بنفس القواعد الأخلاقية التي تتخذها لنفسـك، ولا يسـتطيع أي شخص مهما كان

أن يصنع استثناءات لنفسه.

لذا فلنأخذ جيسون تود (روبن الثاني) إنموذجاً، والذي قرر باتمان تدريبه بعد أن أكتشف بأنه كان يحاول سرقة عجلات سيارته.[4] إذ لو أردنا أن نصبح ملتزمين بأخلاق الواجب الكانطية، فعلينا أن نسأل دائماً: "هل هذا يتفق مع القاعدة التي هي قاطعة (أي ليس لها أي استثناءات) وعالمية (أي تنطبق على الجميع)؟" من الممكن أن يكون مبدأ باتمان شيئاً كالتالي: "إذا رأيت يتيماً يحاول سرقة عجلات سيارتك، فعليك أن تضعه في زي متألق باللون الأحمر والأصفر وإرساله ليقاتل الرجل البطريق". ولكن من الصعب أن يكون هذا عالمياً، حيث كان كانط ليجادل بأن من غير الأخلاقي القيام بذلك.

ولكن نادراً ما تكون المبادئ بتلك الدقة، فبعد كل شيء، إذا أتبع الجميع مبدأ "كُن فيلسوفاً"، فإن العالم سيترنح باكياً بالتأكيد، ولكن سيبقى أن ترى تحول المرء إلى فيلسوف كأمر غير أخلاقي صعبا للغاية. ولكن مبدأ "كُن أي شيء يجعلك سعيداً" أو "أستفد من مواهبك" من شأنه أن يكون أكثر عمومية وأسهل كثيراً لكي يكون عالميا. ربما نستطيع إعادة صياغة المبدأ الخاص بجيسون تود ليقرأ بالشكل التالي: "أفعل ما تستطيع لمساعدة الأيتام"، هذا الشيء عالمي بالطبع، وهو يتناسب مع واجب كانط العام في مساعدة الآخرين. وبالطبع، إن مساعدة الأيتام لا تتضمن بالضرورة "إرسال الأيتام لقتال المجرمين المضطربين عقلياً بأزياء تناسب الهالوين". إذ في الحقيقة، إن من المرجح لنا أن نعتقد بأنه يجب أن تكون هنالك قاعدة عالمية لحماية الأطفال من التعرض الى الأذى أثناء مساعدتهم. وبهذا المعنى، فإن واجب حماية الأطفال يضع قيوداً حول ما الذي عليك أن تفعله لمساعدتهم. وإذا قبلنا بهذا، فإن باتمان ليس بالكانطي الجيد، في ما يخص هذا الشأن على الأقل، لأنه قد عرّض روبن للأذى.

استخدام روبن لأجل المنفعة العامة

بالإمكان تعريف الأخلاق باعتبارها عملية معرفة أي من أفعالنا بإمكانها أن تُنتج الناتج الأفضل، ومن ثم إتباع ذلك النهج من الأفعال. وتسمى هذه بالأخلاق العواقبية consequentialist ethics، لأنها تُعنى بعواقب أفعالنا بشكل أكبر من عنايتها بالصواب الأخلاقي المتأصل بالفعل ذاته.

فالنفعيون كجيريمي بينثام Jeremy Bentham (1748 – 1832) وجون ستيوارت ميل John Stuart Mill (1806 – 1873) يجادلون بأن الفعل سيكون أخلاقياً إذا ما كانت نتائجه ستؤدي الى أكبر قدر من المنفعة، أو الربح، أو تحقيق السعادة لأكبر قدر من الأشخاص.[5] ففي معارضة لموقف متّبعي أخلاق الواجب القائلين بـ"حماية الأطفال" أو على الأقل "عدم تعريض الأطفال لأذى جسيم"، فإن المنظور النفعي بالإمكان أن يستخدم من قبل باتمان لتبرير وضع روبن في الخطر إذا كان ذلك سيعزز من المنفعة العامّة لمدينة غوثام. إذ لو كان تدريب الأطفال كروبن سيؤدي إلى خير أكبر لسكان غوثام يفوق تكاليف تكريس الوقت لأجلهم، وأكياس اللكم الخاصة بتدريبهم، وإصاباتهم، إذاً فالنفعيين سيجدون فيه ما يبرره.

ولكن ماذا عن شخصيات روبن نفسها؟ فبعد كل شيء فقد تم قتل جيسون تود بتفجيره الشهير من قبل الجوكر. أليست هنالك تضحيات باهظة الثمن يتم دفعها، حتى لو كان المقابل منها مساعدة الكثير من سكان غوثام؟ يبدو بأن النفعيين ذوي سمعة سيئة بتبريرهم معاملة الأشخاص كوسيلة لتحقيق أكبر قدر من المنفعة للأغلبية، حتى لو عنى إيذاء أولئك الأشخاص المستخدمين في تلك العملية. فعلى سبيل المثال، إذا كانت العواقب الكبيرة لإنقاذ مجموعة ما من شخص شرير تتطلب التضحية بشخص أو أثنين أو حتى مائة شخص خلال العملية، لذا، وعلى أسس نفعية، فإن ذلك سيبدو

صحيحاً أخلاقياً. وبذلك فنحن نستطيع الافتراض بأن باتمان ربما يتفق بأن وضع تابع يافع له أمام الخطر هو مبرر بالنظر لما يدره ذلك الأمر من منفعة بالنسبة للمجتمع.[6] ولكننا نعلم بأن باتمان لن يضحي أبداً بحياة أي عابر سبيل بريء من أجل القبض على مجرم. لذا فهو يطبق هذا المنطق فقط على الأشخاص الذين يدربهم بنفسه، والذين تطوعوا أيضاً للقيام بهذا العمل. (ولكن مرة أخرى أيضاً، ماذا لو لم يريد الطفل ذلك؟) إذ لطالما أن تدريب أطفال كروبن بالإمكان أن يتم تفسيره بتفكير نفعي بالنسبة لباتمان، فإن هذا التفكير لن يذهب الى مكان بعيد.

الشخصية ومكافحة الجريمة

هل هناك طريقة أخرى لفهم قرار باتمان الأخلاقي، وعملية صنع هذا القرار؟ إن قراره في صناعة شخصيات روبن من أجل مكافحة الجريمة من الممكن أن ينبع من أخلاق فاضلة، والتي تؤكد على الصفات الشخصية العامة، وتدعى بالفضائل أو الامتيازات، بدلاً من الحكم على أفعال محددة (كما تفعل كل من النفعية والأخلاق الواجبة). فالأخلاق الفاضلة تأخذ الاختلافات أيضاً بنظر الاعتبار، مثل الاختلافات في الشخصية، والقواعد المختلفة التي يتصرف على أساسها الناس، والثقافات المختلفة حيث يعيشون. وفي الوقت الذي يسعى فيه باتمان للحفاظ على المبادئ الأخلاقية المجردة والتي يعتقد بأنها دوماً على حق، يبدو كذلك بأنه يفهم بأن اختلاف نوعيات الشخصيات تتطلب أنواعاً مختلفة من ردود الفعل. فليس من الضروري أن يكون كل شخص باتمان أو روبن. إذ أن نوعية الشخصية المحددة التي ستصبح بطلاً خارقاً لا تناسب الجميع، والمجتمع يتطلب أدواراً مختلفة لكل واحد منا.

قد يكون من الممكن تبرير منهج باتمان في العمل لأنه قد غرس في روبن شخصية محددة والتي، مع أنها لا تناسب الجميع، إلّا أنها لا تزال مهمة

وضرورية في علاقتها مع الثقافة بصورتها الأوسع.[7] وبعبارة أخرى، فإن لروبن دور يلعبه من شأنه أن يجعل العالم مكانا أفضل، وربما يكون باتمان يحوّل جيسون تود الى شخص أفضل بتدريبه كروبن، حتى لو لم تكن حقيقة عالمية حول أن الرجال الذين يلبسون كالوطاويط عليهم أن يحولوا الأيتام سارقي إطارات السيارات الى أسلحة حية تقاتل لأجل العدالة.

كان أفلاطون (428 – 348 ق.م) أول الفلاسفة الغربيين الذين كتبوا حول منهج أخلاقيات الفضيلة.[8] وكان يؤمن بأن معايير أخلاقية مختلفة تنطبق على أشخاص مختلفين إعتماداً على أدوارهم في المجتمع. ومع ذلك، فإن القواعد الأخلاقية العالمية تنطبق على الجميع، لذا ففي جوانب محددة كان الجميع متساوياً أخلاقياً، بينما في المطالب الأخلاقية المحددة بالأدوار الاجتماعية المختلفة، فأن الواجبات الأخلاقية المطروحة تصبح متفاوتة.

غير أن ضوء أخلاقيات الفضيلة خفت وكاد أن يتلاشى في بداية العصر الحديث. ولكن في القرن العشرين، فإن فلاسفة، ومن ضمنهم مايكل سلوت Michael Slote، مارثا نوسبوم Martha Nussbaum، وآلسدير ماكنتاير Alasdair MacIntyre ، كانوا قد جادلوا بأن هنالك مشاكل في أخلاقيات النفعية وأخلاقيات الواجب تم تحجيمها من قبل أخلاق الفضيلة.[9] فبإمكان النفعيين والملتزمين بأخلاق الواجب النقاش حول العمل الصحيح، ولكن يبدو بأنهم غير قادرين على القول كيف يمكن لشخص أن يكون قادراً على اتخاذ القرار الصحيح. ويطلق أحياناً على نظريات النفعيين والملتزمين بأخلاق الواجب بأخلاقيات "الفعل" أو "القاعدة"، حيث أنهم يتعاملون مع الأفعال الفردية والقواعد العالمية التي تنطبق عليها. وما لا يتعاملون معه، بشكل عام، هو التدريب اللازم لخلق نوع من شخصية من شأنها أن تمتلك نزعة التصرف بأخلاقية. تبدو أخلاق الواجب والنفعية بأنها تلمح إلى أن الفهم البسيط للنظرية الأخلاقية ينبغي أن يكون كافيا، أي شخص

يعلم أكثر، أو من المرجح أنه يعلم أكثر، سيتصرف بصورة أفضل. ولكن من الواضح أن بإمكاننا أن نعلم عن شيء بأنه خاطئ ولكننا سنستمر بممارسته، وذلك بسبب ضعف إرادتنا، مثلاً.

وعلاوة على ذلك، يبدو من الواضح بأن بعض الأشياء التي نعتقد بأنها جيدة هي ليست جيدة بالضرورة بالنسبة للجميع وفي كل الظروف. فعلى سبيل المثال، بإمكان ضباط الشرطة اعتقال الناس، ومصادرة المركبات، واستخدام قوة مميتة في مواقف محددة. ولكننا لا نريد من المواطنين الاعتياديين أن يتصرفوا على هذا النحو. لذا فإن شيئاً ما حول الدور المحدد لضابط الشرطة يتطلب بعض القواعد الأخلاقية، حتى لو كان على كل الأدوار الاجتماعية في النهاية أن تلتزم ببعض القواعد الشاملة. فمن المهم أن يخضع ضباط الشرطة الى التدريب ليعلموا المزيد عن دورهم، وفقط بعد أن يتم تدريبهم بشكل صحيح، كما يأمل المرء، وينمّون الشخصية الملائمة، سيمكنهم حينها التصرف كضباط شرطة. وهذا هو السبب الذي جعل مؤسسي أخلاق الفضيلة، وأقصد كل من أفلاطون وأرسطو (384 – 322 ق.م)، أن يشددوا على بناء الشخصية، ويشيروا الى أهمية تدريب شخص ما ليصبح أخلاقياً، بدلاً من تفسير كيف يكون أخلاقياً ببساطة.

في كتاب "ما بعد الفضيلة After Virtue" يجادل آلسدير ماكنتاير بأن الشخصية يتم خلقها طوال مسيرة حياتنا من خلال الطريقة التي نتصرف بها. ويتفق ماكنتاير مع أفلاطون، الذي يعتقد بأننا نتصرف أولاً بسلوك أخلاقي، ومن ثم نتعلم بعدها الأخلاق. فباختصار، نحن لا نفسر الأخلاق للطفل، نحن ببساطة نقول "لا" فقط. وفقط عندما يتقدم الناس بالعمر وقد استوعبوا بالفعل السلوك الفاضل ويكونون عندها قادرين على فهم الأسباب المجردة للتصرف بشكل فاضل أو أخلاقي. في ذلك الوقت فقط، سينغمس في التفكير الفلسفي حول السلوك الأخلاقي والقيام بالتجارب

الفكرية الأخلاقية التي يعتبرها كل من العواقبيين والملتزمين بأخلاق الواجب من صميم الأخلاق، والمقصود بها هو استنتاج القواعد العامة والتفكير بشكل فاعل حول النتائج.

في البداية، فإننا نتعلم الأخلاق من خلال التعرض الى التوبيخ عندما نسيئ التصرف، ونُكافئ عندما نتصرف على نحو صحيح. وإذا ما أردنا أن نغرس فضائل معينة، كالشجاعة، فعلينا أن نختبر الشخص الذي ننوي تنمية تلك الفضيلة فيه. فالشجاعة تأتي من مواجهة الخطر. لذا فإذا كان على الطفل أن يصبح شجاعاً، فلابد من أن يواجه بعض المخاطر. فإذا رأينا بأن للطفل ميل طبيعي للشجاعة، فسيصبح مرشحا جيدا للعب دور جندي أو ضابط شرطة في المستقبل. حينها نقوم نحن بمضاعفة تدريبه ليكون شجاعاً، مضيفين فضائل أخرى، مثل الرفق والاعتدال، لنصقله ببطئ حتى يتحول إلى الشخصية المطلوبة.

ولكن من دون الخبرة في السلوك الأخلاقي، والتجربة العامة للعالم، فهذا النوع من الفكر من المرجح أن يكون مضللاً، ومن دون الشخصية الأخلاقية التي تقوم بحمل تلك الأفكار الأخلاقية إلينا، فمن المحتمل أن يكون كل ذلك غير ذي فاعلية. فمن دون خلفية وتدريب على السلوك الجيد، فلا يمكن لأي قدر من المعرفة المجردة عن السلوك الجيد أن تكفي. حيث لا يهم كم التنظير الذي ننتجه، فمن دون خلفية سلوكية، فإن ميلنا الى التصرف بأنانية وبلا فضيلة سيتغلب على معرفتنا حول الطرق الأفضل لصياغة الذات.

هل بإمكان باتمان أن يدرب روبن على الفضيلة؟

حين يأخذ باتمان روبن تحت جناحيه، فهو لا يكتفي بشرح أخلاقيات الأبطال الخارقين له؛ فباتمان يدرب روبن ويعلمه، وعلّمه من خلال الممارسة

والخبرة طُرُقَ البطل الخارق. ولكـن لا تزال لدينا تسـاؤلات حول الصواب الأخلاقـي لهـذا: إذ قد يدرب أحد ما، على سـبيل المثال، طفلاً ليصبح سـارقاً، مانحـاً إيـاه "فضائل" المجرم. حيـث تتطلب الأخلاق الفاضلـة بأن نقرر نوع التدريبـات التي سنسـتخدمها، لماهية الشـخصية الأخلاقية التـي نريد خلقها. ومن أجل ذلك فعلينا، بشـكل أشـبه بالعواقبيين والملتزمين بأخلاق الواجب، اللجـوء للقواعـد العامـة، وبشـكل أشـبه بالعواقبيـين على وجـه الخصوص، سنتساءل "أي نوع من الأشخاص نريد مستقبلاً أن يصبح الصبي اليافع الذي ندربه؟".

وعـلى الرغـم من أن الأخلاق الفاضلة تتطلـب التدريب، فلا يمكن لأي شـخص أن يحصل على التدريب المناسـب لكل دور؛ فإذا ما أبدى شـخص ما ميلاً طبيعياً لبعض الفضائل، فسـيكون بالإمكان تدريبه عليها. ولكن لو أفتقر شـخص ما بشـدّة الى بعض الفضائل، فسـيكون من المسـتحيل تقريبـاً تدريب شخص مثل هذا ليأخذ دوراً يتطلب منه توفر تلك الفضائل. خذ جيسون تود كمثال؛ لجيسـون فضيلة الشجاعة، ولكنه يمتلك أيضاً رذائل القسوة والتهور. وكانـت تعتريه الفرحة بـضرب الأشرار بعنف وقد أتخـذ العديد من القرارات الطائشـة والتي وضعته وباتمان في خطر. من حيث تدريب جيسون الأخلاقي، يبدو باتمان بأنه قد فشـل في أمرين: فقد فشـل في منحه فضيلة الاعتدال، وأيضاً في تغيير طابع شخصيته الميالة لجزئه اليافع.

لقـد واجه باتمـان عدداً من الصعوبات في تدريبه لجيسـون تود. فأولاً، إن شخصية تود قد تشكّلت بالفعل من خلال ماضيه الإجرامي. وثانياً، كان تركيز باتمان منصباً دائماً على تدريبه على القتال والشجاعة وسرعة البديهة. ببساطة، لم يكن مستعداً لتدريب روبن على اللطف والاعتدال في الشجاعة. وربما كنتيجة لتلك الإخفاقات، سـارع جيسون للدخول في معركة مع الجوكر وقُتل خلالها، لتلازم تلك المأساة باتمان منذ ذلك الحين (حتى بعد القيام الأخير لجيسون).

في بعض الأحيان يفشل الأبطال:

ولكن كيف كان بالإمكان إنقاذ روبن؟ ففي النهاية، قد تتوه منا الشخصية الأخلاقية مهما كانت نوايانا أو نوايا معلمينا جيدة. ومع ذلك فالفضيلة تستحق السعي لأجلها دائماً؛ فلو لم يكن باتمان قد أتخذ قراراً فاضلاً بتدريبه المكثف لنفسه، لم يكن ليصبح باتمان أبداً.[10] في حين أن قواعد الملتزمين بأخلاق الواجب والعواقبيين تركز على النتائج التي بإمكانها أن تساعدنا على اتخاذ خيارات أخلاقية، فإنهم يجعلونها تبدو كما لو كانت الأخلاقية تعني ببساطة مسألة اتخاذ خيارات صحيحة ببساطة. في بعض الأحيان، يعترف معتنقي الأخلاق الفاضلة، بأن أفضل النوايا غير قادرة على الوصول لنتائج أخلاقية جيدة بسبب القيود العديدة خلال تطور الشخصية. وكما أكتشف جيسون تود، فالفشل احياناً لا يعدو كونه حقيقة من حقائق الحياة الأخلاقية. وربما كان جيسون تود ببساطة غير مناسب لدور البطل الخارق، ويفتقر الى النزعة أو الميل الطبيعي لذلك، (حيث أصبح بعد قيامه من الموت ما هو مضاد للبطل بدرجة أكبر بالفعل، مختاراً أن يقوم بقتل المجرمين). وفي تلك الحالة، كان لزاماً على باتمان أن يضعه في دور آخر، وقد حدث ذلك بالفعل، حيث توقف في نهاية المطاف عن تدريب جيسون كبطل خارق في وقت متأخر من مسيرته (ولكن كان الوقت متأخراً جداً حينها لذلك). وربما كان جيسون تود ببساطة بحاجة الى نوع آخر من التدريب لم يكن باستطاعة باتمان أن يوفره له.

سنستطيع الآن العودة إلى السؤال الذي طرحناه في بداية هذا الفصل وهو، هل كان قرار باتمان بتدريب روبن جائزاً أخلاقياً؟ أياً كان المنظور الأخلاقي الذي ستستند عليه للإجابة، فما يبدو واضحاً هو، في سياق هذه المسألة، أن باتمان ملتزم رديء بأخلاق الواجب، وعواقبي جيد، وبلا ريب، فهو نوعاً ما يعتبر من أخلاقيي الفضيلة. ومن دون أن نضطر لنكون أعظم المحققين (أو الفلاسفة) في العالم، سيكون علينا ترك هذا الأمر عند هذا الحد!

هوامش الفصل الثاني:

1- راجع كتاب باربرا غرينليف "الأطفال خلال العصور: تاريخ الطفولة" (New York: McGraw - Hill 1978).

2- راجع كتاب كانط "أسس غيبيات الأخلاق" (1785)، مترجم إلى الإنكليزية من قبل جيمس و. إيلنغتون (Indianapolis: Hackett Publishing Co. 1993). يقدم كانط نفس هذا المثال تقريباً في مقالته "حول الحق المزعوم للكذب من المخاوف الإنسانية" (1799). حيث يقول بأنك لا يمكنك الكذب على قاتل يسألك عن موقع ضحيته المستهدفة (والتي تختبئ في منزلك). (هذه المقالة موجودة ضمن كتاب أسس غيبيات الأخلاق).

3- كانط، أسس غيبيات الأخلاق، الصفحة 421.

4- سنركز على جيسون بسبب كونه لص سابق (على الأقل في الفترة التي تبعت سلسلة Crisis on Infinite Earths)، وبسبب نهايته المأساوي في A Death in the Family (1988).

5- جيرمي بينثام، "مبادئ الأخلاق والتشريع" (1781) (Buffalo NY: Prometheus Books 1988)؛ جون ستيوارت ميل، "النفعية" (1863) (Indianapolis: Hackett Publishing Company 2002).

6- للاطلاع على حجج النفعية التي تدافع عن استخدام الأشخاص كوسائل لغايات مختلفة، راجع كتاب بيتر سينغر "الأخلاق العملية" (Cambridge: Cambridge Univ. Press 1993). يجادل كانط بشدّة ضد هذا الموقف، مطالباً بعدم استخدام الأشخاص مطلقاً كوسيلة لتحقيق غاية، دون إعتبار لغاياتهم (أسس غيبيات الأخلاق، الصفحة 429).

7- أحد شخصيات القرن العشرين الرائدة لأخلاق الفضيلة هو ألسدير ماكنتاير، والذي، في مجلده الرئيسي "ما بعد الفضيلة" (Notre Dame IN: Notre Dame Press 1984)، عرّف "الشخصية" بأنها اندماج الدور مع الهوية الذاتية (الصفحة 28). بعبارة أخرى، في الشخصية لدينا ما يفعله شخص آخر، والتي يمكن أن تكون وظيفته أو مهنته أو واجبه، متبوعة بميوله ورغباته ومواقفه الأساسية مجتمعةً لتجعله كلياً. يلاحظ

ماكنتاير أن الكلمة اليونانية التي تشكل أساس "الأخلاق" والكلمة اللاتينية التي تشكل أساس "الفضيلة"، تُترجم تقريبًا بـ"التعلق بالشخصية" (الصفحة 38).

8- راجع كتاب الجمهورية لأفلاطون، ترجمة ج. غراب (Indianapolis: Hackett 1992). غالبًا ما يتم اعتبار كتابات الفيلسوف الصيني كونفوشيوس (551 - 479 قبل الميلاد)، التي سبقت كتابات أفلاطون، ضمن عالم أخلاقيات الفضيلة. كتب هوميروس (القرن السابع قبل الميلاد) أيضًا أعمالًا أسهمت في التقاليد أخلاق الفضيلة، ولكن بصفته شاعراً، وليس بشكل كتابات فلسفية مدافعة عن مكانة أخلاقيات الفضيلة.

9- كتاب ما بعد الفضيلة لماكنتاير هو محاولة مستمرة لنقد أخلاقيات العالم الحديث. أمّا كتاب مارثا نوسباوم "هشاشة الخير" (Cambridge: Cambridge Univ. Press 1986) فهو أقل انفعالية ويحاول تحديد كيف يمكن أن تبدو أخلاق الفضيلة التي تحترم هشاشة الإنسان. أمّا كتاب مايكل سلوت "من الأخلاق إلى الفضيلة" (Oxford: Oxford Univ. Press 1992) فيحاول إعادة تلخيص وتبرير الحركة مرة أخرى نحو التفكير في الفضائل في الفكر الأخلاقي للقرن العشرين.

10- راجع الفصل الذي كتبه كل من أنانث وديكسون في هذا الكتاب لمعرفة المزيد عن أخلاقيات القرار لتصبح باتمان.



3

كراهية باتمان الفاضلة

بقلم: ستيفن كيرسبنر

باتمان يكره..

لنواجه ذلك; يكره باتمان المجرمين. ففي عودة فارس الظلام The Dark Knight Returns (1986)، على سبيل المثال، كان في موقع يسمح له بقتل متحول قوي وضخم، وهو عضو في عصابة من الشباب القتلة والذين يشكلون تهديداً على مدينة غوثام. ولكن بدلاً من قتله فقط، قرر باتمان قتال ذلك الضخم من أجل إزالة أي شك في نفسه حول ما إذا كان يستطيع هزيمته. وعلى الرغم من كسره لأنف ذلك الضخم، فقد خسر باتمان المعركة. وبعد تعافيه من جراحه، أصر باتمان على قتاله مرة أخرى. هذه المرة، قام باتمان بتحطيمه، متجاهلاً ضميره. في هذه القضية (وقضايا أخرى)، يبدو بأن ارتياحاً فورياً يصيب باتمان جراء الهيمنة على الأشرار وتحطيمهم، على الرغم من عدم ظهور مظاهر المتعة الصريحة أثناء ذلك.

ما الذي يمكنه أن يفسر هذا الموقف؟ حسناً، إن باتمان يعاني من كوابيس وذكريات معذبة وهو يراقب والديه يقتلان دون حول ولا قوة منه (مثلاً، في

فلـم العدالـة العميـاء Blind Justice عام 1992). وأيضـاً، بغض النظر عن كبير خدمه، آلفريد، فهو يعيش حياة منعزلة. على الرغم من عمله بشكل جيد مع المفـوض غوردن، وروبن بشـخصياته المتعـددة، والمرأة القطـة، وآخرين، ولكنه يبدو أنه يتجنب الإنخراط في أي نشـاط لا يتعلق بالتركيز على مكافحة الجريمـة. وعـلى الرغـم مـن المغـازلات والمداعبـات المؤقتة مـع المـرأة القطة خصوصاً (أحياناً مرتديان بدلتيهما وأحياناً أخرى دون تنكر)، فهو لم يؤسـس حياةً معها. تفسر كراهية باتمان للأشرار جزئياً السـبب الذي يدفعه للمخاطرة بفرصة في إنشـاء علاقات عاطفية مع العديد من النسـاء الجميلات في حياته. فعلى سـبيل المثـال، لم تؤدِّ علاقاته بجـولي ماديسـون Julie Madison، فيكي فال Vicki Vale، وفيسـبر فيرشلد Vesper Fairchild جميعها إلى الزواج أو إنجاب الأطفال، أو الاسـتقرار حتى. وكنتيجة لذلـك، يبدو بأن حياته، رغم قيمتها للآخرين، لكنها حزينة وتغلب عليها الوحدة.

الرذيلة والكراهية

بالحكـم عـلى ما إذا كان الشـخص جيدا أم سـيئا، فبإمكاننا أن نسـتخدم أفكار الفضيلة والرذيلة، والتي تشـكل جزءاً أساسـياً من الفلسـفة الأخلاقية المعروفـة بأخلاقيات الفضيلة. تهتم أخلاق الفضيلة بأي نوع من الأشـخاص عـلى الفرد أن يكونـه، وهي تختلف عن مدارس الأخلاق الأخرى والتي تركز على كيف على الشـخص أن يتصرف (أخلاق الواجب مثلاً) وكيف يتم تقييم النتائج المترتبة على أي تصرف (النفعية مثلاً).

طرح الفيلسـوف أرسـطو (384-322 ق.م) النسـخة الأكثر شهرة من الأخـلاق الفاضلة.1 برأيه، فـإن الأخلاق الفاضلة هي الصفات الشـخصية الأنسب للفرد لكي تجعله صالحاً، وبالتالي السماح له باتخاذ القرارات الصائبة. فكـر بـأي فضيلة كنقطة تتوسـط بـين النهايتـين المتطرفتـين لأفعالنـا ولردود

أفعالنا. على سبيل المثال، في الحالة التي يكون فيها شخص على وشك أن يُجنّد من أجل القتال في حرب ما، فالشخص الذي يمتلك فضيلة الشجاعة لن يذهب وهو هائج (التطرف نحو الكثير) أو يهرب مثل الجبناء (التطرف نحو القليل)، ولكنه بدلاً عن هذا وذاك، سيقف بحزم ويقاتل (الوسط بين النقيضين). هنالك الكثير من الفضائل الأخرى، ومن ضمنها الحكمة والعدل وضبط النفس والود والرحمة والكرم والصبر على سبيل المثال لا الحصر. يميل الأشخاص الفاضلون الى فعل الأشياء بطريقة عقلانية ومناسبة وصحيحة والتي تجعلهم يزدهرون وفي الوقت نفسه يكونون قد قاموا بما هو مطلوب أخلاقياً.

لقد تم انتقاد أخلاق الفضيلة لجملة من الأسباب. فأولاً، يستطيع شخص ما أن يجادل بكونها - أي أخلاق الفضيلة - مبدأ، أو موقفا دائريا وذلك لكونها تعرّف "الفضيلة" بأنها الميل لفعل الأشياء الجيدة بينما في الوقت ذاته يتم تعريف "الأشياء الجيدة" بكونها الأفعال التي يميل الفاضلون لفعلها!. ثانياً، تم انتقاد أخلاق الفضيلة بكونها غير عملية لأنها لا تقدم أي إرشادات عندما تتصارع فضيلتان أو أكثر. فعلى سبيل المثال، للعدالة والرحمة الميل لتتصارع مع بعضهما البعض على أساس منتظم عندما يحاول الناس اتخاذ قرارات أخلاقية حول عقوبة مناسبة لجريمة ما. فالقاضي الذي يدرس إعطاء عقوبة طويلة بالسجن الى تائب بنوايا غامضة لا يمكن أن يكون عادلاً ورحيماً في ذات الوقت، وبذلك فإن أخلاق الفضيلة لا تخبرنا سوى القليل عما علينا أن نفعل (إنه لغز!).

ومع ذلك، من غير الواضح ان كانت أي من تلك الانتقادات قد نجحت. فالفضيلة لا تحتاج لتعريفها بأنها الميل الى فعل الأشياء الجيدة؛ ولكن بدلاً عن ذلك، فبالإمكان تعريف الفضيلة بأنها محبة ما هو جيد وكراهية ما هو سيء. وحتى لو كانت الفضيلة غير مفيدة في توجيه أفعالنا، فإنها تبقى

مفيـدة في قضايا أخرى. فهي مفيدة مثلاً في مسـاعدة شـخص لتقرر معرفة ما لـو كانت هي الشـخص الذي تطمح في أن تكونـه أم لا. وعلى الرغم من هذه الاختلافـات في الـرأي، فإن أخـلاق الفضيلة تصطف جنبـاً إلى جنب مع كل من أخلاق الواجب والنفعية كواحدة من النظم الأخلاقية الرئيسية والتي قام الفلاسـفة باستخدامها لتقييم وتسـويغ اتخاذ القرارات الأخلاقية، وهي أيضاً النظام الذي سنقوم باستخدامه لتحليل كراهية باتمان.[2]

هل باتمان فاضل، أم أنه يفعل أشياء فاضلة؟

هنالـك نظريتـان شـائعتان حـول ما الـذي يجعل الشـخص فاضـلاً (أو شريـراً). وفقـاً لأرسـطو، فالأشـخاص هـم مبدئيـاً فاضلـون. حيـث يعتبر الشـخص فاضلاً عند ميله لفعل الشيء الصحيح، وذلك الفعل يكون فاضلاً فقط لو كان من نوعية الأشـياء التي يقوم بها الشـخص الفاضل. ولندعو هذه النظرية بـ"نظرية الأشخاص الفاضلين".

فعـلى سـبيل المثـال، إذا مال المفـوض غـوردن لفعل الـشيء الصحيح – كأن يعامـل زوجتـه وأطفالـه بشـكل جيـد، أو يمنـع الشرطـة من اسـتخدام القـوة المفرطـة، وهكـذا دواليـك – فسـيكون إذاً فاضلا. في نظرية الشـخص الفاضـل، تركـز الفضيلة على سـؤال كيف يميل الشـخص للتـصرف. فحتى عندمـا تكون لديـه علاقة غرامية مـع موظفة جذابة في فلـم Batman: Year One (1987)، يشـعر غوردن بالذنب ويعترف بذلـك لزوجته، ويعود جزء مـن ذلـك ربما إلى إصلاح زواجه وجزء آخر ليتمكن من الاسـتمرار في محاربة وحشـية وفساد الشرطة. في هذه النظرية، فإن تصرفات غوردن ستعتبر فاضلة فيـما لـو كانت من النـوع الذي يقوم به أشـخاص فاضلـون في مكانة غوردن.

في الحقيقـة، تثـير نظرية الشـخص الفاضـل عدداً من المخـاوف. وأحدها هـو أننا نعتقد بشـكل طبيعي بأن ما يجعل شـخصاً ما فاضلاً هـو ما يفكر فيه،

لا ما يفعله أو يميل لفعله. فعلى سبيل المثال، نحن نعتقد بأن فتاة مشلولة ما بإمكانها أن تكون فاضلة أو شريرة حتى لو لم تكن لديها القدرة على التأثير على الآخرين بأفعالها. لذا فإن هذه النظرية خاطئة لكونها تركز على ما يفعله الناس أو يميلون لفعله، بدلاً عمّا يدور في أدمغتهم.

الشيء المقلق الآخر هو أن أفعالا معينة بإمكانها أن تكون فاضلة أو شريرة بغض النظر عمّن يقوم باتخاذها. فعلى سبيل المثال، أنظر الى كارمين "الروماني" فالكوني Carmine " The Roman " Falcone، هو رئيس مافيا ومصدر للعنف والفساد والموت، والذي قام كل من باتمان والمرأة القطة بالتحقيق في أمره في فلم الهالويين الطويل The Long Halloween (1988). في نقطة ما، قام كارمين بوضع مكافأة مقدارها مليون دولار لكل من يأتي برأس باتمان والمرأة القطة، وهو الأمر الذي أدى في نهاية المطاف الى موت فالكوني ودمار إمبراطوريته. ولكن إضافة الى تلك الأعمال السيئة، أحب فالكوني إبنه بحق (حامل لشهادة ماجستير في إدارة الأعمال من جامعة هارفرد وباحث في رودس)، وحبه لولده كان مثالياً حتى لو كان فالكوني نفسه غير فاضل. بإمكان الأشخاص السيئين امتلاك أفكار جيدة وفعل أشياء لطيفة، ونحن بحاجة لأن تكون نظريتنا في الفضيلة والرذيلة انعكاساً لذلك.

تقترح نظرية ثانية للفضيلة بأن أفكار وأفعال الشخص هي فاضلة (أو شريرة) أساساً، بدلاً من أن يكون الشخص نفسه كذلك، إذ يكون فاضلاً إلى الحد الذي تكون فيه أفكاره وأفعاله فاضلة فقط. وسندعو هذه النظرية بـ"نظرية الأفكار والأفعال الفاضلة." ومع هذه النظرية، تكون الفكرة فاضلة عندما ينخرط الشخص في حب ما هو جيد (على سبيل المثال، أن يمتلك سكان غوثام حياة سعيدة وصحية وممتعة) وكراهية ما هو شرير (على سبيل المثال، يعاني سكان غوثام بسبب الجوكر أو المتحدث من البطن Ventriloquist). يحب الشخص شيئاً عندما يسعده حدوثه، أو يتمنى حدوثه، أو يفعل ما

يستطيع فعله ليجعله يحدث، ويكره شيئاً عندما يكون لديه نفس الموقف تجاه ذلك الشيء لكي لا يحدث. وبالمثل، تكون أفكار الشخص شريرة عندما يكره ما هو جيد ويحب ما هو سيء. ووفقاً لهذه النظرية، فإن الشخص يكون شريراً عندما تكون لديه الكثير من الأفكار الشريرة، أو لديه أفكار شريرة أكثر بكثير من تلك الفاضلة.

إن نظرية الأفكار والأفعال الفاضلة جذّابة. فهي تمنحنا القدرة على الحكم على فكرة أو تصرف ما من دون الحاجة إلى التعرف على هوية صاحبها. فعلى سبيل المثال، في فلم Batman: Year One، يمسك قواد ببائعة هوى تعمل عنده كاستجابة لسوء تصرفها وعدم كفاءتها في حيل الإغواء. فيما عدا دوافعه، فنحن لسنا بحاجة لمعرفة أي شيء آخر لنعرف بأن تصرفه – قيادتها لهذا العمل وجرّها بالقوة – شرير. باتمان (المتنكر بهيئة شخص متمرس يجوب حي الضوء الأحمر) استجاب، بالطبع، من خلال إثارة القواد ومن ثم من خلال ضربة بالكوع وركلة مدمرة على الرأس. يوحي هذا الاستفزاز بأن باتمان كان يبحث عن عذر لأذية القواد، بدلاً من مجرد محاولة حماية الفتاة الشابة. إذ كان عنفه ناتجاً من كراهيته للشر.

إن نظرية الأفكار والأفعال الفاضلة، بشكل يختلف عن نظرية الشخص الفاضل، توضح بأن الناس الفاضلون يميلون للتفكير والتصرف بطرق معينة لأنهم يحبون الأشياء الجيدة ويكرهون الأشياء السيئة. ووفقاً لهذه النظرية، فإن الأشخاص يكونون فاضلين بالاعتماد على عدد الأفكار الفاضلة التي يمتلكونها، وربما على نسبة الأفكار الفاضلة إلى تلك الشريرة. وهذا يتفق مع الكيفية التي نفكر فيها في الناس غالباً، أليس كذلك؟ حيث غالباً ما نفكر حول ما إذا كان شخص ما فاضلاً أو لا بالاعتماد على ما يدور برأسه، بالاعتماد، بصفة خاصة، على ما إذا كان يحب الأشياء الجيدة ويكره تلك السيئة.

كراهية باتمان فاضلة

يكره باتمان المجرمين ويحب رؤيتهم يعانون، وهذا قد يشير الى إنه شرير. فعلى سبيل المثال، عندما ضرب القواد بكوعه، كان كثير القلق حول استمتاعه بذلك الفعل. ولكن هل باتمان هو شرير بالفعل؟ أو ربما قد تكون هذه الكراهية شيئاً فاضلاً؟

إن مسألة ما إذا كان باتمان فاضلاً هي مسألة شائكة، وذلك لأن ليس جميع الأشخاص جيدين ولا أن كل ألم هو سيء. على سبيل المثال، غالباً ما نعتقد بأن من الجيد أن يعاني الأشرار. حيث نعتقد بأن من الجيد أن يحصل الناس على ما يستحقون، والأشرار يستحقون الألم (أو المعاناة). ولأن الأشخاص الفاضلين يحبون الأمور الجيدة، فإنهم سيحبون رؤية الشخص السيء وهو يعاني، باستطاعة الشخص الفاضل في الحقيقة أن يرغب للشخص السيء أن يعاني، ويكون سعيداً عند رؤيته وهو يعاني. وأن تريد لشخص ما أن يعاني أو تُسرَّ لمعاناة ذلك الشخص هو شيء شبيه بكراهيته تماماً، وهذا يعني أن بإمكان الأشخاص الفاضلين الكراهية. وينطبق هذا الأمر على باتمان أيضاً.

مبدأ "مجرد حلويات، أو استحقاق الشخص لما يعانيه" يستطيع تفسير اعتقادنا حول سبب كون معاناة باتمان سيئة، في الحين الذي تكون فيه معاناة شرطي قذر ووحشي غير ذلك. المحقق فلاس Flass في فلم Batman: Year One هو غرين بيريه (قبعة خضراء: غطاء الرأس الرسمي للمغاوير البريطانيين في الحرب العالمية الثانية. وما يزال يلبسها أفراد مشاة البحرية الملكية بفخر بعد اجتياز دورة تدريب الكوماندوس وأي عضو في الجيش البريطاني يجتاز كل دورات الكوماندو متعددة الأسلحة «المترجم») سابق والذي كان يستخدم تدريبه وحجمه للتعامل بوحشية ضد الرجال الذين لا يفعلون شيئاً سوى التسكع في الشوارع والتقاطعات. وقد قام فلاس برفقة عدد من الضباط الآخرين في الواقع بضرب جيمس غوردن لعدم تقاضيه

الرشـوة أو لعدم تسـامحه مع الشرطة الفاسـدين. في النهاية قام غوردن بإعطاء فـلاس هراوة لجعل القتـال بينهما أقوى وليبرحه ضربـاً في النهاية، ولم يتوقف حتى كادت حالة فلاس تتطلب ارسـاله للمستشـفى. قـام بعدها بترك فلاس عاريـاً ومربوطـاً، وهذا ما أوصل الى فلاس وبقية الضباط الفاسـدين رسـالة واضحة.

ومثل باتمان، يبدو بأن غوردن مقاتل رائع، ولكن على العكس من باتمان، فلا يبدو غوردن مسـتمتعاً بنشر العدالة مسـتخدماً الخشـونة أو ضرب الناس لإرسـال الرسـائل. ربما نتصـور بأن باتمان سيسـتمتع بـضرب وإهانة فلاس. حيث أن كراهيته فاضلة، ولكن شخصيته المظلمة هذه تقف في تناقض حاد مع شخص كالقديس فرانسيس الأسيزي والأشخاص الخارقين مثل سبايدرمان وسوبرمان، والذين هم فاضلون أيضاً ولكنهم ليسوا غارقين في الكراهية.

إن الاسـتجابة الحاسـمة، هي أن تتحجج بأن الشخص الفاضل الحقيقي لا يكـره بقيـة البـشر الآخريـن. فالكراهيـة شيء سيء، فهـي موقـف سـلبي بطبيعتهـا، وبالتـالي مـن الأفضـل تجنبهـا. وإذا كان هـذا حقيقـي، فبالإمكان اسـتخلاص نتيجتين. ربما يُظَنُّ بأن باتمان ليس فاضلاً بسـبب كراهيته لبعض الأشخاص، أو على الأقل هو فاضل بأقل مما يستطيع أن يكون. وبشكل بديل آخر، بإمكاننا أن نسـتنتج أن باتمان، لكونه فاضلاً، لا يكره الناس حقاً. إذ ربما هو يرى فقـط المجرمين بالطريقة التي يرى فيها الجندي المحاربين على الطرف الآخـر كخصوم عليه تعطيلهم أو قتلهم، ولكن ليس كأشـخاص يسـتحقون الاحتقار أو عدم الأحترام.

أود أن أجادل، مع ذلك، أن مثل هذه الانتقادات هي خاطئة (على الرغم من أني لا أكره نقادي اقتراحاتهم تلك!). فالكراهية (وهي وجود موقف سلبي تجاه شيء ما) هي موقف مناسب تجاه الأشخاص الذين يسببون ضرراً ومعاناة للآخريـن. أمّا المواقف الأخـرى، والتي تكون إما إيجابيـة أو غير مبالية، فهي

ليست بالمناسبة: على الأناس الأخيار أن لا يشعروا بالحب تجاه الأشرار الذين يضربون، أو يسممون، أو يقتلون الآخرين عمداً. ولا ينبغي للإنسان أن يظهر بشكل غير مبالٍ، ببساطة، تجاه الأشرار حيث لن يهمهم إذا ما قاموا بتصرفات شريرة. فالمواقف والمشاعر السلبية كالكراهية والإشمئزاز أو الإزدراء هي الطرق الصحيحة أخلاقياً للرد على المخالفات، وبالتالي فهي جميعها فاضلة.

والتشبيه بالجنود هو خاطئ أيضاً لأنه لا يمثل موقف باتمان الحقيقي تجاه المجرمين. حيث أنه يظهر القليل من التقدير للمجرمين ولا يعرب عن أسفه أو ندمه أبداً عند إحباطه لخططهم، وحتى عند معاملتهم بالكثير من العنف بشكل خطير. فالمجرمون، بشكل يختلف عن الجنود الذين يقاتلون لأجل أوطانهم، لا يستحقون الإحترام أو الإعجاب، بل مخطئون استحقوا الكراهية والاحتقار. لذلك، فأنا أنوي المجادلة حول أن باتمان قد كره أولئك المجرمين فعلاً. وبما أن هذا هو الموقف المناسب الوحيد لإمتلاكه ضد أشخاص مثل هؤلاء، فهو فاضل بسبب كراهيته تلك.

كراهية باتمان ليست من مصلحته

حتى لو تقبلنا بأن كراهية باتمان للأشرار هي فاضلة، فإنها ما تزال ليس من مصلحته. حيث أن كراهية باتمان قد قادته ليكون شديد التركيز على محاربة الجريمة لدرجة تمنعه من الإنغماس في غيرها من الأمور التي تجعل من حياة الشخص عادية وجديرة بالاهتمام، كالعائلة والأصدقاء والهوايات. فعلى سبيل المثال، إن حقيقة كون باتمان يمتلك الكثير من الأعداء عديمي الرحمة يجعل من ارتباطه بامرأة أمرا غير حكيم. تأمل ما حدث لجيم غوردن في فلم Batman: Year One عندما قام فلاس ورفاقه بضربه بمضارب البيسبول، وأختطفوا زوجته، ورموا وليده من فوق الجسر، وفضحوا علاقته الغرامية، وهذا لا يعتبر شيئاً قياساً بما على بروس واين أن يتوقعه لعائلته وأصدقائه فيما

لو كُشفت هويته للجوكر ذي الوجهين والبقية. وعلى الرغم من أن في مصلحة مواطني غوثام أن يستهلك باتمان نفسه في كراهية ومحاربة الجريمة، فإن ذلك ليس بالأمر الصحي بالنسبة لسلامته العقلية والعاطفية.

هنالك شيء غير لائق حول إمتلاك حياة تدور حول العنف والكراهية، حتى لو كانت موجهة الى أشخاص يستحقونها. وأفضل تفسير لهذا ربما يأتي من ملاحظة أن من غير الضروري أن تسير الحياة الفاضلة على ما يرام. وباتمان مثال ممتاز على ذلك. إذ لا يمكن للفضيلة وحدها ضمان أن حياتك ستكون ناجحة، لأنها لا تضمن نشوء العلاقات الهادفة، والمعتقدات الحقيقية، ولا تضمن السعادة، أي كل الأشياء التي تعتبر ضرورية لحياة الفرد لكي يزدهر. فالشخص الذي يستهلك حياته بالكراهية، حتى لو كانت تلك الكراهية فاضلة، من شأنه أن يحصل على حياة أقل سعادة، أو مفتقرة الى وجود حبيب وأصدقاء، وهذا يفسر لماذا تسير حياة باتمان بشكل غير جيد. حيث بمظهره الكئيب والعنيف، وبعزلته، يبدو باتمان كشخص مثل هذا تماماً.

إن كراهية باتمان تجعل من العالم مكاناً أفضل بكثير على الرغم من أنها تجعل حياته أسوء. حيث أن ألمه وعزلته يتضاءلان مقارنة بمحيط الموت والدمار الذي كان سينتج لو أن باتمان لم يقم بإيقاف الخطط الشنيعة لأعدائه. على سبيل المثال، في فلم الهالوين الطويل The Long Halloween، خطط الجوكر لإيقاف قاتل متسلسل من خلال نشر غاز سام حول جميع من كان في ميدان غوثام في ليلة رأس السنة، كانت أسبابه بأن "جميع الاحتمالات" تشير إلى وجود القاتل ضمن الحشود هناك، وكان يبدو غير مبالٍ بكل الأضرار الجانبية الضخمة (لحسن الحظ، قام باتمان بإيقافه). مثال آخر حول مدى خطورة الجوكر يأتي من فلم The Dark Knight Returns بعد ادعائه بقتل 600 شخص بالفعل، قام بنشر غاز سام وقتل عدة مئات آخرين كانوا قد أتوا لمتابعة لقاء تلفزيوني معه في وقت متأخر من الليل. باتمان لا يوقف الجوكر في كل مرة،

ولكنـه عندما يفعل، يقـوم بإنقاذ الكثير من الأرواح، وبتـوازن أكيد يصنع من العالم مكانا أفضل للعيش، بغض النظر عن مدى تأثير ذلك على رفاهيته.

هل يستطيع باتمان عدم الكراهية؟ ليس من الواضح أنه يستطيع: حيث أن مشاهدة والديه وهما يقتلان قد أثرت كثيراً على موقفه تجاه الجريمة والمجرمين. في فلـم The Dark Knight Returns، نحن نرى بأنه كصبي، كان بروس قد أصر على أن أي مجرم خلال وقت قراءة ما قبل النوم يجب أن يعتقل ويعاقب. في حلقة أخرى من تلك القصة، والتي قد تكون مجرد حلم، سقط بروس في حفرة حيث أدعى بأن خفاشاً عملاقاً فيها كان قد غرس فيه الكراهية والشراسة. من دون القـدرة على السـيطرة على كراهيته، لا يمكن إعتبار باتمان مسـؤولاً عنها، لذا يمكننا أن نميز مسـألة فيما لو كان باتمان فاضلاً أو فيما لو كان مسـؤولاً عمّا يجعله فاضلاً، كراهيته للشر.

الافتقار إلى التوازن

هنالك قضية واحدة لم نقم بأخذها بعين الاعتبار وهي فيما لو كانت الحياة الناجحـة تتطلـب التوازن بين حب الخير وكراهية الشر. إذ يبدو بأن حياة الفرد تكون أكثر سـعادة إذا ما أمتلك توازناً سـليماً بين الحب والكراهية. وفي وجهة النظر هذه، فالشـخص الذي يقضي الكثير من الوقت في حب الخير يبدو غافلاً عن كل المعاناة والألم والتي هي جزء من حياة كل شـخص.3 وبشـكل مماثل، فالشخص الذي يقضي الكثير من الوقت في كراهية الشر يبدو غير مبال بالعديد من الأشـياء الجيدة والجميلة في الحياة. ونظراً للتركيـز الهائل لباتمان على محاربة الجريمـة، ربما يكون ملائماً لينـدرج ضمن الفئة الأخيرة. وبالتـالي، وبعيداً عن عزلتـه وأحلامه التي تعذبـه، ربما تكون حياة باتمان محددة بإنتشـار الكراهية في محيط حياته. ولكن من دون كراهيته، هل بإمكان باتمان أن يوجد؟ هل سيكون فارس الظلام ذاته؟ لا أعتقد ذلك.

هوامش الفصل الثالث:

1- راجع كتاب أرسطو "الأخلاق النيقوماخية" ترجمة ج. ويلدون (:Amherst NY Prometheus Books 1987)، الكتاب الثاني خصوصاً.

2- للحصول على مقدمة بسيطة عن أخلاقيات الفضيلة، وعلم الأخلاق، والنفعية، وغيرها من النظريات الأخلاقية، راجع كتاب سايمون بلاكبيرن، الأخلاقيات: مقدمة قصيرة جدًا (Oxford: Oxford Univ. Press 2003).

3- أقرأ المقابلة مع بات - تزو في الفصل 20 من هذا الكتاب للمزيد عن أهمية التوازن في حياة الفرد.

الباب الثاني

القانون، والعدالة، والنظام الإجتماعي: أي مكان سيناسب باتمان؟

4

فلم Batman: No Man's Land:

النظام الإجتماعي في غوثام ونيو أورليانز

بقلم: بريت شاندلر باترسون

يتخذ المواطن الأمريكي العادي النظام الإجتماعي كأمر مفروغ منه. حيث نستيقظ كل يوم على افتراض أن مؤسساتنا - التعليم، الصحة، السياسة، وهلم جرا - ستُدار بسلاسة، حتى لو لم تكن دائماً من ضمن اهتماماتنا. زرع الارهاب بعض الشكوك، ولكن بشكل عام، لا يزال معظم الأمريكيين يستمتعون بحياة سلمية نسبياً. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة، مع ذلك، ليست معفية من دمار الكوارث الطبيعية واسعة النطاق.

حيث جعل إعصار كاترينا هذه النقطة واضحة بشكل مؤلم. وأيضاً الزلازل والفيضانات والتسونامي والأعاصير والانهيارات الطينية وضربات النيازك، إذ لا تزال هنالك العديد من القوى في هذا الكون تقع خارج سيطرتنا، قوى نحن نخشاها، عندما يغزونا الخوف أثناء وبعد تلك الكوارث، ما الذي سيحدث للنظام الإجتماعي؟ هل سيلجأ البشر الى طبيعتهم العنيفة الأكثر بدائية في نضالهم للبقاء على قيد الحياة؟

هذا هو محور قصة No Man's Land "الأرض المحرمة" ربما اكثر قصص باتمان براعة، والتي تتبع تفكك النظام الإجتماعي خلال زلزال يضرب مدينة غوثام.[1] وعلى الرغم من أن هذه القصة الخيالية تسبق فيضانات نيو أورليانز بست سنوات، فإن التشابه الغريب بين القصة الخيالية وإنهيار كاترينا الأرضي في 29 آب عام 2005، قد أضاف وزناً لهذه القصة والتي كنّا سنستبعدها على اعتبارها ميليودرامية ومبالغ فيها. يعرض فلم No Man's Land مجموعة واسعة من ردود الفعل على خسارة النظام الإجتماعي ويذكرنا بأن على الرغم من معرض الأشرار الملون، فإن عدو باتمان الحقيقي، وربما عدونا كذلك، هي الفوضى. وتستدعي القصة الى الأذهان الفلسفة السياسية لتوماس هوبز Thomas Hobbs(1588 – 1679)، والذي حاجج بأن البشر في حالتهم الطبيعية يميلون للحرب ولانعدام الثقة. حين تواجه بنية النظام الاجتماعي تحدي كوارث واسعة النطاق، فأن "الحالة الطبيعية" تلك، تكشف عن وجهها القبيح مرة أخرى، مجبرة ممثلي ذلك النظام الاجتماعي على التدخل و القتال من اجل استعادة العقد الاجتماعي.

الطريق إلى الأرض المحرمة

إنهارت مدينة غوثام بين عشية وضحاها في كارثة قصة العام 1998، والتي دمر فيها زلزال تبلغ قوته 7.6 المدينة (والتي تم إضعافها من خلال

إنتشار فايروس مميت منذ وقت قريب في عام 1996 في قصة Contagion. المباني الوحيدة التي بقيت صامدة بعد الزلزال هي تلك المعززة من قبل مؤسسة واين. ومع ذلك، دُمرت عربة واين وذلك لأن هيكلها التاريخي لا يمكن أن يتم تعزيزه (أو أن كهف الوطواط السري لواين ربما يكون قد تم إكتشافه). في الشهور التي تلت ذلك، كافح باتمان ورفاقه من أجل إنتشال أنفسهم من الحطام ومن ثم في تقييم حجم الضرر الكلي. في Aftershock و The Road to No Man's Land، هجرت نخبة غوثام المدينة بعد أن دَمرت البنى التحتية التي كانت تدعم صناعاتهم وتجارتهم. إذ إنهم لم يملكوا الإرادة أو الثروة الكافية لإعادة بنائها. في تلك الأثناء، عبرت حشود سكان غوثام عن ذعرها بطرق عديدة، مما ساهم في إنهيار جسر أدى الى مقتل المئات. وعلى الرغم من أن المفوض جيم غوردون حاول أن يحفظ السلم، إلّا أنه هو الآخر، وفيما بدى لاحقاً كلحظة ضعف منه، سعى عبثاً للعثور على وظيفة في مدينة أخرى.[2]

في "Mr. Wayne Goes to Washington"، يحاول بروس إقناع الحكومة الفيدرالية بمساعدة غوثام، متوسلاً بحياة السبعة الملايين شخص الذين يسكنونها، في الحين الذي يحاول فيه مكافحة الطرح السلبي لنيكولاس سكراتش Nicholas Scratch، وهو شخصية عامّة غامضة (الشرير) والذي يستهدف غوثام.[3] ومع ذلك وبحركة خارجة عن التوقعات، يصدر الرئيس أمراً - متبوعاً بموافقة الكونغرس - بضرورة فصل مدينة غوثام عن بقية البلاد، وذلك لأن الأضرار التي لحقت بها فادحة ومكلفة. ثم تقوم الحكومة الفيدرالية بإعطاء مهلة زمنية من 48 ساعة لسكان غوثام من أجل إخلاء المدينة وبعد ذلك، وفي خطوة متطرفة، تفجر جميع الجسور وتحاصر المدينة بالكتل الخرسانية والعساكر. عند تلك النقطة، تصبح غوثام رسمياً "الأرض المحرمة".

في عالمنا، كان إعصار كاترينا والفيضانات اللاحقة له هي التي أدت الى خراب نيو أورليانز عام 2005. فحوالي 80٪ من المدينة كانت قد غرقت (أكثر المياه كانت قد أتت من بحيرة بونتشارترين) بعد فشل نظام السدود. الكثير من ذلك كان قد حدث في وقت متأخر من الليل، مفاجئاً أولئك الذين كانوا يرتاحون في منازلهم، والذين كانوا يعتقدون بأن السدود قد حمتهم من أسوأ ما في إعصار كاترينا. وعلى الرغم من أن الحكومة الفيدرالية لم تذهب بعيداً بإجراءاتها كما تم تصويرها في القصة المصورة، إلّا أن تأخيراً كان قد أستمر لعدة أيام قبل المباشرة بحملة إنقاذ واسعة النطاق في المنطقة المنكوبة، وكان هنالك عدد من السياسيين الذين أعربوا عن رغبتهم في التخلي عن المدينة التي تحيطها المستنقعات.[4] ولأن نيو أورليانز – على العكس من غوثام – قد حُذرت مسبقاً من الكارثة الوشيكة، فقد كانت هناك بعض التدابير الطارئة قد تم تحضيرها بالفعل، مما أدى الى جعل الآلاف من السكان يبحثون عن ملجأ في نيو أورليانز سوبردوم ومركز المؤتمرات. لم يكن إنهيار النظام الأجتماعي خطيراً كما كان في قصة غوثام الخيالية، إلا أن فوضى عارمة ترتبت على ذلك.

النجاة فوق العدالة: الأشرار، العصابات، ودولة الطبيعة لهوبز

في الوقت الذي تم فيه إعلان أن هذه الأرض هي أرض محرمة، كان عدد كبير من السكان غير قادر على المغادرة، أو قد أختار عدم المغادرة. حيث وجدوا أنفسهم بعدها في بيئة خالية من التكنلوجيا، دون كهرباء، دون تدفئة أو تكييف، دون بانزين ودون نقل، دون محلات بقالة أو متاجر حتى. إرتدّت مدينة غوثام الى الحالة البدائية، حيث ينبش الناس في بقايا ما كانت عليه مدينة غوثام في يوم ما. إن قصة (بلا قانون ونظام جديد No Law and a New Order) (في NML1) [يقصد بها أختصار لـ No

Man's Land تقـوم بتقديمنا إلى الأرض غـير الصالحة للحياة، حيث يظهر لنـا مجموعة من الأطفال يتقاتلون فيما بينهم عـلى طعام تم رميه في المدينة من قبـل مصـور مروج للأخبـار المثيرة كان يهدف للحصول عـلى صور لأناس يتقاتلـون. بعد عدة صفحات فقط يقوم سـكارفيس بإطلاق النار على صبي مـن أجل رزمة من الكعك. وبعد وقت قصير نعلم بأن هنالك نظام مقايضة محكـم قد تـم تطويره، حيث تتاجر الناس بأملاكها التـي لم تعد ذات قيمة لها (كالأجهـزة الألكترونيـة المترفـة) مقابـل الضروريات الأساسـية (مصابيح يدوية تعمل بالبطاريات، والفواكه الطازجة).

نعلـم كذلـك بأن الناس قد بـدأوا بالتجمع على شـكل عصابات لحماية أنفسـهم ولتوفير نظام ما في توزيع السـلع. والعلامات – الرسـم بالسـبراي رمز عصابتك في مكان شديد الوضوح – قد أصبحت ضرورية لمعرفة فيما لو كنت في منطقة ودية نسبياً أو في جزء شديد العدائية من المدينة. في الأيام الأولى مـن أزمة غوثام، كان أغلب أعداء الوطواط مـن الأشرار، ومن ضمنهم ذو الوجهين والبطريق والقناع الأسود والجوكر، كل منهم قد قام بتثبيت حدود اقليمية له من الفوضى، محتفلين بغياب النظام الأجتماعي والذي سـجنهم في مصحـة آركام. وخلال هذه الفترة، كان باتمان، الذي يمر بأزمته الشـخصية كبروس واين، غائباً عن المدينة، مما أضاف يأساً عاماً بين السكان.

كان الوضـع مماثـلاً لـ"دولـة الطبيعـة" التـي وصفها تومـاس هوبز في فلسـفته السياسـية. حيث رسـم هوبـز في اللفياثان (1651) صـورة مظلمة للحالة الطبيعية للإنسـانية، مدعياً بأننا خارج المجتمع نصبح متوحشين وفي حالـة حرب مع بعضنا الآخر.[5] ورغم ذلـك فقد نضجت نظريته من خلال تجربته الشخصية في العيش في منفاه في فرنسا خلال الحرب الأهلية الإنجليزية في أربعينات القرن السـابع عشر، شاهداً على إنهيار النظام الأجتماعي لبلاده. نادى هوبز بأهمية السـلطة المركزية والتي من شـأنها تحفيز بقية السكان. ومن

وجهـة نظره، فإن حياة الإنسـان هي عبارة عن منافسـة لأجل الحصول على السلطة؛ حيث أن الحياة عبارة عن صراع حول عدد محدود من الموارد المادية. إذ أننـا محفزون بفعل الخـوف من الموت والخوف من قـوى الآخرين، بغض النظـر عن مقدار النضج الفكري الذي ندعيـه. حيث يحفزنا الخوف لنبحث عـن السـلام؛ فنحن نوافق على إبـرام عقد أجتماعي بدافـع الرغبة في الحفاظ عـلى حياتنا في نظام أجتماعي، ونوافق على نظام للعدالة من أجل الحفاظ على ذلك النظام. وتحافظ قوة السـيادة – "اللفياثان" – على ذلك النظام وتحمي أولئـك الرعايا الذين خضعوا طواعية لذلك الحكـم. إن الخوف من الوقوع مرة أخرى في "دولة الطبيعة" يحافظ على بقاء الرعايا متماشياً مع ذلك الحكم.

وعـلى الرغم مـن أن بعض الفلاسـفة قد تحـدوا إمكانية وجـود "دولة الطبيعـة" هـذه أساسـاً، إلّا أن هوبز يرد عـلى ذلك بأنه متى مـا غرقت بلاد في حـرب أهليـة، فإنهـا ترتد لتلـك الحالة. فالعديـد من الروايـات في القرن العشريـن، بدءاً من روايـة جوزيف كونـراد Joseph Conrad قلب الظلام Heart of Darkness (1899 / 1902) ووصـولاً الى رواية وليام غولدنغ William Golding سيد الذباب Lord of the Flies (1954)، والمسلسل التلفزيـوني الحـالي ضيـاع Lost، كلهـا كانت قـد اقترحت بـأن الإنتقال من "الحضـارة" الى العزلة الكاملة في الطبيعة بإمكانها إرجاع الطبيعة الوحشـية للبشر للظهور مرة أخرى.[6] وبالتأكيد، فإن الكوارث الطبيعية واسعة النطاق لديها ذات القدرة.

وفي الأيـام التي تلت فيضات نيـو أورليانز عام 2005 مباشرة، تناقلت وسـائل الإعـلام عمليات نهب، وعمليات قتل وإغتصـاب محتملة، وصراع بـين العديـد مـن العصابات التي كونها أشـخاص مسـتخدمين أسـلحة. إن التوتـرات في المدينة حول العنصرية والفقر والمخدرات كانت قد أندلعت في الحـين الـذي كان فيه السـكان في حالة من الهلع، ومع وجـود جثث ملقاة في

شوارع المدينة. وعندما بدأت قوات الحرس الوطني بإجلاء الناس وإستعادة النظام، أكتشفوا بأن عددا من الشائعات لم يكن لها أساس من الصحة؛ حيث كانت وسائل الإعلام تزيد من الإثارة والمبالغة عن مدى إنتشار النشاطات الإجرامية، ولاسيما في مراكز اللجوء. لذا فلم تكن نيو أورليانز كمدينة غوثام بالضبط، لكن كانت هنالك فترات طويلة من إنعدام الثقة، وبالطبع فقد كان بالإمكان زيادة النشاط الأجرامي بسهولة بعيداً عن تلك الحشود. إذ قام بعض ضباط الشرطة بالتخلي عن المدينة بالفعل ثم عوقبوا لاحقاً. وقد أنتظر حوالي خمسة وعشرين ألف شخص لأكثر من خمسة أيام حتى يتم إنقاذهم في ملعب السوبردوم؛ حيث قامت قوات الحرس الوطني بإبعاد الناس عن الملاجئ في الأيام اللاحقة، وأخرجت الفنادق الناس الى الشوارع، وأغلق شريف مقاطعة جيفرسون جسر نيو أورليانز الأكبر بوجه اللاجئين، مؤكداً بأنه لن يسمح للضواحي أن تسقط في نفس الفوضى. وجادل الكثيرون بأن العنصرية الكامنة قد أثرت على التعامل مع الآلاف من الذين لم يستطيعوا أو يريدوا ترك المدينة.[7] ومن الجدير بالذكر أن أحد أول المنشآت التي تم ترميمها في الأسبوع الأول كان السجن المؤقت. حيث بدت "دولة الطبيعة" لهوبز حية وبصحة جيدة.

ويليام بيتي William Petit ضد جيم غوردن:
العنف في السعي لتحقيق العدالة

أحد أكثر المواضيع إثارة للتفكير في خطى سير قصة No Man›s Land هو الصراع بين جيم غوردن وزميله ضابط الشرطة ويليام بيتي، كاشفة عن وجهتي نظر مختلفتين حول كيفية مقاومة حالة الفوضى السائدة. بدأ كل من غوردن وبيتي على الجانب نفسه؛ حيث أن كلاهما كان يسعى لإستعادة غوثام وإعادة بناء الثقة الإجتماعية في قوة الشرطة. ولكن مع تطور حبكة

القصة، يظهر لنا الفرق الجذري بين بيتي وغوردن. حيث نرى بأنهم يمثلون تكتيكات مختلفة في إعادة ترسيخ السلطة السيادية على الفوضى. في اللفياثان يصف توماس هوبز طريقتين مختلفتين بإمكان السيادة أن تأتي من خلالهما الى مركز القوة، إذ بإستطاعة الناس أن يوافقوا على السلطة (وهذه هي السلطة "الأبوية") أو أن يستولي الحاكم على السلطة (وهي السلطة "الإستبدادية").[8] يمثل غوردن، بطريقة معينة، السلطة الأبوية، ساعياً للحفاظ على معايير العدالة في تحركه مرة أخرى لإستعادة السيطرة على النظام الأجتماعي، بينما يمثل بيتي السلطة الأستبدادية حيث يسعى للأستيلاء على السلطة من خلال الترهيب والقوة.

في "No Law and No Order،" يعتقد جيم غوردن بأنه ينحدر الى إلتباس أخلاقي من خلال إشعال حرب بين العصابات المتنافسة في محاولة لإضعافها، ولكن بيتي يدفعه الى ما أبعد من ذلك حتى، داعياً للقتل من أجل تعزيز الحرب، ويجد فرصته في إنقاذ غوردن من كمين محكم. ثم ينشأ صراع آخر هام في غضون أسبوع: حين تنجح خطة غوردن وتستولي الـ GCPD (مركز شرطة مدينة غوثام "المترجم") على أراضي العصابات، يتساءل الشرطة أين سيحبسون السجناء. فيقرر غوردن أن يطلق سراحهم، إلا أن بيتي يصر على ترهيبهم لكي لا يعودوا لاحقاً وبأعداد أكبر. لذا يقوم بإعدام عضو في أحد العصابات قبل أن يستطيع غوردن إيقافه. يسعى غوردن بعدها فوراً لتأديب بيتي، ولكن بأحساسه بأنه هو أيضاً قد تنازل عن مبادئه، لا يقدم على أي جواب للتحدي اللفظي الذي يطلقه بيتي ضده قائلاً: "أخبرني أنني مخطأ." ومن تلك النقطة فصاعداً، يصبح بيتي مهووساً بالعنف، مدعياً بأن الطريقة الوحيدة للتعامل مع مجرمي غوثام هي بالقضاء عليهم.

إن هدف غوردن الرئيسي، الى جانب الحفاظ على سلامة عائلته، كان إعادة ترسيخ القانون الإجتماعي على المدينة. في "Bread and Circuses"

(في 2 No Man›s Land)، يستخلص غوردن من الدرس الميكيافيلي بأنه يجب أن يُشاهد وهو يطبق القانون من أجل خلق ثقة أجتماعية مرة أخرى.[9] ومع ذلك، فإن أكبر تسويات جيم غوردن، هي العمل مع ذي الوجهين بلعبة سلطة فاز عبرها بالمزيد من الأراضي لمصلحة GCPD، ولكنها عادت عليهم بالأذية في نهاية المطاف.

بقي غوردن وبيتي معاً خلال هذا، ولكن في "Fruit of The Earth" (في 3 No Man›s Land)، يصل الصراع بينهما الى نقطة تحول. عند الوصول الى سيناريو "رهينة" حيث تهدد عصابة ضابط شرطة، يحاول غوردن التفاوض، إلا أن بيتي يطلق النار على الجاني ببساطة. وبعد أن يؤنبه غوردن، يذهب بيتي في طريق منفصل، مدعياً بأن غوردن ليس قوياً كفاية لمواجهة تحديات No Man›s Land. وتتواجه الصيادة The Huntress (إحدى بطلات غوثام) في وقت لاحق مع بيتي، والذي يجادل حول أن تكتيكاتهم يجب أن تتغير وذلك لأنهم جنود داخل معركة. يحوم بيتي على حواف الحبكة، على الرغم من دعوته المتكررة إلى استخدام القوة المميتة ضد التمساح القاتل Killer Croc، ذي الوجهين (والذي يحدث أن يتم سجنه)، والجوكر. وفي لقاء الذروة مع الجوكر في "End Game" (في 5 No Man›s Land) يظهر بيتي في النهاية محطماً ومجنوناً؛ ففي مسعاه لقتل الجوكر، ينتهي به الأمر إلى قتل العديد من رجاله (والذين جعلهم الجوكر يرتدون ملابس مهرجين كأتباعه).

في "Jurisprudence" (في 4 No Man›s Land)، يتعرض غوردن حرفياً الى المحاكمة عندما يقوم ذو الوجهين (المدعي المحلي العام السابق هارفي دينت) بأختطافه و"مقاضاته" لمخالفته القوانين الدستورية التي أقسم على حمايتها. ومع ذلك وبسبب تعاطفه مع هارفي دينت، وبمساعدة الضابط رينيه مونتانا Renee Montoya، ينجو غوردن. ثم وفي النهاية، وفي

لحظـة مفجعة وحاسـمة، بعد أن يقـوم الجوكر بقتل زوجتـه، يواجه غوردن المهـرج المهووس، برفقة باتمان الذي يتوسـل غوردن كـي لا يضحي بمبادئه (5 No Man's Land). لم يقـم غـوردن بقتل الجوكـر، ولكنه يقوم بإصابته بطلـق نـاري في ركبتـه قبـل أن يؤخـذ الجوكـر الى الحجـز، مبينـاً بقايـا تأثير No Man's Land في اللعبـة. وفي الأيـام التـي تتبـع ذلـك، في حـداده على زوجته، يتساءل جيم غوردن إذا ما كانت الجهود والإنتصارات التي حققوها تستحق ما قدم من تضحيات.

الشهادة على الإنسانيين المناوئين للعنف

لحسـن الحـظ، هنالـك أيضـاً القليـل مـن الإنسـانيين محبي السـلام في وسـط القصة. وأثنان من هذه الأمثلة البارزة هما: الأب كريسـتيان Father Christian، وهو كاهن كاثوليكي مسـؤول عن أحـد الكنائس، والدكتورة ليـزلي ثومكنز Leslie Thompkins، وهي طبيبة تحاول الحفاظ على تماسـك مستشـفى مؤقت من أجل عشرات الجرحى في المدينـة (وأحد أقدم أصدقاء بـروس ومقربيه). تـم حكاية قصصهم الموازيـة في "Fear Of Faith» (No Man's Land 1) وفي "Spiritual Currency» (NML 4). في بدايـة تلـك القصـص، حـوّل الأب كريسـتيان مـا تبقى من كنيسـته إلى مركـز للاجئين، ساعياً لتوفير الطعام والماء والمأوى ومستوى معين من الأمان لأولئك الذين سـيبقون معـه. هـو أيضاً كان قـد رفض التحالـف مع أي أحد، بـما في ذلك الـ GCPD، والتي كانت تستخدم القوة المفرطة في مسعاها لإستعادة المدينة. وكان يقـوم أيضاً بتوسـيع عمل جمعيته الخيرية لتشـمل مسـاعدة أحد أشرار غوثـام، وهو الفزاعـة، على الرغم من تحذيـرات الصيادة له. ليقـوم الفزاعة بعدهـا بتخريب إمدادات الغذاء، مما يجبر كريسـتيان على التفاوض مع شرير آخر هو البطريق، والذي كان تاجرا كبيرا قد أزدهر عمله أكثر وسط الفوضى.

يعطي البطريق لكريستيان الإمدادات الغذائية التي يحتاجها مقابل السماح له بتخزين أسلحته في الطابق السفلي للكنيسة. ولشعوره بأنه محاصر، يوافق كريستيان على هذا العرض، وهو القرار الذي سينتج عنه صراع على السلطة في وقت لاحق أمام الكنيسة، حيث يتم إنقاذ مجموعة الأب كريستيان على ما يبدو من خلال تدخل الـ GCPD، والصيادة، وباتمان. وفي نهاية الصراع، يقوم الأب كريستيان وشركاؤه برمي الأسلحة في ميناء غوثام، كرفض صارم للسماح لأي شخص بوضع يده عليها مرة أخرى.

وفي القصة الثانية، ترى الدكتورة ليزلي ثومبكنز عيادتها كمكان للاجئين، حتى بالنسبة لقاتل سيء السمعة كاللورد فيكتور زاس Mr. Zsasz وعصابته. يحاول كل من الصيادة وباتمان وبيتي تحدي قرار الدكتور ثومبكنز، لكنها تجادلهم بأن إلتزاماتها تتعلق بالعلاج والسلامة. وتخبرها الصيادة بأن من السهل عليها اتخاذ مثل هذا الموقف طالما أن باتمان موجود هنا لحمايتها، وفي الحقيقة، لاحقا في القصة، يستيقظ زاس عندما لا يكون باتمان موجوداً. تواجه الدكتورة ثومبكنز احتمالية الموت في الأثناء التي تحاول فيها مناشدة بعض الرحمة الموجودة فيه معلنة بأنها لن تقاومه بالعنف. ثم يقبض التمساح كروك، والذي كان يسعى في أثر زاس لقتله صديقاً له، على زاس قبل أن يستطيع أذية الدكتورة، ثم يصل باتمان في النهاية ليخيف التمساح دافعاً إياه للهرب ويأخذ زاس الى سجن البوابة السوداء Blackgate. ولتوبيخها له في وقت سابق بسبب تكتيكاته، أعتذر لها باتمان الآن عن العنف الذي أستخدمه. ثم أخبرته ثومبكنز أنه إذا ما كان يريد العمل من أجل السلام في المدينة، فإنها ستساعده على العمل من أجل إحلال السلام في قلبه.

كلا تلك القصتين تتناقض الى حد كبير مع العنف المفرط، والمنافسة، والكراهية المعبّر عنها في نشاطات العصابات ومناورات القوة للعديد من هاربي مصحة آركام. وعلى الرغم من أن الآخرين مثل باتمان وجيم

غوردن يساعدون في حماية أولئك الأفراد، فإن كل من كريستيان وثومبكنز مستعدين لمواجهة عواقب إنسانيتهم وسلميتهم، إلى حد التضحية بأنفسهم في سبيل الآخرين. في الليفاثان (الكتاب الثالث)، يجادل توماس هوبز بأن على المنظمات الدينية أن تكون خاضعة للسلطة السيادية وذلك لمنع إنقسام ولاءاتها، وبالتالي الحفاظ على السلام. وينبغي على السلطات الكنسية الإعتراف بسيادة الحكم، وإلا فإنها ستؤدي إلى تقويض النظام الإجتماعي المستقر المفروض من قبل صاحب السيادة.

سيختلف اللاهوتيون المسيحيون اليوم، وتبعاً لتعاليم هـ. ريتشارد نيبور H. Richard Niebuhr، جون هاوارد يودر John Howard Yoder، وستانلي هورفاس Stanley Hauerwas، رغم كل شيء، بقوة مع هذه التبعية. فقد جادل هؤلاء اللاهوتيون المسيحيون لصالح الطابع الإجتماعي المميز للكنيسة؛ معتقدات وممارسات المجتمع المسيحي وتميزها عن المجتمعات الأخرى. حيث ينبغي أن يكون الإلتزام بالرب هو مركز النشاط الذي يوجه قيم جميع الجوانب الأخرى لحياة لشخص. إذ بإمكان المسيحيين خدمة سيادة دنيوية، ولكن ولاءهم الأساسي يبقى للرب من خلال المجتمعات الكنسية. ويعتقد هؤلاء اللاهوتيون أن على العكس من منظور الربوبية "إبعاد الإله" لتوماس هوبز، فإن الرب يعمل في العالم من خلال النظام الجديد الذي يُقدم في سياسة الكنيسة.[10]

إن للأب كريستيان علاقة احترام مع كل من جيم غوردن وباتمان، ولكنه رفض أن يكون خاضعاً للنظام الأجتماعي الذي يسعون لإعادته بطرق عنيفة. وقد أدى قلقه على لاجئيه إلى تقديمه لتنازلات في مفاوضاته مع البطريق، ولكنه قد أعاد لاحقاً في القصة القيم الكنسية من خلال رميه للأسلحة في ميناء غوثام. وعلى الرغم من أن من غير الواضح إذا ما كانت الدكتورة ثومبكنز تعتبر نفسها مسيحية أم لا، لكنها وبصفتها من دعاة السلام

قاومت أيضاً لكي لا تصبح جزءاً من جهود جيم غوردن وباتمان لإستعادة المدينة من خلال وسائل قسرية، مؤنبة باتمان على تكتيكاته العنيفة. إن باتمان وغوردن (وآخرون) بحاجة لوجود أمثلة كالأب كريستيان والدكتورة ثومبكنز. إذ من دون أمثلة كهؤلاء من الممكن أن يدخلوا دوامة الجنون مثل ويليام بيتي.

وبالمثل، فعلى الرغم من أن أغلب الأخبار التي كانت تأتي من نيو أورليانز تركز على الفوضى، كانت هنالك قصص عن البطولة، وعن إنسانيين يقدمون المساعدات، قساوسة يحاولون توفير الأمل لرعاياهم وأطباء يحاولون إبقاء مرضاهم على قيد الحياة في ظل ظروف قاسية. فالعديد من عمال الإغاثة أنفسهم حوصروا في المدينة. المواطنون العاديون أيضاً أصبحوا أبطالاً لأنهم هبّوا لتقديم المساعدة، صانعين ملاجئ مؤقتة، متقاسمين المياه والمواد الغذائية، وموفرين الراحة للمرضى وكبار السن، ثم تحولت بطولاتهم الى مصدر إلهام للآخرين.[11] العديد من المنظمات الإنسانية أيضاً كانت قد شقت طريقها الى نيو أورليانز في أعقاب الدمار الذي حل هناك. وعلى الرغم من أنهم قد عملوا بتعاون شديد الى جانب السلطات المدنية، فإن العديد من منظمات الإغاثة قد حُشّدت من تلقاء نفسها. وقد كانت نيو أورليانز بحاجة الى إسهاماتهم المتميزة.

"هذه مدينتي": باتمان وإستعادة النظام

وأخيراً في "Shellgame" (في NML 5) نشهد الأحداث المؤدية الى نهاية No Man's Land، حين يدخل ليكس لوثر Lex Luthor المدينة بحركة سياسية بارعة، في محاولة للمطالبة بأرض العديد ممن لقوا حتفهم بسبب الزلزال وأولئك الذين تنقصهم الموارد لتحدي دعواه. بالنسبة للعامّة، فهو يبدو بأنه سيجلب المال والاهتمام الوطني اللازم لسحب غوثام

مـن الحضيض ببسـاطة. لقد واجـه باتمان لوثر مرتين - مـرة بعد مضي وقت قليـل من وصوله، ومرة أخـرى بعد أحباطه لحيلة لوثر - وفي المرتين كان قد أكد بأن غوثام هي مدينته هو، لا مدينة لوثر.

في بدايـة No Man's Land، شـككت العديـد مـن الشـخصيات بهذا التأكيـد وذلـك بسـبب عدم القـدرة على إيجاد باتمـان في أي مـكان، وخلال ظروف غامضة. وحين ظهر باتمان أخيراً، بعد أكثر من ثلاثة أشهر على عزل المدينـة، وجـد أنه بحاجة الى إعادة بناء الأسـطورة التي أسـتخدمها لترهيب المجرمين، وبأن عليه ضبط تكتيكاته لتتناسـب مع البيئة الجديدة. ثم في نهاية المطاف، تعلم أن يعمل ضمن نظام العصابات، معترفاً بأن السكان يشعرون بالضياع من دون قائد يكنون له الولاء (سـيادي) والذي بإستطاعته حمايتهم والمسـاعدة في توزيـع الموارد بينهـم بالعدل. لقد أصبح باتمـان رئيس عصابة مـن نوع ما، وإن كان مـن النوع الخير. وقام أيضاً بالسـماح للعديد من نزلاء مصحة آركام، كالبطريق وايفي السامة Poison Ivy، بالمحافظة على أدوارهم في النظام الجديد شـبيهة بـالأدوار التي أختاروها لأنفسـهم (خلال هروبهم مـن آركام)، طالمـا أنهم يسـاهمون في تحقيـق الصالـح العام للمدينـة. كانت غوثـام متـضررة بعمق، وقد طـرح باتمان خطـة طويلة الأمد (عـلى النقيض مـن محاولة إصلاح سـوبرمان السريعة، والتي لم تنجـح)،[12] والتي ضمت في نهايـة المطاف العديد من شركائه وزملائـه: أوراكل Oracle، الصيادة، المرأة الوطواط الجديدة (كاساندرا كاين Cassandra Cain)، روبن، جناح الليل Nightwing، عزرائيل Azrael، آلفريد Alfred، والدكتورة ثومبكنز، جنباً الى جنـب مع جيم غـوردن والـ GCPD. كان الطريق طويلاً لشـفاء المدينة، ولإستعادة القانون والنظام اللذين كانا قائمين قبل حدوث الزلزال.

إن هـدف باتمـان النهائي هو إعادة ترسـيخ النظام، وبالتـالي، فمن المهم جـداً أن يتصالح مع جيم غوردن، والذي أبعد نفسـه سـابقاً باتمان، شـاعراً

بالخيانة بسـبب غياب باتمان طيلة الأشهر الأولى. وعلاقة باتمان المستمرة مع جيم غوردن تؤكد بأنه ليس بمقتص منفرد ذو قانون خاص. ولكنه بدلاً من ذلك يسـعى لإعلاء شـأن العدالة الإجتماعية، وتحقيقاً لهذا فهو يعمل بشكل وثيـق مـع جيم غوردن ويعمل بأنسـجام مـع الـGCPD أكثر مـن كونه على خلاف معهم. إنه يمتلك قانوناً وضعه لنفسـه ضد القتل، وتوبيخه للصيادة حـول طرقهـا العنيفة توازي توبيخ جيـم غوردن لبيتي، (عـلى الرغم من أن الصيادة تصلح نفسها في نهاية المطاف وتشهد وصول بيتي الى الجنون).

بوصفـه محققـاً، يقـوم باتمـان بكشـف الجرائـم التي تتعـارض مـع النظام الإجتماعـي؛ وكرئيـس عصابة، يسـير في الشـوارع خـلال النهار مطالبـاً بالثناء لتوفـير القواعـد والنظام لأولئـك المواطنين الضائعـين في تلك البيئـة العدائية. ساعد باتمان الناس على التعاون و العمل معاً لمشاركة الموارد بطريقة أكثر عدالة، بدلاً من الطرق الإنتهازية للبطريق، ومستر فريز Mr. Freez، وذي الوجهين، وآخريـن. كان عـلى باتمان في البدايـة أن يفكك منظومتهـم القمعية من أجل أن يقيـم نظاماً جديداً، والذي سـيتوافق في نهاية المطاف مع عمل جيم غوردن والـ GCPD. كانـت عمليـة اسـتغرقت وقتاً طويـلاً، و انطوت على انخـراط عائلة الوطواط في في العمل في الشوارع خلال الأشهر الطويلة لـNo Man's Land، و تطلبـت المال وقـوة الإرادة لليكس لوثر وبروس واين خـلال نقطة التحول، حـين تم ابطـال قانون المؤسسـة و الدولة. لقـد كانَ الطريقُ لإعـادة بناء غوثام طويلاً ووعراً، مع العديد من التضحيات المقدمة على طول الطريق.

وبعد عدة سنوات، في العالم الحقيقي، لا تزال نيو أورليانز في مرحلة إعادة البناء. ولا يزال العديد من الناس يعيشـون في مساكن مؤقتة، وقطاعات واسعة مـن الأحيـاء الفقيرة مليئة بالمنـازل المهجورة. وخلال مرور كل ذكرى سـنوية، تجلب تلك الذكرى الإنتباه الوطني ثانية إلى ذلك الدمار، إلّا أن القصة تتلاشى لاحقاً في وسط الأخبار الأخرى. إن سكان نيو أورليانز يعلمون بأن عملية إعادة

البنـاء مسـتمرة؛ فلا يزال هنالك الكثير لفعله. إنهـم لا يمتلكون باتماناً ذو خطة بارعـة ليسـحب بها المدينة من عـلى حافة الهاوية، ولكنهم يمتلكون مسـاعدات حكومية، وقوات حرس وطني، وضباط شرطة، ومتطوعين من جميع الأصناف يأتون لنجدتهم. لا تزال هنالك العديد من النقاشـات السـاخنة حول ما إذا كان هنالك متابعة كافية؛ فالدمار كان كبيراً، والعديد من الناس لا يزالون يعانون.

الحجاب الخفيف

تتركنـا قصص غوثام الخرِبة ونيـو أورليانز الغارقة مع رسـالة مختلطة. إننا نتسـائل كم نحن قريبون، بمجتمعاتنا المختلفة، من الغرق في الفوضى، ما الذي يتطلبـه الأمر ليتمزق ذلك الحجاب الخفيف للنظام؟ ولكن على الطرف الآخر، فإننا نرى قصصا بطولية لأشـخاص يساعد أحدهم الآخر للوقوف في مواجهة التحديـات القاسـية. إن الفـوضى هي عدو باتمـان الأعظم: فقـد أحتفل مجرمو آركام المجانـين بغوثـام المشـلولة، مدينـة تحكمها الفوضى. ولم تكـن حملة باتمان ضدهـم فقط، ولكنها، بشـكل أكثـر أهمية، كانت ضد ما يمثلونـه. وعلى الرغم مـن أننـا غالبـاً ما نأخذ النظـام الأجتماعي كأمر مفـروغ منه، إلّا أننـا قد نمتلك خوفـا متأصـل الجذور حول ما إذا كنّا سـننجو إذا ما تقوض ذلك النظام في يوم مـا. يبرز باتمان كحامٍ للنظـام الإجتماعي، و إن كان عمله خارج الإطار القانوني مثيراً للجدل.

هـذه الصورة كانت قـد ترددت مراراً عـلى أذهان القراء، سـواء أكانوا قد عـبّروا عنها أم لا، منذ العام 1939، وهي صورة لا يزال باسـتطاعتها تشـجيع أولئـك الذيـن يدركونهـا اليـوم ويقاتلون ضد استشراء الفوضى، كـما نواصل مواجهة كوارث بحجم كاترينا Katrina. ولحسـن الحظ فإنه سيكون لنا أبطالنا الخاصـين في سـاعة حـدوث تلك المعضـلات، وهم أنـاس عاديون سـيرتقون لمستوى تلك التحديات.

هوامش الفصل الرابع:

1- تم جمع معظم هذه القصة في خمسة مجلدات، No Man›s Land المجلدات 1-5 (1999-2001)، وسيتم الإشارة إليها في النص على أنها NML1، NML2، وهكذا دواليك. بعض أجزاء القصة لم يتم طباعتها في هذه المجلدات، وبالإمكان إيجادها في الأعداد المرتبطة بسلسلة باتمان الصادرة من العام 1999 حتى 2000.

2- تشمل هذه القصص عدداً من الإصدارات بين عامي 1999 و2000. تقع Aftershock ضمن Batman الأعداد #555-559، وDetective Comics ضمن #722-726، وShadow of the Bat ضمن #75-79، وBatman Chronicles ضمن #14. وتتضمن Road to No Man›s Land، قصة Batman #560-562، وDetectice Comics #727-729، وShadow of the Bat #80-82.

3- أعداد Batman #560-562 (ديسمبر 1998، فبراير 1999).

4- آلان برايد "نيو أورليانز في مخاض كاترينا، وهلاكها،" WWLTV.com، الثاني من سبتمبر 2005.

5- توماس هوبز "الليفياثان" (طبعة نورتن ذات الهوامش) (New York: W. W. Norton

1996)، الكتاب الأول، الفصل 10-18.

6- أنظر بريت تشاندلر باترسون "حول العث والرجال: طرق الخلاص في جزيرة الفرص الثانية"، في كتاب الخسارة والفلسفة: للجزيرة أسبابها، تحرير شارون كاي (Malden MA: Blackwell 2007).

7- أنظر "التجريم في نيو أورليانز أثناء إعصار كاترينا" لسارة كوفمان، الحادي عشر من يونيو 2006، http: / /www.understandingkatrina.ssrc.org.

8- توماس هوبز "الليفياثان"، الكتاب الأول، الفصل 20.

9- نيكولا مكيافيلي، "الأمير" (New York: Oxford Univ. Press 2005 [1532]). أحد النقاشات الرئيسية لهذا العمل هو أن على الحاكم أن يكون على دراية

بسـمعته الإجتماعيـة. فـلا يكفي أن تكون فاضـلاً فقط، بل على رعايـاك أن يروك كذلك أيضاً.

10- راجع عمل سـتانلي هورفاس "المملكة المسـالمة" (Notre Dame IN: Univ. of Notre Dame Press 1983)؛ وعمـل هــ. ريتشـارد نيبـور "معنـى الوحـي" (New York: Collier Books 1960 [1941])؛ وعمـل جـون هـوارد يـودر "سياسـة المسـيح" (Grand Rapids MI: William B. Eerdmans 1992 [1972]). تزيل فلسـفة هوبز الله من السياسـة الدنيوية بحيث يكون من السهل أن نرى لماذا رأى عدد من مؤيدي فكره ميلًا إلحادياً لها، على الرغم من أن هوبز نفسـه نفى وجود مثل هذه العلاقة.

11- كريـس كارول "الأمـل في الجحيـم: مـن سـاحل الخليـج وحتـى أوغنـدا - بلـوغ المسـاعدات الإنسانية"، ناشـيونال جيوغرافيك، ديسـمبر 2005، http://www7.nationalgeographic.com/ngm/0512/feature1/index.html.

12- أنظر "Visitor" في NML3.

5

إدارة غوثام

بقلم: توني سباناكوس

"هل باستطاعة أحد ما أن يخبرني ما نوع العالم الذي نعيش فيه، حيث يرتدي رجل ملابس وطواط ليحصل على كل الاهتمام الصحفي خاصتي؟ هذه المدينة بحاجة الى حقنة شرجية!".

- الجوكر، من فلم باتمان عام 1989.

غوثام هي التي جعلتني أفعلها

إن هزيمة الأشرار المريعين، باستخدام أدوات مذهلة، وتركهم في حالة من الدوار بعد استيقاظهم لهو أمر مثير للإعجاب. ولكن أكثر ما يثير الدهشة في أمر باتمان هو لماذا وكيف يأخذ لباسه الضيق ويشغل نفسه بمعضلات المساء في المقام الأول؟. إن قصة أصول باتمان قد تكررت حكايتها مرات عديدة وبطرق عديدة، ولكنها تركز دائماً على الطفل الذي شهد مقتل والديه وكبر ليصبح وطواطاً محارباً للجريمة.

أغلب التحليلات التي تناولت أفعال باتمان ودوافعه، ومن ضمنها فلم Batman Begins 2005، تركز على التأثير السايكولوجي لهذه الحادثة على بروس واين/ باتمان. في هذا الفصل سنتخذ نهجاً مختلفاً، ونطرح فكرة بأن غوثام، ولاسيما حكومتها، هي مصدر قلق باتمان. حيث قتل توماس Thomas و مارثا Martha واين لأن الدولة لم تكن قادرة على الحفاظ على القانون والنظام، وردة فعل بروس واين كانت بأن يصبح محاربا للجريمة بصفته باتمان، محاولاً تصحيح انعدام النظام في مدينته. وعلى الرغم من تطرفها، فإن ردة الفعل هذه لا تعتبر فريدة. كل الشخصيات الرئيسية تقريباً في فريق باتمان يقاومون الدولة إما بصفتها ضعيفة جداً أو محدودة للغاية. إن لباتمان وجيم غوردن رؤية أكثر دقة للسلامة العامة وذلك ما يجعلهم يدعمون السلطة ولكنهم يرفضون سلطتها الكلية في مجال الأمن. وهذا يسلط الضوء على الطبيعة غير المستقرة للحكم السياسي، وهو يفسر أيضاً لماذا باتمان (وبالتالي غوردن) لديهم مثل إشكالية العلاقة هذه مع الولاية.

هل نحن بحاجة لأي أيقونات متطرفة، شرعية وعنيفة؟

«أسرع من رصاصة منطلقة، وأقوى من قاطرة، قادر على القفز الى قمم مبانٍ شاهقة بقفزة واحدة...» كل تلك، بالإضافة الى قوى أخرى، كانت قد سمحت دائماً لسوبرمان بخدمة الصالح العام، والعدالة، والطريقة الأمريكية. إنه يتيم من كوكب آخر، وولائه للبلد الذي نشأ فيه غير مشروط. يساوي سوبرمان بين الصالح العام والطريقة الأمريكية كالجندي الصالح الذي تمذوب فيه قبل حوالي 70 عاما. و بسبب حبه لبلده التي تبنته، يعترف سوبرمان بسلطة الدولة، والتي بدورها أذنت له بالتصرف بالنيابة عنها. وعندما قام سوبرمان بإنقاذ مدينة غوثام من خطر سقوط رأس نووي عليها في The Dark Knight Returns (1986؛ سأدعوه من الآن فصاعداً

بالاختصار DKR)، فقد كان استخدامه للقوة مرخصاً وبالتالي "شرعياً" وذلك لكونه عميلاً لدى الدولة. غير أن جهود تقليص أنشطة الجريمة التي يقوم بها باتمان غير مرخصة أو مشروعة.

وقد أنتج هذا توتراً مثيراً للاهتمام، قام فرانك ميلر Frank Miller باستكشافه في DKR. السوبرمان الخاص بميلر هو بمثابة الفتى الذهبي الذي قرر اللعب مع البشر وحكومتهم بلطف. وقد كافح لفهم مزحة بروس واين "إننا بالطبع مجرمون.. ولطالما كنّا كذلك، إذ علينا أن نكون مجرمين". يعتبر سوبرمان بروس صديقاً، ولكنه كان يفهم النظام، والجريمة، والعالم بشكل مختلف جداً. وعلى الرغم من الصداقة التي تجمعهما، فلم تكن لسوبرمان أي شكوك حول الطرف الذي سيدعمه إذا ما تحتمت المواجهة بين باتمان والدولة. لقد قام أول الأمر بتحذير بروس بصراحة، قائلاً: "إن الأمر كالتالي، بروس عاجلاً أم آجلاً، سيوجه لي أحدهم أمراً بإلقاء القبضِ عليكَ، شخص يمتلك السلطة"، بعدها، وبصفته ممثلا للحكومة، قام بقتل (أو هكذا كان يعتقد) باتمان.

عرّف عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر Max Weber (1864 – 1920) الدولة باعتبارها المؤسسة التي تحتكر استخدام الإكراه الشرعي في منطقة معينة، ومن خلال الشرطة والجيش، فأن الدولة –وفقط الدولة– من شأنها أن تفرض السلطة. واستخدام العنف من قبل الجهات غير المرتبطة بالدولة (كالإرهابيين والثوار والمجرمين وجهات الأمن الأهلية)، يحدث أحياناً، يكون مفهوماً في بعض الأحيان، ولكنها لا يمكن أن تكون مشروعة أبداً. إن معظم الأبطال الخارقين، حتى لو كان ذلك من دون قصد، يلعبون دوراً تخريبياً وذلك لأن القليل منهم فقط مرخص رسمياً أو مكلف من الدولة لاستخدام الإكراه من أجل حراسة النظام العام (باستثناء فترة الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة، عندما قام أبطال

مثل كابتن أمريكا Captain America وجمعية العدل الأمريكية Justice Society of America بالعمل مع الحكومة الأمريكية لقتال النازيين، والسوفيت، والفضائيون القادمون من مجرات بعيدة، وعفاريت أخرى).[1] وباتمان، مع ذلك، يعتبر تخريبي بشكل خاص، خصوصاً بتجسده كـ"فارس ظلام" (في قصصه المبكرة، ومرة أخرى بعد 1986)، لأن مفهومه عن النظام والخير يتجاوز الدولة؛ حيث أن استخدامه للعنف هو إضافة لما للدولة، وليس بالتنسيق معها. وتحدي احتكار الدولة للاستخدام الشرعي للعنف يبدو جلياً في تصوير ميلر لباتمان على النقيض من سوبرمان والمفوض يندل Yindel.

إن عودة باتمان في DKR تتزامن مع ارتفاع معدلات جرائم العنف في مدينة غوثام (من قبيل الصدفة، أن قصة ميلر التي ظهرت لأول مرة في عام 1986 كجريمة كانت قد زخرفت نيويورك، كنموذج لغوثام). يتم تصوير العمدة فيه كشخص فارغ لا يهتم سوى بنيل أصوات الناخبين، وكسياسي ضعيف لا يمتلك أي مكانة في أنشطة باتمان حتى يتم فرضه عليه من قبل أحد مساعديه. وعندما يحين الوقت لاختياره خلفاً للمفوض المتقاعد غوردن، يقوم العمدة بأختيار إيلين يندل Ellen Yindel. كان ليندل مسيرة مهنية ناجحة جداً في محاربة الجريمة في شيكاغو، ولكن شيكاغو ليست غوثام. حيث تعجز يندل عن فهم خفايا غوثام وعلاقتها بغوردن وباتمان. لقد كانت تدرك بشكل صحيح أنها قد ورثت وضعاً كانت تهيمن عليه فوضى ظاهرية. ولكن جهودها لفرض النظام كانت تعتمد على تفسير الوضع كـ"أبيض وأسود" بالنسبة للقانون والذي يرى باتمان كمقتص غير شرعي و، بحكم التعريف، كمجرم. ثم قامت بتبرير هذا الموقف قائلة: "على الرغم من تفشي وباء الجريمة في غوثام، فأنا أعتقد بأن ملاذنا الوحيد هو تطبيق القانون. أنا لن أشارك في أنشطة المقتصين غير الشرعيين. ولذلك، وبصفتي مفوض

الشرطة الخاصة بكم فأنا أصدر أمراً بإلقاء القبض على باتمان بتهمة التكسير والاقتحام، الاعتداء والضرب، وخلق خطر عام".

ربما يتعرض محبو القصص المصورة للصدمة بسبب هذا، ولكنها استجابة منطقية للغاية، وخاصة وهي صادرة من ممثلة للدولة والتي تتفاخر بـ"القانون والنظام". إن مشكلتنا، بصفتنا قراءً ومعجبين، هو أننا نعلم بأن القانون والنظام ليسا مرتبطين تماماً. ففي بعض الأحيان يكون هنالك القليل من النظام الذي لا يستطيع القانون تحقيقه بشكل جيد، وهذا هو بالضبط ما يجعلنا نحتاج باتمان في المقام الأول. ولكن يندل، على الأقل حتى نهاية DKR، كانت عمياء لكي ترى ذلك لأنها تفهم بأن الدولة هي المكان الوحيد للقانون والنظام. إذا كانت الدولة لوحدها هي التي تستطيع أن تفرض القانون بشكل شرعي، وأن تستخدم العنف في هذه العملية، فمنطقياً ستكون أي أعمال عنف أخرى غير شرعية وإجرامية، بغض النظر عمّا إذا كانت نواتجها لمصلحة الخير أم لا. وبعد كل ذلك، حتى لو كانت غوثام أكثر أمناً بفضل باتمان، فهي لم تعد "نظامية" بعد الآن، منذ أن قبلت بشكل صريح فكرة أن فرد واحد بإمكانه استخدام العنف بصورة غير شرعية. وهذا سيفتح الباب أمام مقلدين بقدرات أقل ودوافع مشكوك فيها (كما يظهر ذلك DKR من خلال "أبناء باتمان sons of Batma").

من زقاق للجريمة إلى مدينة الخطيئة: هوبز وغوثام

تعلم بروس واين اليافع عن الحاجة لوجود شخص ما لكي يفرض النظام في زقاق للجريمة، تحت إنارة شارع وحيدة، بين جثث والديه توماس ومارثا. وكبقيتنا، كان يفترض بأن الدولة ستحفظ النظام وتمنع العناصر الإجرامية عن إيذاء الأفراد وتقف بوجه سعيهم غير القانوني خلف مصالحهم الخاصة. ولكن السرقة التي تحولت إلى جريمة قتل مزدوجة غيرت كل شيء.

لقد ولد باتمان في مدينة فشلت فيها الدولة في أهم مسؤولياتها والمتمثلة في الحفاظ على سلامة العامّة، حيث "العقد الإجتماعي" بين السكان والدولة هو الأكثر أهمية. إن الحياة في غوثام مخيفة، واهية ورخيصة؛ حيث الخطر يتربص في كل مكان. بالتأكيد، لا تستطيع أي حكومة أن تمنع جميع الجرائم، ولكن بروس يعلم بأن الحكومة لا تستطيع، لوحدها، أن تضمن النظام. في 1987 Batman: Year One، يعيد ميلر رواية أصول باتمان. إذ تبدأ القصة مع وصول المفوض غوردن الى غوثام بواسطة القطار وعودة بروس واين الى المدينة بالطائرة. كلاهما يعلمان بأنهما يدخلان مدينة ساقطة، حيث خسرت فيها الحكومة السيطرة لمصلحة الجريمة، وأصبح تحديهم الشخصي هو حل تلك المعضلة. وعلى مدار قصة Year One سيتعلم كل شخص كيف أن الجهود الشخصية تستلزم التعاون مع الآخرين، وفي بعض الأحيان في تجاهل، أو حتى تحدي الدولة.

من دون دولة لتفرض النظام، ستكون الحياة عبارة عن "عزلة، فقر، قذارة، وحشية وقصيرة": وهذا ما جادل فيه توماس هوبز (1588 – 1679) في الليفياثان، المنشور بعد حوالي عقد من الحرب الأهلية البريطانية.[2] إذ يتصور هوبز العالم الذي كان قائماً قبل وجود الحكومات، فيه كان للبشر حرية غير محدودة، ولكنهم منقادون لعواطفهم، وسرعان ما تتحول الحرية إلى انحراف، ودولة الطبيعة ستتحول الى حرب الكل ضد الكل. ثم لن يكون هنالك نظام ولا إمكانية للعدالة. وستصبح الأمور ظالمة لدرجة ستدفع الإنسان لأن يتخلى عن كل حرياته تقريباً لأجل سيادة بإمكانها وضع نظام وحمايته. وهذا، وفقاً لهوبز، هو أصل الحكومات.

تبدأ معظم قصص باتمان مع كون غوثام غير قابلة للحكم، حيث تكون مكاناً قد تحطم فيه المجتمع ليصل الى حالة فوضى هوبزية. تعطينا شخصيات مختلفة من سلسلة باتمان رؤية حول كيف لسقوط الدولة أن يُقوض النظام

وكيف للأشخاص أن يستغلوا حدوث ذلك أو يعملون على تجاوزه. فعلى سبيل المثال، عندما وصل غوردن الى غوثام في Year One، تم استقباله من قبل المحقق فلاس Flass، وهو شرطي فاسد، والذي قام بأخذه للقاء المفوض غيليان لويب Gillian Loeb، والذي يدير سلك الشرطة كفتى ثانوية كبير بصفتها شبكة حماية لنخبة المدينة الأقوياء، وسياسيين، وتجار مخدرات أقوياء. عندما رفض غوردن أخذ رشوة من أحد القساوسة، قام فلاس وبرفقته بعض الضباط الآخرين بمباغتته وضربه. لاحقاً، يرد غوردن الجميل لفلاس ويعود الفضل لفلاس بتعليم غوردن ما يعنيه أن تكون شرطياً في مدينة غوثام.

عندما ظهر باتمان لأول مرة، نصب غوردن فخاخاً في محاولة القبض عليه، ولكن المفوض أخبره بأن لا داعي للقلق حول باتمان: فبعد كل شيء، هو يقوم بالحد من الجريمة في الشوارع، وذلك لا يخل بعمل لويب. فقط بعد مداهمة باتمان لعشاء خاص لنخب غوثام (ومن ضمنهم لويب) وتهديدهم، وضع لويب مهمة القبض على باتمان على رأس أولوياته. وبدلاً من ترسيخ النظام، كانت دولة لويب تشذ عن ذلك. كان التأثير واسعاً للدرجة الذي أثر على غوردن أيضاً. حيث قام على المستوى الشخصي بخيانة زوجته الحامل باربرا مع ضابط زميلة له، وهي الرقيب سارة إيسن Sergeant Sarah Essen. مهنياً، كان قد تضارب مع نظام لم يكن يستطيع فهمه، خصوصاً بعد أن رأى وتعلم أكثر عن باتمان. فأستلقى في سريره، أنقلب على جنبه وحدق الى مسدسه الذي في يده عندما كانت باربرا نائمة، وأستغرق يفكر:

"لا يجب عليَّ التفكير . . . ليس بشأن باتمان. إنه مجرم، وأنا شرطي. الأمر بهذه البساطة، ولكن – لكن أنا أسكن مدينة حيث يستخدم فيها العمدة ومفوض الشرطة أفراد الشرطة كقتلة مأجورين . . . لقد أنقذ تلك المرأة العجوز وأنقذ تلك القطة. حتى أنه دفع ثمن تلك البدلة. إن قطعة

المعدن التي في يدي تبدو أثقل من أي وقت مضى".

مثل سوبرمان ويندل في DKR، يقوم لويب وأتباعه في Year One بفرض النظام على مدينة غوثام. ولكن على النقيض من سوبرمان ويندل، فأن نواياهم بالكاد تستحق الثناء، وكعملاء للدولة، فهم لم يفشلوا فقط بمنع استخدام الناس من غير الشرطة للعنف، ولكنهم قاموا فوق ذلك باستخدام العنف بطرق غير شرعية. والأهم من ذلك، وعلى الرغم من أن لديهم القدرة على فرض القانون وترسيخ النظام، وحماية أرواح السكان، فقد قاموا بالسماح بتفشي حالة من الفساد في مدينة غوثام لأنها تشكّل غطاءً على نشاطاتهم غير الشرعية. بدلاً من أن تضع الدولة حداً لفوضى دولة الطبيعة، كما أمل هوبز، فقد كانت الدولة نفسها هي أحد المشاركين في حرب الكل ضد الكل.

قليل من الأمن

يقدم فشل الدولة في الحفاظ على أهم مسؤولياتها تفسيراً لأصول الحاصد The Reaper، وهو أحد الأشرار في Batman: Year Two (1988). من الواضح جداً بأن بداياته هي مرآة لبداية لباتمان: حيث تم الاعتداء على جودسون كاسبيان Judson Caspian وزوجته وإبنته قبل عدة سنوات أثناء عودتهم من الأوبرا، وقتلت زوجته خلال ذلك الاعتداء. فشل الدولة في توفير النظام قاد كاسبيان لأن يصبح الحاصد، ودخول إبنته راتشيل Rachel الى الدير في نهاية المطاف. (سنقوم بالتركيز هنا على الحاصد، ولكن من المثير للاهتمام أنه وإبنته كلاهما كانا يبحثان عن إستحضار النظام الى عالم الخطيئة والفجور، وكلاهما يفعلان ذلك بمعزل عن الحكومة). يبدأ الحاصد مسيرته المهنية بقتل أربعة سارقين، قائلاً للضحية الذي تعرض للسرقة "لا شيء لتخافه. قل للعالم بأن الحاصد قد عاد... وسينقذ هذه المدينة برضاها، أو

من دونه". المدينة الساقطة بحاجة إلى الإنقاذ، وبدلاً من الإنخراط في عمل جماعي أو تعبئة سياسية، حمل كاسبيان السلاح ليبدأ حرب رجل واحد.

إن التشابهات والاختلافات بين باتمان والحاصد بدت جلية عندما ظهر باتمان بعدما كان الحاصد يطارد عاهرة: "الباتمان، إيه؟ يقولون بأنك تواصل القتال الذي بدأته أنا. إذا كان الأمر كذلك، أثبته الآن وتنحى جانباً". يرفض باتمان ذلك لأن الحاصد يسعى لشن "مذبحة جماعية" في الحين الذي يسعى فيه هو لتحقيق العدالة. ثم يستهدف الحاصد ويلي غلونكا الكبير Big Willie Golonka، وهو عضو عصابة في الأمن الوقائي، والذي قام بقتله جنباً الى جنب مع حرسه. حيث أن الدولة التي فشلت في حماية زوجته تقوم الآن بحماية عضو عصابة. وهذا الأمر غير معقول أو مقبول. الشرطة كعملاء للدولة "يجب أن يُعلموا أن أولئك الذين يحمون الأشرار عن دراية... يجب أن يعانوا نفس عقوبات أولئك الذين أرتكبوا تلك الشرور!" الدولة، كما رأها الحاصد، قد قلبت العالم رأساً على عقب، ونسيت بأنها موجودة لتمنع نشوب حرب رجل ضد رجل. ووظيفته كانت إعادة النظام إلى العالم الهوبزي (المترجم: نسبة الى توماس هوبز، ودولة الطبيعة)، ولكنه فعل ذلك كليفيثيان مستقل. الليفيثيان الخاص بهوبز، من جانب آخر، يحل مشاكل دولة الطبيعة من خلال عقد إجتماعي جماعي، وليس من خلال استخدام القوة المفرطة بشكل فردي.

أحد أكثر أشرار باتمان إثارة للاهتمام هو هارفي دينيت Harvey Dent، والمعروف أيضاً بأسم ذي الوجهين. دينت هو مدعي عام المقاطعة الشغوف وغير القابل للإفساد والذي يدعم باتمان ويطارد مجرمي غوثام الكبار، حتى أولئك ذوي الروابط السياسية منهم (شاهد Year One على سبيل المثال). وعندما ألقي عليه حمضٌ أثناء محاكمته لأحد زعيم العصابات، تشوه وجه دينت وأخذ هويته الجديدة المعروفة بذي الوجهين. إن الأمر ليس فقط أن

نصف وجهه بأنه مشوه الآن، ولكن ماهيته قد تغيرت أيضاً. هذه ليست مجرد قضية شبيهة بالدكتور جيكل Dr. Jekyll حيث يحاول فيها قمع هويته وتهيئة الظروف الملائمة لظهور مستر هايد غير القابل للكبت. لم يتمكن هارفي دينت أن يخضع العالم للنظام بواسطة القانون. وفي الحقيقة، فأن كونه مدعياً عاماً قد عرّضه لأن يكون هدفاً وحوله جسدياً الى النصف وحش الذي هو عليه.

ولا يزال ذو الوجهين أحد شخصيات باتمان التي أستجابت لإنحطاط الدولة الفاشلة وانحدارها للدولة الهوبزية حيث حرب الكل ضد الكل. حيث في كل القضايا التي مرت، لم تُقابل غوثام الهوبزية بسلطة فعّالة قوية. في قضية لويب، أختارت الدولة إتباع إجراءات ضارة، معلنة نفسها كدولة حرب. والحاصد كان إستجابة وحشية ومتطرفة لفرد بسبب فشل الأمن الجماعي التي تم التعاقد مع الدولة لتوفيره. هارفي دينت من ناحية أخرى كان صادقاً ولكنه لم يكن عميلاً فعّالاً للدولة في نهاية المطاف. إنه عجز الدولة عن التصرف، والمدرك من الداخل، الذي حوله الى شخص يحاول إستعادة النظام من خلال ممارسة الجرائم.

أضداد باتمان: التمردات النيتشويه

تفترض مفاهيم ويبر Weber وهوبز عن الدولة بأنها مؤسسة شرعية تجلب الأمن، وبأنها "صالحة". ومع ذلك، يرى فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844 – 1900) الدولة كتهديد للتعبير عن الذات ومجاهدة النفس. حيث تحاول الدولة بشكل ملح أن تغير سكانها وتجعلهم على صورتها. ففي كتاب هكذا تكلم زرادشت، يقول نيتشه على لسان الدولة: "لا يوجد شيء أعظم مني على الأرض: أنا هو الأصبع الذي يأمر به الله"[3]. تمثل الدولة النيتشوية "صنماً جديداً". صنماً ليس أقل قمعاً من سابقيه وهي

تقوم بتعريف الخير والشر، وتعلق "السيف ومئات الشهوات" فوق الإيمان.

لا يرى شرير في باتمان ذلك بالوضوح الذي يراه آناركي Anarky، وهو مراهق مخدر بالفعل الفوضوي فيBatman: Anarky 1999 . هدف آناركي هو جلب الحرية للناس الذين أستعبدوا بالنظام الفاسد للسياسة والدين والرأسمالية. ومثل الحاصد، كان آناركي يظهر من خلال مكافحته لشخصيات غير معروفة مثل تاجر للمخدرات، أو شركة من النوع المسبب لتلوث البيئة، أو بنك كبير قام بتهديم وتطهير منطقة كانت مسكونة من قبل من لا مأوى لهم. وقد أشار آلفريد إلى أوجه الشبه بين آناركي وباتمان لبروس واين، والذي أجاب بسرعة "أعلم، أعلم . . . طرقي ليست دائماً قانونية أيضاً. ولكن هنالك أختلاف آلفريد . . . أنا أستخدم العنف عندما يكون ضرورياً جداً فقط، وليس كطريقة للعقاب . . . ليس في الآونة الأخيرة على كل حال!".

يمكن رؤية حاجة أناركي لتنظيم العالم من خلال رسالته المطولة لوالديه والتي شرح فيها شخصيته الحقيقية، تدريسه الفوضوية للجانحين الأحداث الآخرين، وحلمه في نهاية الرواية المصورة. في حلمه، يحاول أناركي "ازالة تأثير عمليات غسل الدماغ التي تعرض لها سكان غوثام، ليتمكنوا من رؤيتها على حقيقتها"، حيث يرى القياديون الإداريون مشهد العالم من زجاج سيارة الليموزين، في الحين الذي تنام فيه عائلات في صناديق من الورق المقوى - رجال أعمال فاسدون يزدهرون، في الحين الذي يتسول فيه رجال شرفاء في الحضيض - لتتفجر الجريمة. في الحين الذي يخاف فيه رجال محترمون من السير في الشوارع التي دفعوا ثمن ضرائبها. كل الحياة البشرية هناك من الأفضل الى الأسوء، من الملوك في حصونهم وصولاً إلى الحثالة في حضائرهم. الجميع يعتقدون بأن على الأمر أن يكون هكذا. أنا سأريهم بأنه ليس عليه أن يكون هكذا". في حلمه، يخلق أناركي واقعاً مريراً حيث لا

توجد هنالك دولة لتنظم سير الأشياء، حيث يخفق السياسيون في "أختبار الطفيليات" ويعتقلون في أماكن معزولة لكونهم "أعداء الشعب"، وحيث الشعب - في غياب الدولة - يصبح قذراً ووحشياً. إن المغزى من القصة هو أن النظام الفوضوي الذي يحاول أناركي أن يفرضه هو أسوأ من ذلك الذي يريد تغييره. بحثه عن مبدأ تنظيم أقل قمعاً من فشل الدولة كان أسوأ.

وعلى النقيض من ذلك، لم تكن أهداف الجوكر سياسية، ولكنها مرتبطة أيضاً بالنظام. إذ يُصوّر عدو باتمان الأساسي في DKR كمهرج لعوب والذي يظلل دوافعه لخرق النظام بأفعاله الإجرامية الخبيثة: الحاجة لتعطيل نظام ممل ومقيد. لا تفرض الدولة هذا النظام لأغراض سياسية بقدر ما تفرضه لأغراض إجتماعية، ويستجيب الجوكر من خلال محاولة تقويض أي نظام. في DKR، يؤدي الجوكر حيل بنطاق محدود في مصحة آركام حتى الوقت الذي يعلم فيه بأن باتمان قد تراجع عن تقاعده، حيث إن عودة باتمان تستدعي عودة الجوكر. باتمان ممل جداً، حيث أنه يفرض الكثير من النظام. على الجوكر أن يعود لغوثام لتقليل تأثير باتمان. ثنائية باتمان - المهووس بالنظام - والجوكر - الذي يحتاج لتحدي النظام - تروى بأفضل أشكالها عند تحدث الجوكر عن ضحاياه قائلاً لباتمان: "أنا لم أتوقف عن العدّ أبداً، ولكنك فعلت، وأنا أحبك لذلك".[4]

الثنائي دائم الفاعلية: باتمان وغوردن

يُفتتح Batman: Year Two بمقابلة تلفزيونية مع المفوض المعين حديثاً جيم غوردن:

المقدم: يبدو بأنك على علاقة جيدة مع أفراد شرطة غوثام، ولكن العديدين كانوا قد شككوا بعلاقتك مع ذاك الحارس المقنع، باتمان.

غوردن: علاقة قسمي مع باتمان دقيقة.

المقدم: يشعر الكثير بأن باتمان ليس بأفضل من الخارج عن القانون صاحب الزي المميز الذي طاف بشوارع غوثام قبل عشرين عاماً مطلقاً على نفسه the Reaper الحاصد.

غوردن: لقد تمت تلك المقارنة، ولكن للأسف، لم تكن عادلة تماماً.

المقدم: يقول البعض بأن رحيل الحاصد المفاجئ هو ما تسبب بإنبثاق الإضطراب الهائل الذي ولّد الجريمة وفساد الشرطة.

غوردن: لو أمكنني أن أنهي كلامي: أنا لا أستطيع التحدث بالنيابة عن قسم الشرطة الذي كان موجوداً قبل عشرين عاما، ولكن باتمان يعمل بالتعاون مع الشرطة، وليس ضدها.

المقدم: وهل باتمان هذا وكيل مخول لاستخدام القوة؟

غوردن: لا، إنه يعمل بدقة من تلقاء نفسه. ولكنه عرض عليَّ خدماته.

تعتبر هذه المحادثة صورة مصغرة لفهم باتمان وغوردن للنظام الذي يتجاوز الدولة. الدولة ليست المخول الوحيد الذي يمكنه استخدام العنف بصفة مشروعة (كما بيّن ويبر)، وهي تلعب دوراً بنّاء في توفير النظام (ضد نيتشه). ولكن المجتمع يمتلك دوراً ليلعبه في توفير الأمن: وباتمان يرمُز ويُلهم لفعل ذلك، وغوردن يعلم هذا.

وفي الوقت ذاته، لا تعتبر أفعال باتمان شرعية تماماً. إذ عندما ميّز بروس واين نفسه عن Anarky أناركي، قال: "الحقيقة هي، لا يمكن السماح لأي رجل بأن ينصب نفسه كقاض، وهيئة للمحلفين وجلاد". وبالطبع، ورغم أنها بدت غالباً مكررة في مجلات القصص المصورة الأولى أو المسلسلات التلفزيونية المبكرة، فدائماً ما كان باتمان يضرب الأشرار ويقيدهم لكي تستطيع الشرطة القبض عليهم بعدها. حيث قام مرة بمحاصرة البطريق ودفعه الى

الإستسلام بشكل منتظم، وقام بسجن إيفي والجوكر وكثيرين غيرهم في مصحة آركام، عالماً بأنهم سيخرجون قريباً من خلال بوابتها أحراراً. لباتمان القدرة على إعلان العدالة والمعاقبة، ولكنه يرفض فعل كلاهما. ولهذا يتحدث عن مكانة الدولة (والمجتمع) في إقامة النظام والعدالة.

في DKR (صعود فارس الظلام)، تظهر الدولة ضعيفة، مليئة بالمنظمات المحبة والراعية والمتخصصين الذين يدعون بأنهم يتحدثون لأجل المجتمع ولكنهم في الحقيقة أبعد ما يكونون عمّا يفكر به الناس. إذ طالب مجلس الأمهات العمدة بإلقاء القبض على باتمان لكونه "ذا تأثير سلبي على أطفال غوثام". والمنظمة المعنية بحماية المجرمين من العنف المفرط طالبت بحماية الضحايا من عنف باتمان. وكان عالم نفس قد دعى باتمان حتى بـ"الفاشية الإجتماعية" بسبب جهوده المبذولة في إعادة تنظيم المجتمع وفقاً لرؤيته الخاصة. بعد نقاش كبير لم يؤدي لاتخاذ أي قرار واضح بشأن خطورة المتحولين، صرح العمدة قائلاً: "هذا الوضع كله هو نتيجة لقلة كفاءة المفوض غوردن، وبسبب الأعمال الإرهابية لباتمان. أرغب بالجلوس مع زعيم المتحولين. . .من أجل التفاوض على تسوية". بعد ثلاث صفحات فقط قُتل العمدة على يد زعيم المتحولين في زنزانة سجنه بعد أصرار العمدة على عدم مرافقة الشرطة كحماية معه. مات لأنه لم يفهم حقيقة غوثام.

ومع ذلك، فإن العمدة قد أصاب حين أشار لغوردن بأصابع الإتهام كمسبب أساسي في حرية باتمان في مسعاه لملاحقة الأنشطة الإجرامية. وعلى العكس من العمدة، فقد فهم غوردن غوثام وفهم باتمان أيضاً. في DKR، حاول أن يشرح ذلك ليندل، ولكنها لم تبدأ برؤية ذلك إلّا بعدما أدركت حقيقة نوعية الجرائم السائدة في غوثام، وكيف أن باتمان يعتبر رداً ضروريا عليها. إن إنسجام غوردن مع باتمان نادراً ما ينظر إليه كما هو حقاً، كانحراف خطير في تطبيق القانون وتقصير في أداء الواجب. تناول عدد قليل من

القصص المصورة هـذا الأمر، ولم يتم تناوله بشكل مباشر مثلما فعل Dark Victory (2001)، حيث كانت وكيلة مقاطعة شابة وجميلة وليبرالية ومضللة تدعى Janice Porter جانيس بورتر قد واجهت غوردن بشكل مباشر. مشيرة إلى مجرم كان باتمان قد ضربه وآذاه، وقالت لغوردن: "لقد قام باتمان بإيذائه. بأي طريقة ترى بأن حقوقه المدنية لم تنتهك؟ ومما أفهمه، لم تكن هناك فقط في ساعة اعتقاله، بل كنت قد وقفت بنفسك وسمحت لذلك بالحدوث".

دائماً ما ينتهك باتمان الحقوق المدنية للمجرمين، وذلك لأنه لا يمتلك الصلاحية للتصرف كممثل للقانون، وغوردن يعلم ذلك، ولكنه لا يضع الحقوق والقانون قبل العدالة والنظام. حيث أنك تحتاج الحقوق لتحصل على العدالة، ولكن وكما قالت لانا لانغ Lana Lang في دفاعها عن باتمان في DKR "نحن نعيش تحت ظلال الجريمة. . .مع فهمنا غير المعلن بأننا ضحايا الخوف والعنف والعجز الإجتماعي. ثم ظهر رجل ليخبرنا بأن القوة كانت، وما زالت، دائماً بين أيدينا. نحن تحت الحصار، وهو يرينا بأننا نستطيع المقاومة". طوال Dark Victory، كان غوردن دائماً تحت الضغط، لأن بورتر تحاول ابعاده عن التواصل الخاطئ مع باتمان. وهذا يقوض جانباً أساسياً من أسطورة باتمان، والتي تتطلب ذلك الرابط بين الرجل العادل داخل النظام القانوني والرجل العادل خارجه.

إن العلاقة الشخصية غير الرسمية بين غوردن وباتمان هي أمر ضروري. فباتمان لن يتوانى عن انزال العقاب بالمجرمين، ولا يمكن لغوردن أن يعتمد على الشرطة فقط لكبح جماح الأشرار وفرض النظام. إنهما يقومان في هذه العملية بتنصيب والحفاظ على نظام غير مستقر يجعل القارئ يؤمن بأنه شرعي. نحن نعلم بأن باتمان هو الوحيد القادر على التعامل مع رجال بأزياء مخيفة وألغاز معينة والتي لا يستطيع حلها سوى الشيوعي السابق

بطل الشطرنج صاحب الثلاث عشرث سنة. في الوقت ذاته، نحن نعلم أن باتمان لا يمكنه إنفاذ العدالة بشكل تام، حتى في قضية جو تشيل Joe Chill، قاتل عائلته. ربما سنهتف لثأر باتمان بمبرر أخلاقي، ولكننا سنتراجع بعدها ونريد منه أن يتراجع. وكما قال محرر شخصية باتمان دينيس أونيل Dennis O'Neil منذ وقت بعيد: "القتل ليس شيئاً.. يفعله باتمان".[5]

ولكن في الحين الذي يريح فيه هذا النظام القراء، ويسمح لنا بأن نعلم بأننا يمكننا النوم في الليل لوجود شخص يحرس الضعفاء في أزقة الجريمة، والتي تهدد الدولة بشكل كبير. تؤمن الدولة بأن عليها أحتكار الاستخدام المشروع للعنف. وما يهدد الدولة أكثر حتى من الأشرار الذين تحاربهم، هو باتمان، وبدرجة أقل غوردن، لأن باتمان يتحدى الدولة على أحتكار الاستخدام المشروع للعنف. وهذا هو السبب في محاولة إصطياده في كل من DKR، وYear One، وهذا ما دفع الدولة لتحدي أفعاله في Year Two وDark Victory. المثير للسخرية في علاقة باتمان مع الدولة هي بأنه كلما قلل من معدل الجريمة وساهم في فرض النظام العام، كلما تحدى الدولة أكثر، حيث من خلال ذلك يتوضح بأن استخدام الدولة للعنف هو أمر غير فعّال. وذلك ما يجعل غوردن ضرورياً لأن يمنع باتمان من أن يصبح تهديداً كلياً. يثق باتمان بغوردن وسيسلمه المجرمين، في المقابل يقوم غوردن بتقديم إستثناء لباتمان من أحتكار الدولة لاستخدام العنف.

التنظير لحكومة

ربما نتساءل، كمعجبين، الى أي مدى نحن قادرون على تخيل الفجوة بين النظام والقانون. لا يمكن لأي دولة الإدعاء بأن بإمكانها ضمان أن تكون خالية من الأخطاء طوال الوقت. إذ قام كل من باتمان وغوردن معاً بصنع عالم يتجاوز إحساسنا بالمنطق والعدالة، وعلى الرغم من أن جميع

الشـخصيات تحـاول أن تفرض نظاماً من نوع ما عـلى غوثام، ولكن بقي كل مـن باتمان وغوردن أكثر من يفعل ذلك بصورة شرعية. وهذا ما يغطي على زعزعة الدولة، ويظهر كيف أن على المجتمع أن يشـارك في الدفاع عن نفسه، ويشير الى مدى أهمية العلاقات الشخصية والثقة في تحديد الخط الفاصل بين الاسـتخدام العادل للعنف والتنفيذ السـليم للقانون. وبالطبع، فمن الممكن التنظـير للدولة، والعدالة، والعنف بدون مناقشـة باتمان، ولكن كما قد يقول الجوكر: "لمَ العناء؟".[6]

هوامش الفصل الخامس:

1 - لإستكشاف أكثر حداثة لهذه المشكلة، راجع كيف أثر "قانون تسجيل البشر الخارقين" على مجتمع مارفل للأبطال الخارقين في التحول الحديث للأحداث في "Civil War" و"The Initiative". أنا ممتن لمارك وايت لإقتراحه هذا المصدر.

2 - توماس هوبز، الليفياثان، ((New York: Penguin Books [1651] 1985 .xiii

3 - "نيتشه القابل للحمل" تحرير والتر كوفمان (New York: Penguin Press 1976)، الصفحة 161.

4 - لمعرفة المزيد عن نيتشه وفرانك ميلر، راجع كتاب بريغرين ديك "نيتشه ضد سوبرمان: دراسة لعمل فرانك ميلر"، المجلة الجنوب أفريقية للفلسفة 26، العدد 1، 2007، من الصفحة 98-106.

5 - روبيرتا ي. بيرسون ويليام أوريكيو "ملاحظات من كهف الوطواط: مقابلة مع دينيس أونيل" في كتاب قاموا بتحريره بعنوان "الحيوات العديدة لباتمان: مقاربات نقدية لبطل خارق وإعلامه" (New York: Routledge 1991)، الصفحة 19. للمزيد عن رفض باتمان للقتل، أقرأ الفصل الخاص بمارك د. وايت في هذا الكتاب.

6 - أود شكر روب آرب، ومارك وايت، ومايكل سباناكوس، وفوتيني للإقتراحات التي قدموها لصقل هذا الفصل.

6

وحشية الجوكر: هل يجوز تحميل الأمير المهرج مسؤولية أخلاقية؟

بقلم: كريستوفر روبيتشود

أضحك، تضحك لك الدنيا- أو هل سيفعل ذلك؟

الجوكر لا يلعب كل أوراقه. وهذا الأمر ليس بجديد بالطبع، على الأقل ليس بالنسبة للجوكر. وكما كان ينشد في The Killing Joke (1988) لآلان مور "لا تكن ها..ها..هادئاً، كن مجنوناً". ومن تسميم الأسماك على ميناء غوثام، الى لي وجوه العديد من الضحايا ليرسم عليها إبتسامة دائمة بهدف جعلهم نسخة من نفسه[1]، وصولاً لمحاولة إطلاق بعض الصواريخ داخل شموع في كعكة عيد ميلاد ضخمة في الطبقة العليا من سماء غوثام[2]، كانت مخططات الجوكر الجنونية تلك قد أكسبته زنزانة خاصة داخل مصحة آركام. وحيث لا يميز الجنون الجوكر بين أعداء باتمان الآخرين - إذ هنالك ذو الوجهين على سبيل المثال، والعديد من سلوكياته المجنونة، لكن تصرفاته شديدة الجنون كانت قد أكسبته تميزاً نسبياً ليكون المنافس الرئيسي لباتمان.

لو كان الامر محصوراً بالأسماك الضاحكة واحتفالات أعياد الميلاد المجنونة، فقد نستطيع ترك الجوكر لهواياته دون المزيد من التفكير فيما

يفعـل. ولكن نظرًا لأننا كعشـاق لمغامرات باتمان مدركـون تمامًا لكمية الألم الـذي يصاحـب أفعالـه، فإن أفعـال الجوكر غالبًا مـا تكون مروعـة بقدر ما هي سـخيفة. فبعد أعداد لا تحصى من الأرواح التي تم سـلبها بواسـطة غاز الضحك للجوكر، قام الجوكر بضرب جيسـون تود، التجسيد الثاني لروبن، حد الموت مستخدماً عتلة حديدية، وأمام والدته، ومن ثم تفجيره ليذهب به الى نقطـة اللاعودة، وهي الموت.[3] كما وأطلق النـار على باربرا غوردون، ابنة المفوض جيمس غوردون، ثم جردها من ملابسـها وصوّرها. وعندما قبض الجوكر على المفوض غوردون، قام بتجريد المفوض من ملابسـه، وإرساله في رحلـة ترفيهية في مدينة الألعـاب، حيث أجبره على رؤية صـور ابنته عارية، ومصابة بعيار ناري جعلها مشـلولة.[4] وهذا، وفقاً للجوكر، تم فقط لإثبات نقطـة أن كل مـا يتطلبه الأمر هو يوم سيء واحد فقـط ليصل الناس الطيبون بالعادة الى حافة الجنون.

لذلـك فالجوكـر لم يقم بأفعال إجراميـة فقط، ولكنه يقوم أيضاً بأشـياء فظيعـة لا يمكـن تصورها، أشـياء تصل لتكـون أقصى درجات الاشـمئزاز الأخلاقـي. ولكن كـم هو مقدار اللوم الأخلاقي الـذي يقع عليه؟ ربما كان ردنـا الأول هـو "هـل تمزحون معـي؟ إنه شريـر، مقيت، وهـو يمثل أقصى درجـات الإدانة الأخلاقيـة." ربما يكون هذا صحيـح، ولكن يجب علينا أن نذكـر أنفسـنا بالحقيقة التـي بدأنا بهـا: ألا وهي أن جوكر لا يلعـب حقًا كل أوراقـه. حيث هناك شـعور قـوي بيننا - ليس مشـتركًا عالميًا، ولكنه شـائعًا أيضًـا - أن الأشـخاص المجانين حقاً هم في كثير من الأحيان غير مسـؤولين أخلاقيـاً عـما يفعلـون، وبالتالي لا يسـتحقون اللـوم الأخلاقي عـلى أفعالهم السيئة. ربما إذن، لا يمكن اعتبار الجوكر مسؤول أخلاقياً عن أفعاله.

ولكـن لـو كان هـذا صحيحًا، فنحـن بحاجة إلى أن نسـأل لمـاذا. وهنا تدخل الفلسـفة الى الصورة. ففي ما يلي، سـنتفحص بعض الأمور التي على

الفلسفة أن تقولها حول هذه المسألة، بالنظر خصوصاً للضوء الذي يمكن أن يلقى على العلاقة بين الشخص الذي يتصرف بحرية، من ناحية، والشخص المسئول أخلاقياً عن ما يفعله من ناحية أخرى. وسنركز على هذا الأمر لأنه يبدو من الصحيح القول إن الشخص مسؤول أخلاقياً فقط عن تلك الأعمال التي يقوم بها بحرية. لذلك إذا أردنا أن نخلص إلى أن الجوكر غيرمسؤول أخلاقياً عن أفعاله، فسوف نحتاج إلى القول بأن حالته العقلية لا تسمح له بحرية القيام بالأمور الشريرة التي يفعلها. هيا بنا نذهب ونحقق حول ذلك الأمر!

طرد بعض الوطاويط من برج الحراسة

يجب أن توضح أي ممارسة فلسفية جيدة الافتراضات الأساسية ذات الصلة التي يتم إجراؤها، ويجب أن توضح الفروق الهامة التي ستساعد في استكشاف الموضوع قيد المناقشة. سنبدأ إذن بتبني الافتراض الأكثر وضوحًا في تحقيقنا، وهو أن الجوكر مجنون حقًا.

من المسلم به أن القضايا المحيطة بالجنون معقدة ومتعددة الأوجه، وغالباً ما تقع ضمن مجالات علم النفس والطب النفسي أكثر من كونها ضمن الفلسفة. وعلى الرغم من ذلك، قدم بعض الفلاسفة، مثل ميشيل فوكو (1926 – 1984)، مساهمات مثيرة للاهتمام للغاية في هذا المجال من خلال الكشف عن كيفية تهميش مجموعات من الأشخاص من خلال وصمهم بالجنون.[5] بقدر ما يمكن اعتبار مناقشات فوكو ممتعة إلا أنها للأسف، دفعت بعض الناس إلى التساؤل عما إذا كان الجنون موجودا بالفعل. نحن لن نذهب إلى هذا الحد، بل سنقر بوجود عدة أنواع من الإعتلالات العقلية التي تبرر بشكل صحيح تصنيف الأشخاص الذين يعانون منها كمجانين. وسوف

نفترض كذلك أن الجوكر يعاني من واحدة أو أكثر من هذه الإعتلالات العقلية، مما يسمح لنا بالإشارة إليه بدقة على أنه مجنون.

ولكن قبل الانتقال كليًا من هذا الموضوع، فمن الجدير الدفاع عن هذا الموقف ضد الاعتراضات التي تقول بأنه موقف متطرف أو لا أساس له. يمكننا أن نتفق على أننا غالبًا ما نطلق على أشخاص بأنهم مجانين عندما نجد سلوكهم غريبًا، دون أن يعني ذلك أنهم يعانون بالفعل من بعض الإعتلالات العقلية الخطيرة. وهذا ليس هو الحال مع الجوكر. فمن المؤكد بأنه غالبًا ما يفعل أشياء غريبة، ولا شك في ذلك - دعونا نواجه الأمر - حيث أن رسم إبتسامة على شفاه جميع الأسماك في الميناء يعتبر عملاً غريباً، لكنه يعرض أيضًا بعض السمات المميزة لإضطرابات حقيقية. وأحد الأمثلة هي موقفه تجاه الناس: ببساطة، فهو غالباً ما يعاملهم كأشياء وليس كأشخاص. فلم تطرف عين الجوكر عند إطلاق النار على باربرا غوردون في عمودها الفقري وتجريدها من ملابسها. هو لم يكن يريد قتلها أو إغتصابها. ولكنه، ببساطة، كان قد قرر بأنه يريد أن يثبت نقطة ما، وكانت باربرا بالنسبة له شيئًا مفيدًا لمساعدته في إيصال هذه النقطة، ليست أكثر أو أقل أهمية إليه من الرحلة المهينة لوالدها في مدينة الألعاب والذي إستخدمه لنفس الغرض.

وهذا سلوك مضطرب عقلي كلاسيكي.

يفتقر الجوكر كذلك الى الشعور السليم بحماية الذات. ففي فيلم Batman Superman (1998)، كانت هناك لحظة مميزة عندما يكون ليكس لوثر و الجوكر على متن الطائرة معاً، يحاولان يائسين الهروب من قبضة باتمان وسوبرمان. يُفتح صندوق، وتتدحرج منه متفجرات نحو ليكس و الجوكر موشكة على الإنفجار. يصرخ لوثر في حالة من الفزع ويحاول الفرار. بينما يبدأ الجوكر بالضحك ببساطة دون أي اهتمام لحياته. إن لم تكن هذه الأمثلة كافية، فربما احسن آلفريد بينوورث وصف الوضع

في فيلم The Dark Knight لعام 2008 عندما يقول عن الجوكر: "بعض الرجال لا يبحثون عن أي شيء منطقي. فلا يمكن شراؤهم أو تخويفهم أو التعامل معهم بمنطقية أو التفاوض معهم. بعض الرجال يريدون فقط مشاهدة العالم يحترق". إن من الواضح أن الجوكر مجنون.

نحتاج بعد ذلك لمناقشة اختلاف مهم سيساعدنا في تجنب الارتباك لاحقًا، وهو الفرق بين المسؤولية السببية والمسؤولية الأخلاقية. فعندما ننظر إلى المسؤولية السببية، نسأل ببساطة ما إذا كان تصرف الشخص هو سبب حدث معين. افترض أن الجوكر يسمم ضحية غافلة بغاز الضحك، مما يسفر عن مقتلها. هل سيكون الجوكر حينها مسؤولاً عن وفاتها؟ بالتأكيد، فمن الواضح أن تسميمها بالغاز - هذا الفعل - كان بوضوح جزءًا من سلسلة من الأحداث التي أدت إلى موتها. وتتعلق المسؤولية الأخلاقية بالثناء الأخلاقي أو اللوم المرتبط بفعل ما. لنفترض، وبتبسيط شديد، أن الشخص مسؤول أخلاقياً عن أي فعل فقط إذا كان يعتبر هو ذاته موضوعا ملائما للثناء أو اللوم الأخلاقي على هذا الفعل.

الآن ومع معرفتنا بهذه الأفكار، قد نميل إلى الاستنتاج بأننا قد قمنا بالفعل بتقليص مواقفنا: إذ لو منحنا الجوكر المسؤولية السببية عن أشياء مثل تسميم الناس، فإن ذلك سيكون متبوعاً بكونه مسؤولا أخلاقياً عن تلك الأفعال. لكن لا يمكن أن يتبع بذلك، ويمكننا أن نذكر حالات أقل إثارة للجدل لمعرفة السبب. لنفترض أن باتمان قاد سيارته الباتموبيل متوجهاً إلى المدينة، والنيران المنطلقة من خلفها كانت قد أزعجت الوطاويط في كهفه. تنطلق الوطاويط في ظلمة الليل وتشتت سائقاً على طريق ريفي مجاور، لينحرف ويقود سيارته نحو خندق ما. سيبدو صحيحًا أن باتمان مسؤول بشكل سلبي عن سقوط السائق في الخندق - حيث أن بدء تشغيل الباتموبيل هو جزء من سلسلة الأحداث التي أدت إلى انحراف السائق - ولكن لا

يبدو صحيحًا الإدعاء بأن باتمان مسؤول أخلاقياً عن حادث السائق. حيث أنه ببساطة لم يكن يستطيع أن يتوقع بشكل معقول تسلسل الأحداث التي تلت ذلك. لذا فإن مسؤولية الشخص عن شيء ما لا تجعل ذلك الشخص مسؤولًا أخلاقياً عن ذلك بشكل تلقائي. وهذا يفتح الباب أمام إمكانية أن يكون الجوكر، رغم أنه مسؤول بشكل واضح من الناحية السببية عن أفعاله الشريرة، أن لا يكون دائمًا مسؤولًا أخلاقياً عنها.

وضع بطاقة أخرى على الطاولة (لا تقلق، إنها ليست بطاقة الجوكر)

هناك افتراض مهم آخر للدفاع عنه، وهو أن الناس العاديين مثلنا يتصرفون في الواقع بحرية. المشكلة هي أنه إذا لم يكن هذا صحيحًا - أي إذا لم توجد هنالك لدى أحدنا إرادة حرة - بذلك لن يكون أحد مسؤولاً أخلاقياً عما يفعله. وإذا كانت هذه هي المسألة، فإنه من غير المجدي التركيز على هذه القضايا من حيث صلتها بالجوكر، نظرًا لأنه في نفس المركب الذي يوجد فيه الجميع.

ربما سيكون من الطبيعي أن نفكر بالسؤال "ولكن ما الذي يدفعنا إلى الاعتقاد بأننا لا نتصرف بحرية مطلقة؟" من المؤكد أن مثل هذا الادعاء يتعارض مع طريقة تفكيرنا وشعورنا العادية! فالطريقة التي تبدو بها الأمور من الداخل عندما نقرر ما علينا فعله هو أننا نواجه خيارات مشروعة طوال الوقت وأن نختار بينها بحرية. لماذا نعتقد أن معتقداتنا ومشاعرنا غير صحيحة تماماً في هذه المسألة؟

الإجابة تكمن في الحتمية: الرأي القائل بأنه في أي لحظة من الزمن، تكون حالة العالم في ذلك الوقت ثابتة تمامًا أو محتومة من قبل الحالات السابقة في العالم (جنباً لجنب مع قوانين الطبيعة التي تدير المشهد كله). وهذا الرأي

جذاب لأسباب عديدة، فأحدها أنه يبدو وكأنه يتوافق مع فهم علمي ناضج للعـالم. فإذا كانت الحتمية صحيحة، فنحن لسـنا أكثر من مجرد نتاج أحداث بدأت قبل وقت طويل من دخولنا إلى المشهد. وبمواجهة الخيارات الظاهرة، فقد حدد بالفعل مسـار الطريق الذي سـنتبعه. إن هذا لا يترك مساحة كبيرة للإرادة الحرة.

احدى الطرق للرد على هذه المسألة المقلقة، بالطبع، هي رفض الحتمية. هذا هو النهج الذي يسلكه بعض الفلاسفة لحسن الحظ، وفي بعض الأحيان يـبررون موقفهـم عـلى أسـس علمية، مـن خـلال الاستشـهاد بالحقائق عن العشـوائية التـي تعتبر مـن أساسـيات ميكانيكا الكـم كسـبب للاعتقاد بأن الماضي لا يحدد المستقبل بشكل كامل. أو في بعض الأحيان، يجادلون ببساطة بأن الحتمية تشجع على الشغب، وهذا مبرر كافي لرفضنا لها.

غـير أن آخرين يجادلـون بأن فكرة الحتميـة لا تتوافق مع فكـرة الإرادة الحـرة. ولنفكـر في مثـال يسـتند إلى ورقة مشـهورة كتبها الفيلسـوف هاري فرانكفورت (مواليد 1929).[6] إذ لنفترض أن الجوكر قد رصد مبلغاً ضخماً مـن المال لبناء آلـة غريبة تتعقب تحركات باتمان، والأكثر إثارة من ذلك، تتبع أفـكاره. وعـلاوة على ذلك، فهي قـادرة على "التحكم" في مـا يفعله باتمان. يتمثل الهدف النهائي للجوكر في استخدام هذه الآلة لإجبار باتمان على القيام بأشياء فظيعة، ولكن في الوقت الحاضر، هو يريد فقط تطهير غوثام من جميع الأشرار الخارقـين الآخريـن. لذا لنفـترض الآن أن الآلة تتعقـب باتمان بينما يواجـه إيفي السـامة Poison Ivy، والوضع هو أن قطعـة الوطواط المعدنية Batarang (السـلاح المعـدني الذي يسـتخدمه باتمان غالبـاً في رميه لتجريد أعدائه من أسـلحتهم أو على رؤوسـهم لإفقادهم الوعي) مرمية بشكل جيد كفاية لتساعد باتمان على القبض على إيفي.

هنـاك تبدأ الأمور تصبح مثيرة للاهتـمام. إذا اختار باتمان إلقاء الباترينغ

- إذا اتخذ هذا القرار العقلي - فإن آلة جوكر لن توقفه عن طريق إرسال الأشعة العقلية المناسبة (أو أياً كان) لعرقلة مسار العمل (لأن الجوكر يريد إيفي أن تكون خارج حساباته). ولكن إذا اختار باتمان - لأي سبب كان - أن لا يرمي سلاحه، فإن الآلة تتدخل وترغمه على القيام بذلك. دعونا نفترض أن باتمان سيختار رمي سلاحه ومن ثم سيفعل ذلك. وكنا نعتقد عادة أنه عند قيامه بذلك، فإن باتمان كان ذا إرادة حرة - فقد اتخذ خيارًا حرًا وتصرف وفقًا لذلك - على الرغم من أنه لم يكن لديه أي خيار سوى المراهنة برمي سلاحه. وبعبارة أخرى، فإن ما فعله في هذه الحالة قد كان حتمياً بالفعل بتحديده من قبل آلة الجوكر.

لذا، حتى إذا كانت الحتمية حقيقية، وما نفعله يتم تحديده من خلال الأحداث السابقة وقوانين الطبيعة، فلا يزال هناك مجال لممارسة الإرادة الحرة. وطالما أن هناك مجال لممارسة الإرادة الحرة، فهنالك مجال للمسؤولية الأخلاقية. بالطبع، هناك الكثير مما يمكن قوله رداً على هذا المنطق. هذا مجرد أحد الأمور المقلقة: يبدو أن التقييم الأخلاقي سيواجه مشكلة معرفية معينة، وهي مشكلة تتعلق بما إذا كان بإمكاننا أن نعرف بشكل مطلق ما اذا كان اللوم أم الثناء هو ما يمكن أن نعزوه لشخص ما. ولمعرفة السبب، دعونا نلتزم بالمثال الموضح أعلاه. لكي نعرف بأن باتمان يستحق الثناء على تصرفاته، لأنه ببساطة لا يمكننا رؤية غير ما فعله، لأنه قد تم تقريره بالفعل؛ حيث أنه كان سيفعل ذلك بغض النظر عما إذا كان ينوي أم لا. حيث يجب أن ندخل داخل رأسه في ذلك الوقت، وأن نرى خياره. أما آلات الجوكر المجنونة والتي تدخل الى عقول الناس هي ليست أسهل الأشياء التي بالإمكان فعلها. لذا قد نشعر بالقلق من أن الإرادة الحرة والمسؤولية الأخلاقية التي تأتي معها لن يتم توفيرها إلا بتكلفة جعلنا من المستحيل عملياً أن ننسب الثناء أو اللوم على القائم بالفعل، وهذه التكلفة مرتفعة للغاية.

وهنالك ردود على هذا القلق أيضاً، ولكن يجب أن تمضي قدماً. لنفترض إذن أننا نمتلك إرادة حرة وقادرين على ممارستها، سواء كانت تلك الممارسة متوافقة مع الحتمية أم لا. نحن ننتقل الآن إلى مسألة ما إذا كان هناك خطأ ما في الجوكر على وجه الخصوص والذي يمنعه من ممارسة الإرادة الحرة، وعلى هذا النحو، ما إذا كان هذا يعفيه من المسؤولية الأخلاقية عن أفعاله.

أخذ قرار بعد التفكير مطولاً: تلاشي الحرية

لقد تحدثنا بشكل فضفاض عن ممارسة إرادتنا الحرة فيما يتعلق بالاختيارات. لكن من الواضح أن هناك المزيد من المؤثرات المتدخلة في أداء سير الأحداث بحرية من ذلك. يعتقد العديد من الفلاسفة أن ممارسة الإرادة الحرة - والمسؤولية الأخلاقية التي تأتي منها - تنطوي بشكل حاسم على قدرة الشخص على التفكير في ما يحفزه ثم استخدام هذه القدرة في تغيير دوافعه، في بعض الأحيان على الأقل. والفكرة الأساسية التي تبناها هاري فرانكفورت بأشكال مختلفة هي أن أحد الأشياء التي تميزنا عن الحيوانات الأخرى هي قدرتنا على تشكيل الرغبات حول رغباتنا: الرغبات الثانوية. [7] يمكننا أن نتخذ موقفًا من رغباتنا الأولية - الرغبات التي تدفع الحيوانات الأخرى بشكل مباشر إلى العمل والتصرف - وبهذا المعنى، فإننا لسنا مأخوذين برغباتنا كما كنّا سابقاً. حيث تتكون إرادتنا الحرة من قدرتنا على تشكيل رغبات حول رغباتنا الأولية، والتفكير بشأنها ملياً وتقييمها، وتغيير دوافعنا وفقًا لذلك.

فعلى سبيل المثال، قد يجد باتمان نفسه مستنفذاً تمامًا في إحدى الأمسيات بعد أن أمضى العديد من الليالي وهو يلاحق الجوكر، حيث يملك رغبة أولية قوية في البقاء في السرير والنوم بدلاً من مواصلة متابعة عدوه. لكن باتمان لديه الرغبة أيضاً في تحقيق العدالة لغوثام، وهذه أيضاً رغبة أولية (رغم أنها

أكثـر تجريديـة). ولنفترض أنك تقدر قيمة تحقيق العدالة بشـدة، ولكن ليس بنفس قوة الرغبة الأولية في البقاء في السرير. ما يجعل باتمان حراً، كما سيعتقد كل شـخص الآن، هـو قدرته على إدراك هاتين الرغبتين في نفسـه وتشـكيل رغبـة ثانويـة والتي ترقى إلى حد ما برغبته في تحقيق العدالة أكثر من رغبته في البقاء في السرير.

هـذا مخطـط تقريبي عن كيفيـة عمـل الإرادة الحرة وهو قابـل للجدل. ولكنه كافٍ لمسـاعدتنا في تفسـير سـبب اعتقادنا بأن بعض الأشـخاص "لا يتحكمون" في بعض المسائل، وهذا هو السبب في اعتقادنا بأنهم غير قادرين على ممارسـة الإرادة الحرة. الأمثلة الكلاسـيكية تشمل المدمنين. ونحن كثيراً ما نتحدث كما لو أن الأشـخاص المدمنين على الهيروين، على سـبيل المثال، لا يمارسون تماماً إرادتهم الحرة عندما يستمرون في تعاطي المخدرات لمدة طويلة وهم مدركين تماماً بأنهم يدمرون حياتهم. الفكرة، بناءً على ما رسمناه أعلاه، هـي أن إدمـان المخدرات قد أعـاق قدرتهم على تكوين رغبـات ثانوية حول رغباتهم. وبعبارة أخرى، فإن أحد تأثيرات المخدرات هو أنه بمجرد تعاطيها لا يمكـن أن تتفوق رغبة ثانوية يمكن تشـكيلها مبنية على إدراكهم للحفاظ على صحتهم على رغبتهم الأولية في تعاطي المخدرات.

ولكـن إذا كان هـؤلاء المدمنون غـير قادرين على ممارسـة إرادتهم الحرة عندما يتعلق الأمر بالقرارات المسـتقبلية باستهلاك المخدرات، فهل يجب أن نسـتنتج أنهم ليسوا مسـؤولين أخلاقياً عن هذه الأعمال المستقبلية؟ ببساطة، لا، وهذا لأنه، على الأقل في كثير من الحالات، من المعقول أن نفترض أنه تم اتخاذ خيار حر لبدء تناول المخدرات في المقام الأول. وقبل أن يختار شـخص مـا بدء تعاطي الهيروين، فإنه كان يمتلـك الرغبة على ترتيب رغباته الأولية. إن امتـلاك تلـك القـدرة يعني أن قراره بعـدم ترتيب رغبتـه في البقاء بصحة جيـدة فوق رغبته بالإنتشـاء هو قرار اتخـذ بحرية. إنه مسـؤول أخلاقياً عن

الفعـل الذي تلا ذلـك، وأن المسـؤولية الأخلاقية تبقى محمولـة مع الأفعال المستقبلية التي فقد الحرية في إختيارها.

ومـع ذلك، قد يبدو مثـل هذا المنطق من التفكير أنـه يفتح الباب أمامنا لاسـتنتاج أن الجوكر مسـؤول أخلاقياً عن أفعاله. لنفترض أن جنونه الحالي يفهم بشكل أفضل على أنه عدم القدرة على تشكيل رغبات ثانوية لقمع ميوله الإجراميـة الأولية. لذلـك يمكننا أن نتفق على أنه بمجـرد أن يصبح مجنوناً، فـإن جميع الأفعال اللاحقة التي سـيقوم بهـا الجوكر لن يتـم تنفيذها بحرية. ولكـن وفقـاً لواحدة مـن القصص على الأقـل (مـن The Killing Joke)، كان الجوكـر في البدايـة زوج وأب اختار الدخـول الى عالم الجريمة من الباب الصغير - بصفته The Red Hood القلنسوة الحمراء - للمساعدة في تغطية نفقـات عائلته. ثـم أدت المواجهة مع باتمـان إلى إغراقه في وعـاء مليء بالمواد الكيميائيـة، ليحترق وجهه بتلك الصورة البشـعة ويتحول الى هذا الشـكل. وهـذا ما وضعه على الهاوية (حرفياً). ولكنه دخل حياة الجريمة بحرية، وإذا كان الأمر كذلك، فيبدو أن المسـؤولية الأخلاقية عن هذا الخيار قد حملته إلى أفعاله الحالية، بالنظر إلى أن اختياره الحر دفعه إلى حيث فعل.

ولكن الأمر لا ينتهي بهذه السرعة. إذ اننا نحتاج لأن نوضح بالتفصيل لماذا نعتقد أن مدمن الهيروين مسؤول أخلاقياً عن تصرفاته المستقبلية المتعلقة بالمخـدرات والتـي لم يقـم بهـا بحرية. وجزء مـن هذه القصة، كـما يبدو من الصـواب أن نقول، هو أننا نعتقد أن اختيـاره الأولي لتناول المخدرات لم يتم بمحـض حريته فقط، بل كان يتم بإدراك كامل بالنتائج المحتملة لهذا القرار. حيث ومع كل الإرشـاد الصحي الموجود حولنا، سـيكون من الصعب جداً عـلى شـخص ما البقـاء جاهـلاً بالآثـار السـلبية لتعاطي المخـدرات، حيث هنالـك الكثير من الحصـص التدريسـية والروايات والأفـلام التي تبين كل ذلـك. ولكـن يجب علينـا اختبـار بداهتنا للعدالـة: إذا كان مدمـن الهيروين

يجهل حقاً تأثيرات الهيروين ويختار بحرية أن يأخذه، هل سنكون راغبين في تحميله مسؤولية أخلاقية عن ذلك وعن الإجراءات المستقبلية؟ لا أعتقد أننا سنفعل.

إذا كان هذا صحيحًا، فنحن بحاجة إلى أن نسأل ما إذا كان الجوكر قد تصرف بجهل عند قبوله العمل كـ Red Hood. وهنا يبدو من الصحيح القول إنه على الرغم من أنه كان بالتأكيد متبيناً من العديد من الأخطار والتداعيات المترتبة على أفعاله، فإنه لن يكون من المعقول أن نتوقع منه أن يتنبأ أن تقمصه لشخصية Red Hood سيحوله إلى مضطرب مهووس بالشر. لاحظ بأن هذا سيكون صحيحاً أيضاً لو كان من الممكن له أن يتنبأ بطريقة أو بأخرى بأنه سيغطس في كمية من المواد الكيميائية الخطيرة، كان عليه أيضاً أن يعرف الكثير عن نوعية تلك المواد الكيميائية والضرر النفسي الذي من الممكن أن يصاب به عند السقوط فيه. فبعد كل شيء، لو أننا اتخذنا خيارات مماثلة وحدث نفس الشيء لنا، سيبدو من غير المحتمل بأننا سنصبح الجوكر. ولسوء حظ باتمان ومواطني غوثام، فإن الظروف التي أدت إلى "ولادته" كانت بإحتمالية واحد الى مليون.

من الذي ضحك أخيراً؟

وبوضع هذا الإعتراض جانباً، يمكننا الدفاع عن اعتقادنا بأن شخصًا مجنونًا مثل الجوكر ليس مسؤولًا أخلاقياً عن أفعاله. والفكرة الأساسية هي أن الجوكر ليس مسؤولًا أخلاقياً لأنه لا يقوم بأفعاله بحرية مطلقة. فلقد عرقل جنونه قدرته على تشكيل رغبات ثانوية تقيد رغباته الأولية، وهي رغبات تتضمن دوافع مجنونة للغاية.

نستطيع القول الآن بأننا قد توصلنا الى توافق نهائي حول هذه المسألة.

إذ أن الجوكر مجنون، ولأنه مجنون، فجنونه يثبط إرادته الحرة، ويعفيه من أي مسؤولية أخلاقية عن أفعاله. وهذا تحليل مرضي، ولكن كما هو الحال في الغالب، فإن تحقيقاتنا الفلسفية قد حلت بعض القضايا فقط لإفساح المجال أمام قضايا أخرى لتطفو إلى السطح. فنظرًا لجنون الجوكر، لا تزال هناك أسئلة مهمة تحيط بماهية التزامات باتمان ومدينة غوثام تجاه الجوكر. ولا توجد إجابات أخلاقية سهلة لمسألة كيفية التعامل مع شخص مجنون حقاً يقوم بأكثر الأفعال شراً. هل الحل هو بالتعاطف معه؟ بكرهه؟ أو إعادة تأهيله؟ أو تركه يموت إذا أتيحت الفرصة لذلك؟ الجوكر هو عدو باتمان ليس فقط بسبب ما يفعله، بل وبسبب ما هو عليه. وإذا كان أمير الجريمة المهرج قادرًا على التسلي بهذه الأفكار، فلا شك أنه سيجدها مضحكة جدًا.



هوامش الفصل السادس:

1- العدد #475 من Detective Comics (فبراير 1978).

2- العدد #321 من Batman (مارس 1980).

3- قصة A Death in the Family عام 1988.

4- قصة The Killing Joke عام 1988.

5- أقرأ كتاب مايكل فوكولت "الجنون والحضارة" (New York: Vintage Books 1988).

6- أقرأ "الإحتمالات البديلة والمسؤوليات الأخلاقية لهاري فرانكفورت"، مجلة الفلسفة المجلد 66، العدد 23 (1969): الصفحات 829-839. هذا المقال متاح أيضاً في مجموعة فرانكفورت "أهمية ما نهتم بشأنه" (Cambridge: Cambridge Univ. Press 1988).

7- أقرأ "حرية الإرادة ومفهوم الشخص" لفرانكفورت، مجلة الفلسفة المجلد 68، العدد 1 (1971): الصفحات 5-20، وأعيدت طباعتها أيضاً في "أهمية ما نهتم بشأنه".

الباب الثالث

الأصول والأخلاقيات:

أن تصبح باتمان The Caped Crusader

7

وعد باتمان

بقلم: راندال م. جينسن

«الماضي لا يموت أبداً، فهو لم يمضي حتى».

- ويليام فولكنر

بداية باتمان

من أين يأتي الأبطال الخارقون؟ ومن أين يحصلون على قواهم؟ ما الذي يدفع شخصا ما لكي يتبنى شخصية مقنعة محاربة للجريمة، مدافعاً عن كل ما هو جيد؟ من يقرر مغادرة المنزل وهو يرتدي لباسا ضيقا وعباءة وقناعا؟

إن كل ملحمة بطل خارق تشتمل على قصة تتناول أصوله، ومثل هذه القصص قوية ولا يمكن نسيانها، وتقترب من أن تكون أساطير حقيقية.

عـادة ما تحتوي قصـص الأصول أحداثـا مذهلـة ورائعة: كطفـرات جينية، أو حـوادث مخبريـة غريبة، أو لقاء مع الفضائيين، أو التعامل مع الشـيطان، وما إلى ذلـك. لكن بدايات باتمـان مختلفة. حيث أن المحفز الحاسـم كان سرقة في زقاق مظلم أنتهت بشـكل سيء، إذ أنها كانت حادثة مأسـاوية إعتيادية. أما بقية قصة نشـأة باتمان فمبنية على وعد صبي غني ومتهور على ما يبدو لأبويه القتيلين بأنه سيطهر مدينة غوثام من الجريمة.

من المرجح أن يذكّر مقتل توماس ومارثا واين، الذي كان بالإمكان تجنبه، محبي القصص المصورة بالعناصر المأسـاوية في قصـص أخرى لأبطال خارقين. فعـلى سـبيل المثال، يتحول بيتر باركـر الجار الودود الى سـبايدرمان إلى حد كبير بسـبب الظـروف المحيطـة بقتل عمه بـين، ويتحـول فرانك كاسـل إلى المعاقب بسـبب إعـدام زوجتـه وأولاده. ما هو مميّـز في قصة أصل باتمان هو أن السـبب يسـبق الطريقة. فعندما قُتل العم بين، كانت لدغة العنكبوت المشـعة قد أعطت بالفعـل قدراتهـا المذهلة لبيتر. وبالمثل، فإن كاسـل كان جندياً متخصصاً قبل أن يعدم المجرمون عائلته. لكن بروس كان مجرد صبي وقت وفاة والديه. ليس لديه سـبب للاعتقاد بأنه يسـتطيع أن يفعل ما كان يعد بالقيام به. حيث لا يكتسـب بروس واين قوى خارقة ليكتشـف لاحقًا كيفية اسـتخدامها. لا، فهو يكتسـب نـداءاً داخلياً، ومن ثم تكون له حاجة ماسـة الى قـدرات غير إعتيادية لتلبية هذا النـداء. ومن خلال جهوده الهائلة (وبمسـاعدة الإمبراطوريـة المالية الهائلة التي ورثها بالطبع!) يحول نفسه الى باتمان ليتمكن من الحفاظ على الوعد الذي قطعه.

إذ عـلى عكس العديد مـن الأبطال الآخرين، لا يصبح بـروس واين بطلًا خارقًـا عن طريـق الصدفة، ولكن من خـلال قوة الإرادة. وعـلى الرغم من أن أعظـم المـآسي لا تنتهـي الى تحويـل الأطفـال لأبطـال خارقـين، إلّا أن العنصر الرئيسي في أصول باتمان هو ليس قتل الأم والأب، بل الوعد الاسـتثنائي لذلك الصبي الصغير.

طبيعة الوعد:

في نسخة بوب كين وفيل بيل فينجر عام 1939 من قصة أصل باتمان Batman Beguns، فأنه و بعد أيام فقط من مقتل والديه، يؤدي بروس واين قسماً أمامهما قائلاً: "أقسم بأرواح والديّ على الانتقام لموتهم بقضاء بقية أيام حياتي في محاربة كل المجرمين"[1] وفي أحد النسخ الحديثة، النسخة الكلاسيكية لجيف لوب وتيم سيل The Long Halloween (1998)، يستذكر باتمان وعد الصبا حيث يقول: "وعدت والدي بتخليص المدينة من الشر الذي قضى على حياتهم". في الواقع، يلعب هذا الوعد دورًا بارزًا جدًا في إسهامات لوب المختلفة في تاريخ باتمان، والذي يظهر في Hunter Night (1996)، Dark Victory (2001، تتمة لـThe Long Halloween)، Hush (2003)، وحديثاً في ظهوره في العنوان الشهير Batman /Superman (2003-2005). حيث بالنسبة للوب، يبدو أن هذا الوعد هو اللحظة الفاصلة في حياة باتمان. إذن، ما هو نوع الوعد؟ وما الذي دفع بروس لقطعه؟ ولماذا يكون له دور دائم في قصة أصول باتمان؟

أحد الإجابات الواضحة هي أن هذا الوعد هو تعبير عن الرغبة في الانتقام. وبالفعل، ففي نسخته المبكرة يتحدث بروس عن "الانتقام" لوفاة والديه. ولكن من الأهمية بمكان أن ندرك أنه لا يسعى للانتقام بمفهومه البسيط؛ حيث أن بروس لا يعد والديه بأنه سيقتل الرجل الذي قتلهم. فمن الواضح بأنه وحسب أي من تفسيري الوعد، فأنه يقوم بمهمة أكبر بكثير من تلك، وهي اما الحرب على جميع المجرمين او تخليص غوثام من الشر! وعلاوة على ذلك، ففي الجزء الأول من Justice (2006)، يخبرنا باتمان بأنه: "عندما كنت صبياً، قُتل أبي وأمي أمام عيني. لقد كرست حياتي لوقف ذلك المجرم، بغض النظر عن كل الأشكال أو الوجوه المختلفة التي يرتديها. فالشكل لم يعد يهم بعد كل شيء".

وفي معظم مسارات قصصه، لم يقم باتمان أبداً بإحضار هذا القاتل مجهول الشكل والهوية إلى العدالة. ولكن هوليوود هي الاستثناء المؤسف هنا. إذ في فيلم "Batman Begins" الذي أخرجه كريستوفر نولان عام 2005، حيث يظهر بروس مجرد شاب غاضب عاد للتو من الكلية، يخطط لقتل قاتل والديه عندما يُفرج عنه بشكل غير متوقع من السجن، ليُحبط لاحقًا لأن شخصًا آخر يصل الى هناك أولاً. في الحقيقة، سيدرك لاحقاً أن مهمته هي أكثر من مجرد أخذ حقه الشخصي، ولكن في القصص المصورة، يبدو أنه كان يعلم كل ذلك منذ كان صبياً. ومما زاد الطين بلة، في فيلم تيم بيرتون «Batman» "Tim Burton 1989، يصور الفلم شخصية جاك نابير Jack Napier– الرجل الذي سيصبح جوكر - بأنه هو الرجل الذي قتل والدي بروس. حيث سيروي الفلم رؤية بروس لوالديه وهما يقتلان، ومن ثم وبشخصية باتمان يشاهد قاتلهما يموت. ولكن هذا في الأفلام فقط، حيث لا نجد مثل تلك الحلول الأنيقة والمرتبة في أي مكان آخر في عالم باتمان، فهذه ليست قصة انتقام بسيطة.

ومع ذلك، فمن الخطأ الفادح أيضًا أن ننكر أن الانتقام - أو ربما الرغبة في الانتقام - قد لعب دورًا مهمًا في دافع باتمان. فالإقتصاص لا يشبه الإنتقام، فمن الصعب جداً توضيح الاختلافات بينهما. وأهم ما في تلك الاختلافات هو أن الإقتصاص ليس شخصياً ويهتم أكثر بحصول كل شخص على ما يستحق بالضبط.[2] في قصة لوب Superman /Batman: Public Enemies (2005)، عندما يكشف باتمان عمّا يشبه بعض الأدلة التي تشير إلى هوية قاتل والديه، يقول: "لا شيء يزعجني أكثر من عدم معرفة من قتل والدي". لكنه يعقد الأمور سريعاً عندما يضيف بأن "قضية قتلهم غير المحلولة قد غيرت غوثام". لم يركز باتمان على خسارته الشخصية فقط. نعم، لديه اهتمام شديد بتسليم قاتل والديه إلى العدالة، ولكن النقطة الأساسية

هـي أنه أبعـد من أن يفكـر بمجرد إنتقامه الشـخصي. إذ في وقـت مبكر من القصـة، يقول سـوبرمان: "لقد عرفت بروس منذ سـنوات، لا أسـتطيع أن أقـرر مـا إذا كان البطل الذي فيه هو ما يحركه - والذي أحترمه بشـدّة. . . أم الجانـب المظلم الذي وضعه الألم في طريقه - في محاولة يائسـة للتعويض عن قتل والديه، وهذا الجانب أنا لا أحترمه".

ومـع ذلـك، لا يبـدو أن هناك أي سـبب وجيـه للاعتقاد بـأن هذه هي الدوافـع المحتملـة الوحيـدة لباتمـان. لماذا يجـب أن نتخذ هذا الخيـار؟ ولماذا يجب أن نتبنى مفهوم سـوبرمان البسـيط حول ما هـو البطل؟ لماذا لا نعترف بـأن باتمان شـخصية معقدة للغايـة وقد تكون دوافعها عديـدة وربما يصعب التعـرف عليها في بعض الأحيان؟ خاصة بالنظر إلى عدد الأشـخاص الذين كتبوا خطوطها! لماذا لا نسمح لأبطالنا بأن يكونوا بشرًا ولا يفهمون أنفسهم دائمًا، وغالبًا ما لا يفهمهم الآخرون؟

بالإضافـة إلى الرغبة في الاقتصاص، ما هي الدوافع الأخرى التي تقود وعد بـروس ونضاله طوال حياته من أجل تحقيق ذلك؟ في قصة Haunted Knight، يتذكـر باتمان أن والده كان يُسـتدعى من فراشـه في منتصف الليل للمسـاعدة في بعض الطوارئ الطبية، ويسـأل نفسـه، جاثماً على السطح مثل غارغويـل (حيوان أسـطوري كثيراً ما يتم تصويـره كمنحوتات وتماثيل على الجـدران الخارجية لكنائس القرون الوسـطى "المترجم")، "هل هذا سـبب وجـودي هنـا؟"، وهذا ليس الوقت الوحيد الذي يفكـر فيه باتمان بدوره في غوثام بنحو مشـابه لدور أبيه كطبيب. يلمح Batman Begins أيضاً إلى أن بـروس يريد أن يسـير على خطـى والديه، وهـذه المرة بصفته المسـؤول المالي عن مدينة غوثام. إذ في مشـهد محوري، قبـل أن يقرر بروس أن يصبح باتمان تناشـده راتشـيل داوس قائلة: "النـاس الطيبون مثل والديـك والذين كانوا سـيقفون ضد الظلم قد رحلوا. ما هي خيارات غوثام عندما لا يفعل الناس

الطيبون شيئًا؟"، ولكن بينما حارب والداه الطيبان الجريمة اقتصاديًا من خلال تحسين البنية التحتية لغوثام، فإن باتمان نقل هذه المعركة إلى الشوارع. وهذا يشير إلى أن بروس لا يريد فقط أن يعوض موتهم، ولكن أيضاً لإعطاء معنى لحياتهم من خلال التأكد من أن إرثهم لم يمت معهم. وإذا كان هذا صحيحًا، فإن باتمان لا يحاول فقط هزيمة قوى غوثام الشريرة وتدميرها، ولكنه يحاول بناء شيء ما أيضًا، وهذا الهدف البنّاء يميزه بشكل كبير عن شخص مثل The Punisher المعاقب أو شخصية Rorschach رورشاخ في Watchmen.

وعلى المستوى النفسي، فمن المحتمل أن يساعد وعد بروس اليائس في إعطاء الوحدة والشكل لحياة تحطمت لأشلاء. كما يلاحظ آلفريد في بداية Hush الصمت قائلاً:

"لا أستطيع تخيل الرجل الذي كان سيكونه بروس لو لم ينتزع منه السلاح طفولته. يتيماً ووحيداً فجأة، حادث مخيف قد حلّ. لن يكون لهذا الطفل وقت للحزن، لن يهدر أي وقت في تمني إمكانية تغيير تلك الحادثة، لن يكن سوى الوعد. في تلك الليلة، في ذلك الشارع الملطخ بدماء والديه، سيأخذ عهداً بتخليص المدينة من الشر الذي أودى بحياتهما".

ومع رحيل والديه، سيحتاج بروس إلى مركز ثقل جديد في عالمه، وهذا الوعد الذي يغير حياته وفر له ذلك. وللوفاء بوعده، سيمضي سنوات في الدراسة والتدريب والسفر، والحصول على المهارات والمعرفة التي يحتاج إليها إذا كانت لديه أي فرصة على الإطلاق للوفاء بالمهمة المخيفة التي أقسم على أدائها. جرده من ذلك الوعد، ولن يكون سوى صبي يعاني صدمة، راكعاً أمام جثث والديه. إن وعده وفر له شيئاً ليفعله، والأهم من ذلك، شخصاً ليكونه. إن التزاماتنا ومشاريعنا تشكلنا وترسم شخصيتنا. وهكذا، يكبر الشاب بروس واين ليصبح باتمان. كما تلاحظ راتشيل داوس للأسف

في نهاية Batman Begins، بأن شخصية الملياردير بروس واين اللعوبة ليست سوى قناع ملائم.

الوعود والأخلاقيات

يتطلع باتمان في جزء كبير من مهمته نحو المستقبل: فهو يريد أن يجعل من غوثام مكانًا أكثر أمانًا وأفضل للعيش، مكانا لا يفقد فيه الأطفال أبويهم كما فقدهم هو. وهكذا، فإن لدى باتمان أسبابا أخلاقية متطلعة نحو المستقبل في حربه ضد المجرمين. ولكن هل هذه الأسباب كافية لتبرير تصرفاته؟

بالنسبة للعواقبية، والتي تعتقد أن النتائج هي العامل الوحيد ذو الصلة في تحديد ما هو الصواب والخطأ، يعتمد هذا كله حول ما إذا كانت أعمال باتمان تجلب أفضل النتائج الممكنة على الجميع أم لا. [3] إذا كان الأمر كذلك، فعليه أن يذهب ويستمر بما يفعل. من المؤكد بأن باتمان يقوم بالكثير من الأشياء الجيدة، بغض النظر عما قد يقوله النقاد ممن يظهرون في التلفاز في فيلم The Dark Knight Strikes Again (2002). ولكن كانت الجريمة بصفة باتمان لا تحقق أفضل النتائج الممكنة، فيجب على بروس أن يعلق بدلته وقناعه ويترك ذلك العمل. ولكن ألن يعني ذلك عدم الإيفاء بالوعد الذي قطعه لوالديه؟ ومن الخطأ عدم الإيفاء بالوعود، أليس كذلك؟

في الواقع، تواجه العواقبية صعوبة في تقييم الوعود بالوزن الأخلاقي الذي تستحقه. فأخلاقية العواقبية تعتمد على جعل العالم مكانًا أفضل، في حين أن الوفاء بالوعود قد يقود الى ذلك في كثير من الأحيان، إذا كان ذلك النوع من الوعود خيّراً، إلّا أنه ليس كل الوعود صالحة ويقطعها أناس صالحون ذوي نوايا صالحة. فالمؤمنون بالعواقبية ليسوا معجبين جدًا بمقولة "لأنني وعدت بأني سأفعل!" كسبب أخلاقي، معتقدين أننا بحاجة إلى أن

نكون مستعدين لوضع التزاماتنا جانباً عندما تدعونا المصلحة العليا لتلبيتها. بعبارة أخرى، يعتقد العواقبيون أن الغاية تبرر الوسيلة، ومن المحتمل أن يؤدي بشخص ما بهذه العقلية بخرق الوعود التي قطعها بشكل دائم.

بعد كل ما سبق، فما الذي يوجب على المرء أن يفي بوعوده؟ إذا ما حان وقت حفظ آلفريد للوعد على سبيل المثال، فإن القيام بما وعد به هو فكرة جيدة، فهو بالطبع يجب عليه أن يحافظ على كلمته. وعلى أي حال، فقد كان من دواعي سروره أن يفعل ذلك! ولكن إذا كان ما وعد به يبدو سيئاً، فلماذا على آلفريد أن يحافظ عليه؟ لأنه قال إنه سيفعل ذلك؟ وماذا في ذلك؟ حيث إذا ما كان يتطلع إلى المستقبل، فإن ما كان قد وعد به في الماضي يبدو غير مهم نسبياً. قد يكون السبب المحتمل لآلفريد للوفاء بوعوده هو أنه يحتاج إلى أن يثق به الناس، وإذا ما ثبت أنه ليس رجلًا يحفظ كلمته، فلن تُقبل منه أي وعود يقدمها في المستقبل. ولكن هذا مجرد سبب لـ "آلفريد" للتأكد من عدم وجود أي شخص يكتشف بأنه قد خرق وعده!.

كل هذا يؤكد على حقيقة أن الوعود لا تتطلع في جوهرها إلى الأمام. إذ أن وعد باتمان يرسخ مهمته في الماضي؛ فإلتزامه بالحفاظ على هذا الوعد يعطيه سبباً أخلاقياً فيه تطلع للماضي لتنفيذ مهمته، ليلة بعد ليلة وشريرا بعد شرير. وعلاوة على ذلك، ففي الحين الذي لا يمكننا فيه إنكار أنه يريد من مواطني غوثام أن يكونوا آمنين من المجرمين والمغتصبين، فمن الواضح بأن باتمان يريد أيضًا من الظالمين أن ينالوا ما يستحقونه. والقصاص يعتبر تطلعاً الى الماضي أيضاً. لذا فإن حرب باتمان على الجريمة مرتبطة بالماضي بطرق مختلفة، مرتبطة بتاريخه الشخصي، وتاريخ المجرمين الذين يقاتلهم. (لاحظ كيف يعود باستمرار إلى موقع مقتل والديه، الذي كان يدعى حينها Park Row، ويطلق عليه الآن اسم "زقاق الجريمة"). هذا لا ينبغي أن يفاجئنا وذلك نظراً لمنظر غوثام العام وإنتشار الخوف والمجهول والغربة فيها، حيث

أن قصة باتمان هي قصة قوطية Gothic حقاً، وهذه الحركة من الماضي نحو الحاضر هي سمة مميزة أخرى للقوطية.

وهذا يعني أيضًا بأن باتمان ليس عواقبياً بشكل كامل. كما أنه مدفوع بأسباب تنتمي للأخلاق الواجبة، وهي الأسباب التي تنطوي على ما يفعله شخص ما بدلاً مما يحدث نتيجة لما يفعله شخص ما، أي أنها تركز على أخلاقية الفعل ذاته، لا على نتيجته.[4] لأن إجابة "لأنه سيخلف وعداً!" تنتمي الى الأخلاق الواجبة، كما هو الحال مع "لأن ذلك سيكون خداعاً!"، أو "لأنها ستكون جريمة قتل!" فإن رفض باتمان المتكرر للقتل وهو يؤدي مهمته، حتى عندما يكون الجوكر خصمه، هو تجسيد مثالي لالتزام باتمان ببعض أخلاقيات الأخلاق الواجبة.[5] توضيح آخر كهذا هو الكيفية التي يحفز بها باتمان عزمه على الحفاظ على وعده منذ مرحلة الطفولة. وكما يلاحظ آلفريد في Under the Hood (2005 - 2006)، يخشى أعداء باتمان من عزيمته المذهلة أكثر مما يخشون ظهوره أو قوته. فباتمان رجل يحافظ دائماً على وعوده، وهذا يجعله أكثر من رجل في نظر خصومه.

قطع الوعود للموتى

على الرغم من حقيقة أن بعض جوانب الوعود قد تبدو محيرة، إلا أن أهميتها في حياتنا الأخلاقية العادية يصعب إنكارها. إذ كثيراً ما نقطع الوعود لبعضنا البعض، حتى كأطفال صغار، ونلزم أنفسنا بتنفيذها. ولكن هناك مشكلة أخرى في حالة وعد باتمان. فنحن نقطع الوعود لشخص ما، أليس كذلك؟ في الواقع، يبدو أن هذا جزء أساسي يميز الوعود عن بقية الإلتزامات الأكثر عمومية. وعلاوة على ذلك، فإن إحدى الطرق الطبيعية للغاية لفهم الخطأ المتمثل بإخلاف الوعد هو أنه بطريقة ما يسيء أو يؤذي الشخص أو الأشخاص الذين قُطع لهم الوعد. هذه الفكرة مدعومة بحقيقة

إن كان باتمان لم يفِ بوعده لأوراكل على سبيل المثال، فإنه سيكون مدينًا لها باعتذار من أجل القيام بذلك، وحتى إذا كان يعتقد أن هناك مبررًا أخلاقياً لكسر هذا الوعد، فمن المؤكد أنه سيدين لها بتفسير على الأقل. ولكن والدي بروس ماتا عندما قطع وعده لهما. فهل من المنطقي أن نعد بشيء لشخص ميت؟ وهل ستكون مخالفتنا وعودنا للموتى خاطئة بنفس الطريقة التي تكون بها مخالفتنا وعودنا للأحياء؟ وهل يمكن أن يتعرض الميت للضرر أو الإساءة؟ وهل يوجد الموتى داخل أو خارج عالمنا الأخلاقي؟

بالطبع، لا يمكننا التفكير طويلاً في مثل هذه الأسئلة دون مواجهة سؤال أكبر وهو: ماذا يحدث لنا عندما نموت؟ هل الموت هو نهاية وجودنا الواعي، أم هناك نوع من الحياة الواعية بعد الموت؟ إن هذا سؤال يربك أي عدد من المفكرين الدينيين والفلسفيين، ويترك حتى أعظم محققي العالم دون جواب! في Under the Hood، عندما يشك باتمان بأن جايسون تود - روبن الثاني، والذي قُتل على يد جوكر - قد عاد من القبر بطريقة ما، يبحث عن كل من سوبرمان وغرين آرو لسؤالهم كيف هو الأمر حين تموت ومن ثم تعود للحياة؟. وعلى الرغم من عدم فهمه لذلك بالضبط، إلا أن القيام يعتبر إمكانية حقيقية في عالم باتمان. حيث يجب ألا ننسى راس الغول وأعوانه، لأنهم يستطيعون أيضاً إعادة الموتى إلى نوع من الحياة. وبغض النظر عما قد يكون عليه الحال في واقعنا، فإن الموت لا يبدو كمخرج نهائي في القصص المصورة.

لنفترض أن الموت ليس نهايتنا. إذ تستحضر نسخة 1939 من وعد باتمان أرواح توماس ومارثا واين. إن إحدى الطرق الواضحة نسبياً لفهم الوعود المقطوعة الى الموتى هي القول بأن الموتى ما زالوا بيننا في مكان ما، كأشباح أو أرواح من نوع ما. ولكن في الحين الذي يطارد فيه باتمان من قبل والديه القتيلين، فإنهما لا يظهرا مرة أخرى للقتال إلى جانبه بالطريقة التي

يفعل بها ذلك والدا هاري بوتر، على سبيل المثال، وعندما يظهران، عادة ما يكون ذلك بسياق ارتجاعي، كذاكرة أو حلم أو هلوسة.[6] حيث أن باتمان غير مطارد حرفياً بأشباح والديه، بل هو مطارد بذكرياته عنهم وعن موتهم، من خلال حنينه لهما، وفقدانه للحياة التي تشاطرها معهما. لذا، فإن سؤالنا هو ما إذا كان بإمكاننا أن نفهم قطعه وعدًا لأم وأب ماتا ورحلا ولن يظهرا للتعبير عن خيبة أملهما إذا لم يفِ بما وعد به. وكما تبين، فإن هذا السؤال هو الأكثر إثارة للاهتمام من الناحية الفلسفية هنا أيضًا، وقد أختلف عدد من الفلاسفة حول القضايا التي يثيرها.[7]

لذا، لنفترض جدلاً بأن الموت هو نهايتنا بعد كل شيء. يذهب الفيلسوف اليوناني القديم أبيقور (341 – 270 قبل الميلاد) لما هو أبعد من الإفتراض هنا. وجهة نظره هي أن البشر يتألفون من الذرات والجسد والروح، وأن الموت يمثل إنحلالنا حرفياً: نحن ببساطة نتحول إلى قطع منفصلة، وهذا كل شيء. نحن لا نعيد تجميع أنفسنا كما يفعل Clayface وجه الطين (أحد الشخصيات الشريرة في عالم باتمان والذي يتألف جسده من الطين). حيث يجادل أبيقور بشكل شهير بأن مثل هذا الموت لا يُخاف منه قائلاً:

"أعتدت الاعتقاد بأن الموت هو لا شيء بالنسبة لنا. فلكل الأشياء الجيدة والسيئة تتشكل من اختبارات حسية، والموت هو الحرمان من الاختبار الحسي للأشياء. ومن ثم، فإن المعرفة الصحيحة بحقيقة أن الموت لا شيء بالنسبة لنا تجعل فناء الحياة مسألة مرضية، ليس من خلال إضافة وقت غير محدود [للحياة] بل بإزالة التوق إلى الخلود. وبذلك فإن لا وجود لشيء مخيف في الحياة لمن يدرك عدم وجود شيء مخيف بفقدانها. لذا، أحمق من يقول إنه يخاف الموت، ليس لأنه سيكون مؤلماً عندما يكون حاضراً، بل لأنه مؤلم أثناء قدومه. فالذي لا يسبب ألماً حين يكون حاضراً، يسبب ألماً غير ضروري لمجرد ترقبه. إذن، فالموت، وهو أكثر الأمور السيئة إثارة للخوف،

هو ليس بشيء بالنسبة لنا؛ لأننا عندما نكون موجودين، فإن الموت يكون غائباً، وعند حضوره، لن نكون عندها موجودين. لذلك، فهذا غير ذي صلة لا بالأحياء ولا بالأموات، لأنه لا يؤثر على الأول، والأخير غير موجود"[8]

إن أبيقور مُتَعي (ساعي وراء المتعة)، مما يعني أنه يعتقد أن ما هو جيد للبشر هو المتعة وما هو سيء هو الألم. وبما أن المتعة والألم لا يمكن أن يكونا موجودين بدون أن يشعر، فإن أبيقور يقول أن"كل الخير والشر ينطويان على الاختبار الحسي". وبما أن الموت هو غياب الاختبار الحسي، فلا يوجد شيء لكي يُخاف منه. (قد تكون عملية الموت مؤلمة حقاً، وبالتالي يكون هنالك شيء من الخوف، ولكن طالما أنك لا تزال تموت إذاً "لا يكن الموت موجوداً بعد". وعلاوة على ذلك، لا يمكن أن يكون هنالك شيء جيد أو سيء بالنسبة للموتى، لأنهم لا يدركون شيئًا على الاطلاق. إذا كان أبيقور على حق، فعندئذ يبدو بأنه لا يمكن أن يكون هنالك أي شيء جيدٍ أو سيءٍ بالنسبة لوالدي بروس الميتين. وإذا كان جزء كبير من السبب في عدم الإخلال بالوعد هو أنه سيئ إلى حد ما بالنسبة للشخص الذي قطعه، فإن هذا السبب ببساطة لن يطبق في هذه الحالة، أو في أي حالة يكون فيها "الموعود" متوفى.

لكن الكثير من الناس لا يقتنعون بهذه الحجة الأبيقورية. وأحد الأسباب هو أنه في الحين الذي يبدو من المعقول أن نفكر أنه حتى لو لم يكن الموت نفسه يتضمن أي تجارب سيئة، فمن السيئ أن نموت على وجه التحديد لأننا سنحرم من كل التجارب الجيدة التي ربما كانت ستحدث لنا![9] وعلاوة على ذلك، فهناك أسباب تدعو للشك في فكرة وجوب تجربة جميع الأشياء السيئة. خذ بعين الاعتبار الكلمات التالية لأرسطو (384 - 322 قبل الميلاد): "إذا كان هناك للشخص الحي خير وشر لا يعلمه، فالشخص الميت أيضاً، على ما يبدو، لديه خير أو شر. فعلى سبيل المثال، إذا تحصل الميت على

الشرف أو العار، فأولاده، والمنحدرين منه بشكل عام، سيكونون مُشرفين أو يعانون من سوء الحظ بعد رحيله"[10]

إذن، وفقاً لأرسطو، فإن هناك أشياء جيدة وسيئة للموتى. دعنا نسمي هذه الأشياء فوائد ومضار ما بعد الوفاة. يبدأ أرسطو من خلال الاستناد على تشابه جزئي: إذا كان بالإمكان إيذاء الأحياء لكنهم يظلون غير مدركين لذلك، فيمكن أن يتعرض الميت للضرر كذلك. من الواضح أنه يرفض رفضًا قاطعًا ادعاء أبيقور بأن "كل الخير والشر ينطويان على تجربة إدراكية حسية". "لنفترض أن سيلينا كايل Selina Kyle (الملقبة بالمرأة القطة Catwoman، لأي شخص لا يعرفها) تتظاهر فقط بأنها مهتمة عاطفياً بباتمان كجزء من مؤامرة معقدة ضده. افترض كذلك أن باتمان غير مدرك تمامًا لهذا الأمر ويستمتع برفقتها، وفي الواقع هو لم يكتشف أبداً ازدواجيتها. ألن يتعرض للأذى؟ ألن يحدث له شيء سيء على الرغم من أنه لم يعرف ذلك؟ إذا كان الأمر كذلك، فربما تكون هنالك أضرار غير مُختبرة.

هذا المثال يشير إلى أن الخداع والخيانة يمكن أن يؤذيانا بشكل كبير بالرغم من عدم تأثرنا بهما حسياً وإدراكياً. وكما يقول توماس ناغل Thomas Nagel: "إن النظرة الطبيعية هي أن اكتشاف الخيانة يجعلنا حزينين لأنه من السيئ أن يتم خيانتنا لا أن الخيانة سيئة لأن اكتشافها يجعلنا غير سعداء" [11] ويعتقد أرسطو بأنه يمكن إيذائنا من خلال سمعتنا ومن خلال أصدقائنا وعائلاتنا بطريقة لا تعتمد على تجربتنا لأي شيء. إن فكرة الضرر غير المدرك والمحسوس تبدو معقولة جداً.

ماذا عن ضرر ما بعد الوفاة؟ إذا كان يمكن لباتمان الحي التضرر دون إدراك الضرر، فلماذا لا يمكن للموتى ذلك؟ فإذا مات بروس واين، وإذا ما أعتقد الناس خطئاً بعد موته بأنه كان شريراً مرعباً بدلاً من كونه بطلاً رائعاً، ألم نكن لنعتقد بأن شيئًا مضراً – كما يقول أرسطو، سيء الحظ – سيحدث

لـه؟ تشـير تعبيرات مثل "انه يتقلب في قـبره" إلى أن هذه فكرة طبيعية. فمن المؤكد أن أرسـطو يعتقد ذلك، على الرغم من أنه يقر بأن الضرر الذي يلحق بالموتى قليل نسبياً.

ربـما يكون أبقراط مخطئاً في قوله إن الموتى لا يمكن أن يتعرضوا للضرر لأنهم لا يستطيعون تجربة الضرر. ولكن ألا تبقى هناك نقطة أخرى من نقاطه صحيحـة؟ أن تقـول أنـه يمكن الإضرار بشـخص حي بطريقـة لا تؤثر على تجربته الإدراكية، شيء، وشيء آخر أن تقول، كما يفعل أرسطو، أن الشخص الـذي لم يعـد موجودًا يمكـن أن يتضرر! كيـف يمكن بحق السـماء أن تضر شـخصاً غير موجود (ميت)؟ حسـناً، لـن يمكننا التأكد من ذلـك بالتأكيد. إذ لا يمكنـك أو يمكننـي إلحـاق الضرر بـبروس واين، أليـس كذلك؟ لأنه مبتكر؛ إنه ليس شـخصًا حقيقيًا. بالتأكيد، ومع ذلك، فالموتى من فئة مختلفة عن الشـخصيات الخيالية! في حـين أن الأولى غير موجودة ولم تكن موجودة أبـداً ككائنـات بشرية من دم ولحم، فإن الأخيرين هـم أناس حقيقيون كانوا موجودين.

إن هـذا هو الدليل الذي نحتاجه لفهم مسـألة الـضرر الذي قد يصيب الموتى. فعندما نتسـاءل عما إذا كان من المنطقي أن نقول إن الاخلاف بالوعد الـذي تم قطعـه للموتى قد يؤذيهم، علينا أن نكـون حذرين في كيفية وصفنا لذلك الأذى. هل نسـأل ما إذا كان بـروس يمكن أن يضر بالمتوفيين توماس ومارثـا وايـن؟ إذا كان الأمـر كذلـك، فإننا نسـأل مـا إذا كان بإمكانه إيذاء شـبح، أو جثة، أو ربما لا شيء. وهذا شيء سـخيف. ولكن ماذا لو سألنا إذا مـا كان بإمكانـه أن يضر بذكراهما، وهما الأشـخاص الأحيـاء الذين اهتموا بـه في طفولتـه المبكـرة؟ [12] إذا كانت هذه هـي الطريقة التي نفكـر بها، فهناك مرشـح مناسب ليعاني من ضرر الوعد الذي أُخلف. وتكمن المشكلة التالية في معرفـة وقت حدوث الـضرر وكيفية التحدث عن ضرر يبدو أنه يشـتمل

على علاقة رجعية، حيث قد يؤدي ما قام به بروس في الوقت الحاضر إلى إلحاق الضرر بوالديه في الماضي. وهذه مشكلة فلسفية حقيقية، ولكنها تبدو وكأنها النوع الصحيح من المشكلات التي يواجهها محبو باتمان، نظرًا للطرق التي تمزج بها قصص فارس الظلام دائمًا الماضي بالحاضر.

عودة باتمان

في Kingdom Come(1997)، وهي قصة تصور مستقبلاً محتملاً أو أرضاً بديلة في عالم دي سي، لا يزال باتمان يحارب الجريمة في غوثام. في الواقع، يبدو أنه ينتصر في حربه، بمساعدة فيلق من الروبوتات الوطواطية. لقد حافظ على وعده، أو حافظ عليه تقريباً. لكن في حفل افتتاح فيلم فرانك ميلر الكلاسيكي The Dark Knight Returns(1986)، وهي قصة مستقبلية أخرى، كان باتمان قد تقاعد. لماذا؟ ليس لأنه قد أخلى المدينة من الشر وأوفى بوعده لوالديه. بل بعيداً عن ذلك، فقد قام باتمان الخاص بميلر بتعليق قناعه وعباءته ليس لأن مهمته قد أنتهت، ولكن بسبب وفاة جيسون، وهو روبن سابق. (من المثير للاهتمام بأن ميلر قد كتب هذه القصة قبل عامين من وفاة جيسون في قصة باتمان المستمرة الإعتيادية، ومن ثم توقع - وربما ساعد في تحقيق - قتل الجوكر سيئ السمعة لروبن في قصة A Death in the Family في عام 1988.

في The Dark Knight Returns تنتهي مسيرة باتمان كما بدأت، بوعد آخر. تأمل هذه المناجاة الداخلية التي يصف فيها بروس صراعًا مستمرًا مع باتمان الموجود داخله:

"إنه (باتمان) يسخر مني (بروس واين)، ويلعنني. يناديني بالأحمق. يملأ نومي، ويخدعني. يجلبني هنا حينما يكون الليل طويل وإرادتي ضعيفة.

إنه يكافح بلا هوادة، وبكراهية، ليتحرر

لن أسمح له بذلك. أعد بهذا.

من أجل جيسون، لن أسمح بهذا أبداً مرة أخرى".

أخيرا، وبالطبع، يخرج باتمان منتصراً في هذا الصراع النفسي. حيث يترك تقاعده لمحاربة الشر مرة أخرى. لماذا؟ ربما لأن ذلك الوعد الأقدم والأقوى لا يمكن تجاهله ببساطة. فكما يقول ميلر، في محاولة أن لا يكون باتمان، حول بروس نفسه الى "رجل ميت سائر"، فوعده لوالديه ومشروع ولادته كانا قد حددا من هو. وبدونهم، ما هو إلّا قشرة رجل خاوية. والماضي لا يمكن نسيانه ببساطة: "كان يمكن أن يحدث بالأمس، أو أن يحدث الآن. كان يمكن أن يكونوا جاثين تحت قدميك، يرتعشون، وينزفون". في النهاية، كان باتمان قد قطع وعدًا لا يمكنه الحفاظ عليه تماماً أبداً، إلا أنه وعد لا يمكنه العيش بدونه.

باتمان الى الأبد؟

لقد جادل بعض الفلاسفة بأن البشر يجب أن يكونوا سعداء لكونهم ليسوا خالدين، لأن الحياة التي لا نهاية لها ستثبت حتمًا أنها مملة، وبالتالي تكون لعنة بدلاً من كونها نعمة.[13] من المدهش، إذن، أن الموت قد يكون جزءًا مما يجعل الحياة جذابة وساحرة. فحتى حياة البطل الخارق قد تشيخ لتكون مضجرة، بعد أن يتلاشى التشويق في محاربة الشر بعد سنوات أو عقود أو قرون. لكن باتمان لم يكن مدفوعاً في المقام الأول لأجل تشويق المطاردات أو من متعة النصر. إنه لم يكن بطلاً خارقًا لرغبته بعيش حياة مثيرة جدًا ومرضية. في Superman /Batman: Public Enemies، فقد بدا صريحا بفجاجة قائلاً: "إنها ليست حياة أتمناها لأحد". إن حملة باتمان

ضد الجريمة مدفوعة بالتزامه المستمر في السعي للحفاظ على وعدٍ صعب يحدد ماهيته. وهذا الالتزام يمنح حياته معنىً غير مرتبط برضاه الشخصي. إذ في الواقع، فهو مرتبط بتضحياته الشخصية. إن وعد باتمان يربطه بغوثام طالما ستحتاجه المدينة فيه.

هوامش الفصل السابع:

1- العدد #33 من Detective Comics (نوفمبر 1939) هذا المشهد مدرج في كتاب ليس دانيلز، باتمان: التاريخ الكامل: حياة وزمن فارس الظلام (San Francisco: Chronicle Books 2004)، الصفحات 34-35.

2- راجع، على سبيل المثال، كتاب روبرت نوزيك، التفسيرات الفلسفية (Cambridge MA: Harvard Univ. Press 1983)، الصفحات 366-368.

3- تاريخياً، فأن أهم العواقبيين هم الفلاسفة النفعيون البريطانيون، جيرمي بينثام (1748-1832) وجون ستيوارت ميل (1806-1873). ومختارات مفيدة من تحرير ستيفن لـ. دارول، بعنوان "العواقبية" (Oxford: Blackwell Publishing 2002).

4- الشخصية الأكثر تأثيراً في أخلاقيات علم الأخلاق هو الفيلسوف الألماني العظيم إيمانويل كانط (1724-1804). مجموعة مفيدة من تحرير ستيفن لـ. دارول هو كتاب "علم الأخلاق" (Oxford: Blackwell Publishing 2003).

5- الفصل الخاص بمارك د. وايت الذي يناقش رفض باتمان لقتل الجوكر في هذا الكتاب يأتي بمزيد من التفصيل.

6- راجع على سبيل المثال قصة Haunted Knight الثالثة، وهي محاكاة لقصة تشارلز ديكنز أنشودة عيد الميلاد والتي يظهر فيها والد بروس واين كشبح جايكوب مارلي؛ أو الهالووين الطويل، حيث يتعرض بروس لغاز الفزاعة ليعيش في جزئين، أحدهما في الحاضر والآخر في الماضي حيث يحاول هو ووالدته الهرب من قاتل والديه.

7- راجع المقالات المتنوعة في كتاب ميتافيزيقيا الموت، تحرير جون مارتن فيشر (Stanford CA: Stanford Univ. Press 1993).

8- من "رسالة أبيقور إلى مينوسيس" في الفلسفة الهلنستية: قراءات تمهيدية تحرير براد إنوود ولـ. بـ. غيرسون، الطبعة الثانية (Indianapolis: Hackett Publishing Company 1997)، الصفحة 29.

9- أنظر فصل "الموت" في كتاب "أسئلة فانية" لتوماس ناغل :Cambridge

Cambridge Univ. Press 1979). والمعـاد طبعـه أيضـاً في ميتافيزيقيـا المـوت، الصفحات 61-69.

10- أرسـطو، الأخـلاق النيقوماخيـة، الطبعـة الثانيـة، ترجمـة ترينيـس إيرويـن، (Indianapolis: Hackett Publishing Company 1999)، الصفحة 13.

11- أسئلة فانية لتوماس ناغل، الصفحة 65.

12- راجـع كتـاب جـورج بيتشر "مصائـب الموتى" المعـاد طبعـه في ميتافيزيقيا الموت، الصفحات 159-168.

13- بيرنـارد ويليامـز "قضيـة ماركوبولـو: تأمـلات في ملـل الخلـود"، أعيـد طبعـه في ميتافيزيقيا الموت، الصفحات 73-92.

8

هل كان على بروس واين أن يتحول الى باتمان؟

بقلم: مابسيب أنانتب وبين ديكسون

ما الذي ستفعله بالكثير من الوقت والمال؟

إن بـروس وايـن، الأنا البديلـة لباتمان، غني، بل هو غنـي جداً. فقائمة مجلة فوربس للخمس عشرة شـخصية خيالية الأغنى وضعت واين في المرتبة السـابعة، حيـث تقدر قيمة ثروتـه الصافية بما يقارب السـبعة مليار دولار.[1] ومـن الجدير بالذكـر أن واين ولد ثرياً، حيث ورث ثـروة والديه بعد وفاتهما المفاجئـة على يد مجرم في مدينة غوثـام. لذا عندما يأخذ واين البالغ من العمر خمسة وعشرون عاماً مهمة مكلفة ومحفوفة بالمخاطر للغاية وهي النضال من أجـل تحقيق العدالة كباتمـان، فإنه يتخذ قرارًا أخلاقيًا بـأن القيام بهذا العمل هو الوسـيلة المناسـبة لقضاء وقته وثروته الموروثة. وهو يقرر، في الأسـاس، أن الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله هو تكريم ذكرى والديه بتنظيف مدينة جوثام من الجريمة. لكن هل هذا هو القرار الأخلاقي الصحيح؟

لا شيء يبدو لطيفاً بالنسبة لفارس الظلام ذاك

"بدون أي سابق إنذار. . ترتطم محطمة زجاج نافذة غرفة دراستك... ونافـذتي. . . .لقـد رأيـت ذلـك سـابقاً. . . في مـكان مـا. . . لقـد أرعبتني كصبـي... أرعبتني. . . نعم، أبي، عليَّ أن أصبح خفاشـاً. بروس واين البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً كباتمان".

Year One 1987

إن Batman : Year One يحـوي أول وصـف جنائزي مرئي مروع لوايـن: حيث يركع واين البالغ من العمر 7 سـنوات بلا حراك أمام والديه، فوالده الملطخ بالدماء يمسـك كتف أمه، وكلا الوالدين ممددان على الأرض بـلا حـراك. في بعض الصفحات في وقت لاحق سنرى واين الناضج راكعاً أمـام والديه مرة أخرى، وهذه المرة أمام قبريهـما. ونظراً لتعبير وجهه الحزين ووقفتـه المحدودبـة، فـأن ألم بـروس بشـأن مقتل والديـه لم يتـلاشَ كثيراً في السـنوات التي تلت تلك الجريمة. وبالفعل، تكشف القصة سريعاً لماذا يقرر واين، من خلال تحوله إلى باتمان، أنه لا ينبغي التحفظ على أي مورد في محاربة الظلم. اقتداء بأفعال والده، وهو وارث ثري وطبيب غوثام، يجب على واين استخدام ذكائه المتّقد وثروته الموروثة لجعل غوثام مكانًا أفضل.

إن محاربـة باتمـان للجريمـة هـي إلى حـد كبـير وسـيلة لتكريـم والديه القتيلـين، كما يتضح في واحد من أكثر المشـاهد السرياليـة في Year One. حيـث أدت محاولة فاشـلة في محاربـة الأشرار إلى إصابة بـروس وتركه ينزف حتى الموت تقريباً؛ وأثناء جلوسـه في غرفة مكتب قصره، بدأ "يتحدث" إلى مـا يبدو أنه تمثال نصفـي لوالده الميت، توماس واين. ويسـأل واين الأصغر والده حول كيف يمكنه ترويع المجرمين من أجل محاربة الجريمة بشكل أكثر

نجاحـاً، ويوضح أنه كان يتوق إلى مثل هـذا النجاح منذ الليلة التي قُتل فيها والداه، في الليلة التي كما يقول عنها: "حين غادرت كل الأحاسيس حياته". إن تذكـره تفاصيـل ليلة والديـه الأخيرة تتبع مباشرة بمشـهد وطواط يندفع نحو نافذة دراسـته، محلقاً في فضاء الغرفة، وهابطاً فوق تمثال والده. يثير هذا الحادث ذكريات مرعبة لحادثة طفولة تنطوي على وجود الوطاويط. وبفكرة مستوحاة من رعبه من الوطاويط، يقرر واين في ذلك الزمان والمكان أن يخلق إرهابـاً مماثلا في قلوب مجرمي غوثام. حيث سـيتنكر بزي وطواط، ويحارب حثالـة غوثام. توضح الصور والحوار في هذا المشـهد الصلة الوثيقة بين قرار وايـن ليصبح باتمـان وفقـدان والديه والرغبـة في احترام ذكـرى أبيه بخدمة غوثام.[2]

"سينغر": عدو باتمان الحقيقي الأول

ولكن هل يعتبر التحول إلى باتمان هو الخيار الأخلاقي الأفضل لواين؟ للوهلـة الأولى، يبـدو أن التسـاؤل حـول الوضـع الأخلاقي لخيـار واين في العيـش كباتمـان غريب. إذ من المؤكـد أن قراره في إنقاذ مدينـة غوثام الممزقة مـن الجريمـة، وهو المـكان الـذي يصفـه جيمس غـوردن، ضابـط الشرطة الواصـل لغوثـام حديثًا، بأنها «مدينة بلا أمل» (Year One)، لا يسـتحق الثناء فحسـب بل ويكشـف عن شـخصية أخلاقية رفيعة. ومع ذلك، وعند الفحص الدقيق، قد يكون هذا التوصيف سابقا لأوانه.

وفي مقالته الشـهيرة "المجاعـة، الوفرة، والأخلاق" يجادل الفيلسـوف بيـتر سـينغر (مواليد 1946) بـأن على البشر يقـع التزام أخلاقي بمسـاعدة الآخرين الذين يعانون ويموتون بسـبب افتقارهم للاحتياجات الأساسـية، مثل الغـذاء والمأوى والرعاية الطبية.[3] يُصنف سـينغر كنفعي، والنفعية هي النظريـة الأخلاقية التي ترشـدنا إلى القيام بالأعمال التي سـتجلب أكبر قدر

مـن الخير أو أقـل قدر من الـشر لأكبر عدد مـن الناس، أسـتناداً على حقيقة تسـاوي جميع البشر أخلاقياً. [4] وأسـباب سينغر هي أن المبدأ الأخلاقي التالي يجب أن يكون جزءًا من تفكيرنا اليومي بوضوح حيث: "إذا كان في وسـعنا منـع حـدوث شيء سيء، دون التضحيـة بـأي شيء ذي أهميـة أخلاقية قابلة للمقارنة، فيجب علينا، أخلاقياً، القيام بذلك".

يمكن توضيـح فائدة هذا المبدأ وجاذبيته من خلال مثال يقدمه سـينغر بإفتراض طفل يغرق في بركة ضحلة. تخيل المشي بجانب هذه البركة ومراقبة طفـل وهـو يغرق. سـترى كذلك أنه من السـهل عليك أن تدخـل في البركة وتنقـذ الطفل. على الرغم من أن ملابسـك سـتصبح موحلـة، إلا أن الضرر الذي سـيلحق بملابسـك وأي مضـار أخرى هي غـير مهمة عنـد مقارنتها بحيـاة الطفـل، أليـس كذلك؟ وهكذا، فمـن الواضح أنه يجب عليك إنقاذ ذلك الطفل.

يبدو أن مبدأ سينغر الأخلاقي يجسد بدقة لماذا يجب على أي شخص يمر على ذلك الطفل الغارق تقديم المسـاعدة: يمكن للمـرء أن ينقذ حياة ويقوم بذلـك مقابـل تكلفـة أخلاقية صغـيرة للغاية. ما يريد سـينغر منـا أن نأخذه بعـين الاعتبار هو أن قبول هـذا المبدأ له آثار عميقة على الكيفية التي يجب أن نعيـش بها يوماً بعد يـوم. لاحظ أنه بنفس الطريقة التي يمكن للشـخص في المثال أن يسـاعد الطفل دون التضحية بشيء ذي قيمة أخلاقية عالية، كذلك يمكـن أن يتغـاضى الغربيـون عن بعـض الكماليات مـن أجل فائـدة أولئك الذيـن يواجهون الكوارث، مثل المجاعات والأمـراض القابلة للعلاج. من الواضح أن الكثيرين منا لا يعتبرون أنفسـهم أثرياء، ومع ذلك فإننا غالبًا ما نغـرق في الكماليات الصغيرة مثل الأقراص المدمجة وأقراص الفيديو الرقمية والملابـس ذات العلامـات التجارية الفاخـرة، والأطعمة الفاخـرة. إن مبدأ سـينغر الأخلاقي يجبرنا على تحديد ما إذا كان التمتع بهذه الكماليات الأصغر

قيمة هو أكثر أهمية من إنقاذ الأرواح البشرية.

لندعو حجة سينغر بـ"الحجة من الوقاية". في الأساس، هو يجادل بأنه إذا كانت المعاناة والموت بسبب نقص الطعام والمأوى والرعاية الطبية سيئة، وإن كان بوسعنا منع حدوث مثل هذه الأشياء السيئة، فعندئذ نحن كأفراد يجب علينا، أخلاقياً، منعها. وبالنظر إلى أن هذا النوع من المعاناة أمر سيئ ويمكننا المساعدة فيه، يعتقد سينغر بشكل غير قابل للجدال أنه يجب علينا، كأفراد، منع حدوث مثل هذه الأشياء السيئة. يأخذ سينغر الأمر إلى حقيقة أن المعاناة بسبب المجاعة والمرض والمأوى ومثل هذه الأشياء سيئة جداً. في الواقع، يدعي أنه إذا كنت لا توافق على حقيقة هذا الادعاء، فتوقف عن قراءة مقاله! ولكن لأجل مصلحة مناقشتنا، سنفترض (الى جانب سينغر) أن هذا الادعاء صحيح.

من المهم الآن فهم فكرة سينغر عن الـ"العطاء". وعلى وجه التحديد، كم علينا أن نعطي من أنفسنا في محاولة لمساعدة من هم في أمسّ الحاجة؟ يقرر واين الشاب بوضوح أن يعيش نسخة من حياة التضحية، طالما أن أنشطة باتمان الليلية تهدف إلى منع معاناة ووفاة من يسكنون غوثام. من المؤكد أن هذه التضحية كافية، أليس كذلك؟ لكن كلمات سينغر الخاصة حول "كم الذي سيكون كافياً" مدهشة:

"أحد الاحتمالات [النسخة القوية منها]. . . . هو علينا أن نعطي حتى نصل إلى مرحلة المنفعة الحدية، أي المستوى الذي إذا ما أعطينا المزيد عنده فستتسبب بالضرر والمعاناة لأنفسنا ومن نعيلهم بنفس القدر الذي سنقلل به من معاناة الآخرين بعطائنا هذا. وهذا يعني بالطبع أن المرء ستصل ظروفه المادية إلى درجة قريبة للغاية من الظروف المادية للفقراء الجائعين. [بدلاً من ذلك] إقتَرَحتُ نسخة أكثر اعتدالاً - والتي يجب علينا فيها منع حدوث الأمور السيئة ما لم نجبر على التضحية بشيء بالغ الاهمية أخلاقياً - فقط

لكـي نبين، حتـى بالرغم من هذا المبدأ غير القابل للمناقشـة بكل تأكيد، بأن حياتنا اصبحت تتطلب تغييراً كبيرا.. "[5]

يوضح سـينغر أعلاه أن هناك نسختين من العطاء، نسخة قوية متطرفة، ونسخة معتدلة (لاحظ أنه متشكك في الأخيرة، لكنه على استعداد لاعتمادها مـن أجل النقاش). تدّعي النسـخة القويـة بأننا ملزمون أخلاقيـاً بأن نعطي حتى نصل إلى النقطة التي نتسـبب فيها لأنفسـنا بالمعاناة نفسها التي تمر بمن نعطيهـم، مـا لم نضطر أثناء القيام بالعطاء للتضحيـة بشيء ذي أهمية أخلاقية عليـا. وعلى النقيض من ذلك، تدعي النسـخة المعتدلة أننـا ملزمون أخلاقياً بالعطـاء حتـى نصـل إلى النقطـة التـي نضحي بها بـشيء ذي أهميـة أخلاقية كنتيجة لمقدار عطائنا.

باتمان ضد سينغر: المعركة على إغاثة غوثام

من غير الواضح كم الثقل، إن وجد، الذي قد يضعه الشـاب واين على خيـار التخلي عن معظم أو كل ثروتـه الموروثة. ولعل حادثة وقعت في وقت لاحق في حياته تعطي بعض الدلالة على موقفه العام تجاه هذا العطاء الخيري. تتضمـن القصـة المصـورة «A Death in the Family" (1988)، والتـي تحكي قصة قتل الجوكر لروبن الثاني (جيسـون تود)، وتتضمن مشهدًا يظهر فيـه بـروس واين مع ضحايـا المجاعة في إثيوبيا. أثناء التفكير في هذه المأسـاة الإنسـانية، يفكـر واين مع نفسـه: "يتدفـق اللاجئـون إلى المخيمات بالآلاف كل يـوم. إنـه أمر مفجع تمامـاً. عندما أعود إلى غوثام، سأرسـل شـيكًا آخر للمسـاعدة ومحاولة نسـيان ما شاهدته هنا. أنا لسـت مختلفًا عن أي شخص آخر. هناك فقط الكثير للقيام به حتى بالنسبة لبروس واين وباتمان".

لاحظ شكوك واين حول مدى فاعلية تبرعاته، وكذلك رغبته في نسيان

المعاناة التي يراها في إثيوبيا، رغبة سيتصرف وفقها، غالباً بعد أن يتبرع بشيك آخر. هل كانت هذه المعتقدات والسلوكيات موجودة في تفكير واين كرجل يافع؟ إذا كان الأمر كذلك، وإذا كانوا يمثلون ما هو واقعي ومقبول أخلاقياً، فربما سيستطيعون المساعدة في مواجهة التحدي الذي يطرحه سينغر. وهذا التحدي هو حول ما إذا كان واين يستطيع أن يصبح باتمان في ضوء النسخة القوية للعطاء أو النسخة المعتدلة.

فيما يتعلق بالنسخة القوية، فإن التحدي واضح: يجب على واين أن يمنح معظم ثروته - بما في ذلك ميراثه ودخله الحالي من شركة Wayne Enterprises - إلى من هم في أمس الحاجة، ما لم يتمكن من إظهار أن ما سيحدث بعد أن يصبح باتمان ذا قيمة أخلاقية مماثلة. يمكن لنفعي مثل سينغر أن يقرّ بأنه إذا كان واين ناجحاً كباتمان - وهذا هو تساؤل كبير جداً - إذا أستطاع الحد من الجريمة بمقدار كبير فهو يحارب لدعم مدينة غوثام، وهو الأمر الذي سيؤدي على الأرجح إلى تقليص بعض من المعاناة. لكن هذه المساعدة تكون ضئيلة بالمقارنة مع الفوائد التي يمكن أن يجلبها بشكل فوري إلى جماهير الفقراء والمحتاجين في جميع أنحاء العالم، لا سيما بالنظر إلى احتمال استغلال ثروته لفائدة منظمة ذات سمعة جيدة. ومرة أخرى، فإن هذا يتعارض مع احتمالية النجاح الذي سيحققه وهو يرتدي ملابس الوطواط، ويقاتل الأشرار الذين يستخدمون أسلحة عالية التقنية، ومحافظاً بنفس الوقت على غطائه كملياردير لعوب. إن المعنى الضمني هنا هو أن واين لا يستطيع الدفاع عن خيار أن يصبح باتمان وفقًا للنسخة القوية من عطاء سينغر.

وإستجابة للنسخة القوية، يمكن أن يقر واين بواجبه الأخلاقي في إعطاء المحتاجين، ولكنه يصر على أنه إذا ترك حياة باتمان، فإنه سيتخلى عن شيء ذي قيمة أخلاقية مساوية. تحديداً، قد يدعي أن رغبته في تكريم ذكرى

والديه من خلال إعانة غوثام تعتبر معقولة كـ"قيمة أخلاقية متساوية". ومثل هذا الرد، إذا كان صحيحاً، قد يسمح له بأن يصبح باتمان ويساعد المحتاجين بتبرعاته بمقدار أقل مما تفرضه عليه النسخة القوية في الوقت ذاته.

ومع ذلك، فإن لدى سينغر ردا على هذه الحجة بناءً على معنيين ضمنيين مما تتضمنهم نفعيته. والمعنى الضمني الأول هو أن أي نسخة من العطاء لا تعترف بقرابة أو مسافة أولئك الذين يحتاجون إلى المساعدة.[6] أمّا المعنى الضمني الثاني فهو أن أي من نسختي العطاء، لا تعتبران فكرة أن إعطاء الجائع مسألة خيرية.[7]

بالشكل النفعي الحقيقي، يوضح سينغر أن الموقع، خاصة في سوقنا العالمي التفاعلي الغني، هو غير ذي صلة فيما يتعلق بصنع القرار الأخلاقي. فكل شخص يعتبر واحدا من الناحية الأخلاقية، وهذا كل شيء. لذا، فإن معاناة مواطني "غوثام" من "العالم الأول" على يد الجريمة، ورغم أهميتها، ليست بأكبر أو أهم من حاجات الأعداد الهائلة من الفقراء الجائعين في الدول الفقيرة الذين يواجهون موتاً محتماً. وبالتالي، فإن روابط القرابة لواين مع غوثام لا تضيف أي "نقاط" إضافية في حساب نفعي يزن الأضرار مقابل الفوائد. الفكرة هنا هي أن واين لا يمكنه استخدام الصوابية المفترضة في تكريم ذكرى والديه من خلال التركيز على مساعدة غوثام، حتى عندما تكون لها فائدة في التخفيف من بعض المعاناة هناك كورقة رابحة ضد نفعية سينغر.

قد يرغب المحب العارف، المسلح بمعرفة كبيرة للجدول الزمني لأسطورة باتمان، بالإشارة إلى أنه بمجرد أن يحول واين نفسه لباتمان، فإنه لن يمض وقت طويل قبل أن يبدأ في مواجهة الأشرار الذين يرغبون في التسبب بالدمار والمعاناة إلى ما هو أبعد من حدود مدينة غوثام. ومثل النفعيين، لا يهتم الأشرار كثيراً بالقرابة والمسافة، ليس عندما يدركون بأن هناك أموالاً

وقـوة يمكـن أن يحصلوا عليهـا بعيداً عن الوطـن! لذا، ووفقـاً لمحبي باتمان شـديدي الثقافـة، فمـن غير العـادل بعض الـشيء أن نقول إن جهـود واين كباتمان لن تفيد سوى سكان مدينة غوثام.

تذكـر، مع ذلك، أننا في هـذا الفصل نقوم بتحليل قرار واين الأولي لأن يصبح باتمان فقط. وما نريد معرفته هو ما إذا كان هذا القرار بحد ذاته معقولا أخلاقياً من منظور نظري أخلاقي معين. من المؤكد أن النفعية سـتتطلب من واين إلقاء نظرة دقيقة على ما يمكن أن يكون أكثر الطرق مسؤولية للاستفادة من موارده الهائلة بالنظر إلى معرفته في الوقت الذي يتخذ فيه هذا القرار وهو شـاب. وبالتـالي، لا تزال الحالة هي أنـه، في وقت مبكر جدًا مـن اتخاذ واين لقـراره، سـتلقي النفعية نظرة متشـككة على خيار وايـن في مكافحة الجريمة بصفته باتمان.

باتمان ضد سـينغر (الجولة الثانية): لا للأبطـال الخارقين الذين يذهبون الى أبعد مما هو مطلوب

ما الذي سـيقوله سـينغر لوايـن الذي يتـذرع بمفهوم الأعـمال الخيرية التـي تتعدى نداء الواجب؟ يمكن أن يجادل واين بأن رغبته في تكريم ذكرى والديه والمدينة التي أنقذها أبوه من الخراب عملياً لديها أكثر من مجرد شرعية أخلاقيـة، لدرجة أن مسـاعدته للآخريـن المحتاجين (خـارج مدينة غوثام) يجب أن يُنظر لها كأعمال خيرية. حيث من الناحية الأخلاقية، يسـتطيع واين الإصرار على أن تبرعاته الخيرية للآخرين تتجاوز المطلوب منه بشكل واضح، أي أن مساهماته الخيرية يجب أن تُحسب على أنها تتجاوز حدود الواجب. ومن هذا المنظور، يمكن أن يدّعي واين لنفسه بأنه ليس أخلاقيا وبطوليا فقط، بل وأيضاً أخلاقي خارق وبطل خارق، لتصرفه بما يتجاوز الواجب الأخلاقي. ولكن النفعي من شـأنه أن يرفض هذا. إذ عادة، ووفقاً للنفعية، فإن الأعمال

الخيرية أو الخارقة بشكل مفرط غير موجودة لأن مثل هذه الأفعال، عندما يقال ويُفعل كل شيء، يتبين أنها حقيقة واجبة على أي حال. ومثل هذه الأفعال ستكون «مفرطة» بشكل واضح! وكما كتب لورانس هينمان Lawrence Hinman، وهو فيلسوف أخلاقي آخر: "يجب على المرء دائمًا أن يفعل الشيء الذي يحقق أكبر قدر من المنفعة، وهذا الالتزام هو الذي يشكل الواجب بالتحديد. . . .أمّا بالنسبة للنفعية، فليس هناك مكان للتعبير عن الإفراط في العطاء، لأن الواجب يتطلب ما هو أكبر من ذلك بكثير". [8]

يعتقد سينغر بأنه على الأقل يكون الثقل الأخلاقي للمعاناة الناتجة عن نقص الطعام والمأوى والرعاية الطبية كبيرا للغاية بحيث لا يمكن أن تكون الجهود المبذولة لإختزال تلك المشاكل "أعمالا خيرية". [9] وهكذا فإن تبرعات واين لتخفيف هذه المعاناة، والتي كان يمكن أن تكون أكبر بطبيعة الحال، لولا تكاليف كونه باتمان، لا تعتبر أعمالا خيرية ولا إفراطا. يجب أن يكون واضحاً الآن بأن الحياة الأخلاقية النفعية مرهقة جداً، وهذه بالضبط هي نقطة سينغر. يمكن لسينغر أن يردّ في النهاية على واين، وذلك أن حجته من الوقاية بحيث لا تزال بمنأى عن حجج واين المقابلة. لذا، وبناءً على النسخة القوية للعطاء، فإن واين ملزم أخلاقياً بالتخلي عن أن يصبح باتمان لصالح منح ثروته للمحتاجين. إذا اختار أن يتجاهل النسخة القوية للعطاء، فإن اختياره ليصبح باتمان وأفعاله الأخرى ستعتبر غير أخلاقية من هذا المنظور النفعي.

من حيث النسخة المعتدلة للعطاء، على واين أن يثبت أن لديه مبرراً مقنعاً للعطاء الى النقطة التي لا يضطر فيها للتضحية بحياته كباتمان وكل ما يأتي مع هذه الحياة، حياة سيحاجج بأنها مهمة من الناحية الأخلاقية. تكمن المشكلة هنا في أنه ليس من الواضح (حتى في تحليل سينغر) ما الذي يعتبر بالضرورة "مهمًا من الناحية الأخلاقية". يمكن للمرء أن يجادل بأن للكماليات أهمية

أخلاقيـة كبيرة لأنها توفر درجة من السـعادة. ومـن الواضح أن هناك حاجة إلى بعـض القيود على ما يُعتبَر على أنه "مهـم من الناحية الأخلاقية" لتجنب الآثـار المترتبة عـلى أن أي قيمة ترف تعتـبر ذات قيمة أخلاقيـة. وبتتبع رأي سـينغر، نقـترح أن يكون هنـاك شيء ما يُعتـبر "مهما أخلاقيـاً" إذا وفقط إذا كان مثل هذا الامتلاك يجلب السـعادة لذات الشخص، وتكلفته لا تؤثر على التقليل من معاناة من يعيشون في فقر مدقع.

وبناءً على هذا التعريف، يُسـمح للناس بالاحتفاظ بجزء من مكاسبهم المادية بنـاء على طريقتهم في الحياة، ولكن يجـب عليهم التخلي عن جزء منها لمسـاعدة الآخرين. تماشياً مع روح حساب سينغر، فإن التعريف يستبعد (في الأغلب) امتلاك العديد من المواد المادية "التافهة"، لأنه من المحتمل أن يأتي على حسـاب تقليل كمية كبيرة من المعاناة لأولئك الذين يعيشـون في الدول المنكوبة بالمجاعة.

إنتصار سينغر: سطوع ضوء التنوير على كهف الوطواط

ورداً عـلى سـينغر، بإمـكان وايـن أن يقدم دفاعـاً معقولاً عـن اختياره ليصبح باتمان عن طريق كل من النسخة المعتدلة من العطاء وتعريف «الأهمية الأخلاقيـة». أولاً، حقيقـة أنه قادر على إنقاذ حيـاة العديد من الناس وتوفير الأمن لمدينة غوثام يوضح أن أسلوب حياته (بشكل عام) ذو أهمية أخلاقية. فبعـد كل شيء، حتـى لو حقـق نجاحات بسيطة فقط، فإن جهوده سـتقلل من المعاناة والموت، وهو بالضبط ما يعرّفه سـينغر بوضوح باعتباره مهمًا من الناحيـة الأخلاقية. ثانياً، من الواضح أن الدخل الذي يحصل عليه واين من مؤسسـة واين يقدّم لـه نوعاً من الأمن المالي والتقنـي ليصبح فارس الظلام، ويسـمح لـه أيضاً بالتـبرع للمحتاجين من خلال مؤسسـة وايـن. لذا، وعلى الرغم من أن واين ينفق مبالغ مالية كبيرة لإخفاء هويته كباتمان وإظهار نفسه

كرجل لعوب وكسول، فإن نفقاته مسموح بها ضمن الحدود المسموح بها، بل وضرورية أيضاً لأسلوب معيشته ذي الأهمية الأخلاقية. وهكذا، يمكن أن يدافع واين عن خياره في أن يصبح باتمان كخيار مقبول أخلاقياً في نطاق النسخة المعتدلة للعطاء.

وعلى الرغم من إمكانية تحقيق النسخة المعتدلة من قرار واين في أن يصبح باتمان، إلا أن سينغر لا يرى حقاً أي سبب لتفضيله على النسخة القوية. إذ يكتب:

«لا أرى أي سبب وجيه لاتباع النسخة المعتدلة من المبدأ بدلاً من النسخة القوية. وحتى إذا قبلنا المبدأ فقط في شكله المعتدل، فيجب أن يكون واضحاً أنه سيتعين علينا التخلي عمّا يكفي لضمان أن المجتمع الاستهلاكي، الذي يعتمد على الأشخاص الذين ينفقون على التوافه بدلاً من تقديم الإغاثة للمجاعة، سيتباطأ وربما يختفي تماماً».[10]

هذا الاستياء ليس مفاجئًا، نظرًا لحالة سينغر كنفعي حقيقي. لدى النفعية عادة عنصر تعظيم/ تصغير، بحيث أن ما هو أخلاقي هو ما يجلب أكبر خير ممكن، أو أقل سوء ممكن، لأعظم عدد ممكن. لذا فإن النسخة المعتدلة من العطاء ليست نفعية حقاً (بتناولها من الجانب التقليدي للنفعية) بطبيعتها؛ لذلك، فإن استخدام النسخة المعتدلة لدعم قرار أن يصبح باتمان هو ليس الشيء نفسه الذي تطالب به النفعية التي يعتنقها سينغر.

ولكن هناك سببا آخر لجعل قرار بروس واين لا يتناسب كثيراً مع النفعية، وهذا السبب قد يعتمد على اختيار بروس منذ البداية: حقيقة أنه يحتج بالماضي لتبرير أن يصبح باتمان. أما بالنسبة للنفعية، فإن ما يحدد مدى أهمية الأفعال هو عواقبها المستقبلية، لذلك لن يتم اعتبار وفاة والدي بروس والتزامهما بمدينة غوثام كأسباب كافية لمحاربة الجريمة. وحدها النتائج المستقبلية المفيدة يمكنها أن تبرر قرار بروس، وسبق وأن طرحنا الكثير من

الشكوك حول هذا الأمر! ومرة أخرى، فإن "الحجج" النفعية "لسينغر" ستجبر بروس واين على التخلص من ذكرياته المشحونة أخلاقياً، وبيع زي الوطواط خاصته وحزام أدواته، والتخلي عن جميع أمواله تقريباً للفقراء الذين يعانون من الجوع.

لكن ذلك سيُدمر كل شيء

إذا كنت من محبي شخصية باتمان، مثلنا، فأنت على الأرجح لا تحب إمكانية عمل الشاب بروس واين على نصيحة النفعية بأن يصبح باتمان أبداً. «إنه متطلب بشدة وبالتالي غير معقول»، كما قد تفكر في ذلك مع نفسك. لكن النفعية تمثل طريقة قوية في التعامل مع المشاكل الصعبة أخلاقياً، خاصة عندما تمثل هذه المشاكل خيارًا بين التضحية مع الحفاظ على رفاهية عدد كبير من الأشخاص، والتضحية من أجل الخير الذي سيطال عددا أقل من الأشخاص، حتى عندما يكون بعض هؤلاء القليلين مقربين بالنسبة لنا.

في الواقع، فإن بروس واين الناضج، كباتمان، أحياناً ما يتبنى التفكير النفعي عند الاقتراب من مثل هذه المشاكل. تذكر، على سبيل المثال، الوقت الذي سرق فيه الجوكر الإمدادات الطبية واستبدلها بغازه الضاحك القاتل، وهو يتطلع إلى ترك بصمته عن طريق القضاء على مخيم إثيوبي كامل للاجئين. وبعد أن اكتشف باتمان مؤامرة الجوكر، كان عليه اعتراض قافلة شاحنات تحمل الشحنة القاتلة للجوكر. ولكن، باتخاذ قرار ملاحقة الشاحنات، يجب عليه مغادرة روبن (المعروف أيضاً باسم جيسون تود)، مع علمه بأن امكانية أن يتضرر او يقتل على يد الجوكر مرتفعة جداً. في اتخاذ قرار ترك روبن، يتخذ باتمان خيارًا أخلاقيًا بين إنقاذ مئات الأشخاص المعرضين لخطر محدق أو الذهاب نحو صديقه وشريكه، روبن، لمواجهة الجوكر. وهكذا، اختار باتمان منع وفاة ومعاناة العدد الأكبر من الأشخاص؛ وكما يبرر باتمان لنفسه: «لم

يكن لدي أي خيار، حقاً» (A Death in the Family).

من المثير للسخرية أن طريقة التفكير هذه كانت ستحول دون تحول واين إلى باتمان في المقام الأول! ولعل ما يوضحه هذا، على الرغم من ذلك، هو كيف أن من المغري استحضار النفعية عندما تظهر الاختيارات الأخلاقية الصعبة نفسها، خيارات تنطوي على ضرر كبير جداً، وفوري جداً، وملموس جداً، بحيث نشعر بضغط عقلاني هائل للتخفيف من هذا الضرر. لكن نقطة بيتر سينغر هي أن مثل هذه الأضرار تحدث باستمرار في كل مكان حولنا. إن استيعاب هذه الحقيقة يجعلنا نتخذ خيارًا أخلاقيًا صعبًا: هل ينبغي علينا محاكاة "بروس واين" الأصغر وتكريم التزاماتنا تجاه أولئك الأقرب إلينا بينما نسعى لتحقيق مصالحنا الذاتية؟ أو، كما هو الحال مع واين الناضج، أنه يجب أن نكون مستعدين للتضحية برفاهية هؤلاء الأشخاص، بما في ذلك المقربين جداً منا، من خلال محاولة تقديم أفضل خدمة لأكبر عدد من الأشخاص؟

هوامش الفصل الثامن:

1- مايكل نوير وديفيد م. إيوالت "The Forbes Fictional Fifteen"، موقع Forbes.com، تاريخ 20 نوفمبر 2006، 28 سبتمبر 2007. أنظر: http:// www.forbes.com /2006 /11 /20 /forbes-fictionalrichest-tech-media_cx_mn_de_06fi ct15_ intro.html .

2- فيما يتعلق بأساطير باتمان، فإن فهمنا لقرار بروس واين بأن يصبح باتمان نابع من قراءتنا لقصة فرانك ميلر Batman: Year One وفيلم كريستوفر نولان الذي ألهمه، Batman Begins (2005)، والذي يظهر ولاء بروس واين لوالديه القتلى بشكل مشابه.

3- بيتر سينغر "المجاعة، الثراء والأخلاق"، فلسفة وشؤون عامة 1، العدد 3 (ربيع 1972)، الصفحات 229-243.

4- راجع النفعية لجون ستيوارت ميل (Indianapolis: Hackett Publishing 2005).

5- سينغر "المجاعة، الثراء"، الصفحة 241.

6- المرجع الأخير، الصفحة 231.

7- المرجع الأخير، الصفحة 235.

8- لورانس م. هينمان، الأخلاق: نهج تعددي للنظرية الأخلاقية (Belmont CA: Wadsworth 2003)، الصفحة 143.

9- سينغر "المجاعة، الثراء"، الصفحة 235.

10- المرجع الأخير، الصفحة 241.

9

ما الذي قد يفعله باتمان؟
بروس واين كأنموذج أخلاقي

بقلم: ريان اندي رودز وديفيد كايل جوبنسون

نماذج أخلاقية

كيف يمكنني عيش حياة جيدة؟ أحد الإجابات البارزة على هذا السؤال تتضمن نماذج أخلاقية، وهم أناس يجسدون الفضائل الأخلاقية. حيث من خلال دراسة النماذج الأخلاقية يمكننا اكتشاف الفضائل، ومن خلال محاكاة النماذج الأخلاقية، يمكننا أن نعيش حياة جيدة فاضلة. لكن ما هي تلك النماذج الأخلاقية؟ وللبدء، قد نضع قائمة بالرجال والنساء المشهورين الذين عملوا من أجل تحقيق تغيير إيجابي في العالم مثل: يسوع وبوذا وغاندي والأم تريزا والدالاي لاما وغيرهم.

ولكن ماذا عن باتمان، هل يمكن أن يكون على هذه القائمة أيضًا؟[1] إن باتمان، وعلى الرغم من إمتلائه بالانتقام، إلّا أن معظم معجبيه يعتقدون بأنه جيد أخلاقياً. إنه واحد من "الأشخاص الطيبين" والذي كرس حياته لحماية الناس من الأشرار الخارقين مثل البطريق والجوكر وريدلر وباين،

ناهيك عن المحتالين والمتنمرين العاديين في الشوارع. ومثل شخصيات خيالية بطولية أخرى من أمثال السير جالاهاد وروبن هود وموموتارو (من الفولكلور الياباني)، فأن باتمان يحارب باتمان ليجعل العالم مكانًا أفضل. لذا فمن المنطقي أن نفكر بأنه إذا كنّا أشبه بباتمان، فسنكون أشخاصًا أفضل ونجعل من عالمنا مكانًا أفضل أيضًا. ومع ذلك، يجادل بعض الفلاسفة أن الشخصيات الخيالية مثل باتمان لا يمكن أن تكون بمثابة نماذج أخلاقية. وفي هذا الفصل سنرد على اعتراضاتهم ونحاجج بأن باتمان يمكنه بالفعل شغل هذا الدور.

فضائل باتمان

على الرغم من أن معظم القراء لا يحتاجون إلى تذكير، ولكن دعونا نأخذ بعض الأمثلة على كيفية تجسيد باتمان للفضائل الأخلاقية. إن العدالة هدف ثابت لأنشطته، ليس فقط بالمعنى العام لمحاربة الجريمة وحماية الأبرياء، ولكن في مساعٍ أكثر تحديدًا. فعلى سبيل المثال، في Batman Chronicles # 7 (Winter 1997)، حقق باتمان في قضية امرأة مدانة بناء على شكوك في اللحظة الأخيرة حول ذنبها. وفي جزء من قصة ملحمة No Man's land ، قام بعمل نسخ مكررة من سندات الملكية من أجل إيقاف ليكس لوثر من الحصول سندات ملكية مزورة لمعظم مدينة غوثام.[2] وفي فيلم بداية باتمان (Batman Begins) (2005)، تظهر فضيلة باتمان عندما يضحي بسمعته - وبالتالي والده الراحل - من أجل إنقاذ ضيوفه من عنف وشيك. ونرى كرم باتمان في الصناديق الخيرية العديدة التي يمولها، وكذلك في حالات معينة مثل تلك التي ظهرت في Azrael # 2 (مارس 1995)، حيث يعطي حليفه المهزوم - الذي تحول إلى خصم - عدة ملايين من الدولارات للمساعدة في إعادة بناء حياته المحطمة. إن أمثلة الشجاعة

موجودة في كل مكان في شخصية باتمان لدرجة أنه من الصعب اختيار مثال واحد. حيث تظهر من التسلل إلى العالم السفلي، لمجابهة المجانين، الى القفز في الهواء مستعيناً بحبل لإمساك وإنقاذ شخص بريء، عملياً، فأن كل ما يفعله باتمان يتطلب عملياً أقصى درجات الشجاعة.

الإعتراض غير الواقعي

وبدلاً من إنكار أن باتمان هو شخص فاضل، يعتقد بعض الناس بأن تصوير شخصية باتمان غير واقعي لدرجة أن منافسته ومضاهاته مستحيلة. حيث لا يستطيع أحد فعلاً القيام بالأشياء التي يقوم بها، وبالتالي فهو نموذج غير مناسب بالنسبة للسلوك البشري الإعتيادي. وبطبيعة الحال، فهذا الأمر هو أقل إثارة للقلق مع باتمان مما هو مع أبطال خارقين آخرين. حيث أن باتمان يعتبر أكثر واقعية من نظرائه في DC مثل سوبرمان، غرين لانترن (الفانوس الأخضر)، ووندر ومان (المرأة العجيبة). إذ أن باتمان ليس فضائياً، وليس لديه خاتم سحري يخلق أشياءً من قوة إرادته، ولم يكن مباركاً بقوى عظمى من الآلهة. في الواقع، فإن جزءاً كبيراً من جاذبية باتمان ترجع لكونه إنساناً ذكياً للغاية يتمتع بمهارات بدنية استثنائية والكثير من المال، ولكنه مجرد إنسان رغم كل ذلك. وكل "قواه" مستمدة من تدريبه وذكائه والأجهزة والسيارات التي تمكنه ثروته الطائلة من شرائها أو بنائها.

ومع ذلك، لا يمكن محاكاة بعض أعماله بطريقة واقعية. ربما أن قلة قليلة من الناس (إن وجدوا) سيستطيعون تحمل العبء النفسي المتمثل في محاربة القتلة واللصوص والمرضى النفسيين باستمرار دون قول شيء عن البراعة البدنية المطلوبة لذلك. وباتمان هو "أعظم المحققين في العالم"، فهو عادة ما يحل بعض الألغاز التي تترك المفوض غوردون وبقية شرطة غوثام في حيرة. وهو أبرع المقاتلين بالأيدي في العالم، حيث أنه قادر على الإلتحام وهزيمة

العديد من الأعداء المسلحين في وقت واحد. وعلى حد تعبيره الخاص: "إن تفادي إطلاق النار هو أساس كل ليلة من لياليه"، [3] ويمكنه أن يحبس أنفاسه لأربع دقائق أثناء السباحة، [4] وهو لا يبتكر خططاً يسبق فيها أعداءه بخمس خطوات الى الأمام فقط، بل وأن خططه كلها تتضمن "خمس" خطط أخرى للطوارئ، وخمس خطط احتياطية لخطط الطوارئ تلك. [5] وعلى الرغم من كونه ليس ببشري خارق من الناحية التقنية، إلّا أن قدرات باتمان الذهنية والبدنية القصوى تفوق بكثير قدرات معظم البشر.

ومع ذلك، فإن محاكاة نموذج أخلاقي ما لا يتطلب الاستنساخ الدقيق لنشاطات محددة. حيث من الضروري محاكاة فضائله بدلاً من ذلك. انني لست بحاجة إلى أن أشفي المرضى بمعجزة لأعادل فضائل يسوع المسيح. ولكن، وعن طريق مساعدة المرضى بأية طريقة أقدر عليها، سأستطيع أن أعبر عن شفقة مشابهة لتلك التي عنده. وبنفس الطريقة، لا أحتاج إلى التسلل إلى مجمع محصّن وإطلاق سراح سجين سياسي، وحيداً ومن دون سلاح، أو إخضاع مجموعة من المغتصبين، أو إستثمار ملايين الدولارات لتوفير كل المعدات والمعلومات اللازمة من أجل محاكاة فضائل باتمان.. ولكن من خلال نشاطات مثل كتابة رسائل إلى منظمة العفو الدولية، ودعم برامج الدفاع عن النفس للنساء، وتوزيع الطعام على الفقراء مع قوات إنقاذ، سيمكنني محاكاة عدالة وإحسان وسخاء باتمان. قد لا أفعل بالضبط ما يفعله باتمان، ولكن لا يزال بإمكاني تحسين نفسي وحياة الناس من حولي من خلال زرع بذور فضائله.

إعتراض اللغة

وبما أن باتمان هو شخصية خيالية، فيبدو أنه لا يمكن الإشارة إليه عن طريق اللغة. ولأن باتمان ليس حقيقيًا، فالأحكام الصادرة عنه لا تعمل

بالطريقة نفسها التي تعمل بها حول الأشياء الموجودة بالفعل. أنظر في العبارتين التاليتين: (1) «بروس ويليس ثري» و (2) «بروس واين ثري». الجملة الأولى صحيحة لأنها تشير إلى «شيء» موجود بالفعل: وهو الممثل بروس ويليس. ويليس إما أنه يملك أو لا يملك ميزة «الثراء». إن حساب ويليس البنكي هو ما يجعل هذا التصريح صحيحًا أو كاذبًا، إنه صانع الحقيقة في هذا التصريح. وكما هو الحال، فإن حساب بروس ويليس المصرفي ممتلئ تمامًا، لذا فإن البيان صحيح. ولكن إذا لم يكن هناك شخص يدعى «بروس ويليس»، فإن الجملة لن يكون لها صانع حقيقة، فكيف يمكن ذلك؟ فهي لن تشير إلى أي شيء!. لذلك إذا لم يكن بروس ويليس موجودًا، فإن التصريح المتعلق بشأن ثروته لا يمكن أن يكون، لا صحيحًا ولا زائفًا.

لذا يبدو أن الجملة الثانية: «بروس واين ثري»، بالمثل لا تكون صحيحة ولا زائفة. حيث لا يوجد شخص حقيقي قائم يدعى «بروس واين» يرتدي قناعاً وعباءة لزرع الخوف في قلوب المجرمين والأشرار. وعلى هذا النحو، لا يمكن أن نتأكد من صحة أو كذب أن بروس واين غني أو - بدرجة أكبر لأجل نقاشنا - فاضل. إذا لم يكن باتمان موجوداً، فإن الاعتراض سيمر، ولا يمكن أن يكون صحيحاً القول عن باتمان أنه فاضل. وبالتالي، سيكون من الخطأ وضعه في قائمة «النماذج الأخلاقية».

ومع ذلك، فإن هذه الحجة لا تأخذ في الحسبان سمة مهمة لكيفية استخدامنا للغة. صحيح أن باتمان لا وجود له بالطبع: حيث لا يوجد ملياردير فعلي يدعى بروس واين والذي يحارب الجريمة بمزيج من فنون الدفاع عن النفس، والعمل التحقيقي، ومجموعة مذهلة من الأدوات. ومع ذلك، وفي الحديث عن شخصية باتمان، لا يزال من الصحيح أن نقول أن اسم باتمان الحقيقي هو بروس واين، وقد قتل والداه عندما كان صغيراً، وهو يرتدي بدلة مع قناع وعباءة عندما يحارب الجريمة، وما إلى ذلك وهلم

جـرا. إذا نفى شـخص ما أو عارض هذه الادعاءات، فسـنقول إنه يفتقر إلى المعرفـة حول هوية باتمان بحق. لذا وعلى الرغم من عدم وجود باتمان فعلياً، فإن تلك التصريحات عنه صحيحة، لكن ليس بالمعنى الحرفي للكلمة.

ولكن ما الذي يمكن أن يعنيه: «غير صحيح حرفياً»؟ أليس ذلك مماثلاً للقـول بأنـه ليس صحيحًـا اطلاقاً؟ ليس تمامـاً. بالنظر في تصريـح «التنانين تنفـث النيران» يبـدو هذا القول صحيحًا على الرغم من عدم وجود التنانين. لمـاذا؟ حسـناً، عندما نقـول «التنانين تنفـث النار» فنحن لا نعنـي حرفياً أن: «هنـاك على الأقل كائنا حيـا واحدا يدعى تنين وهذا المخلـوق ينفث النار». نحـن نعرف جيداً أن الفهـم الحرفي للجملة غير صحيـح. ولكننا في الحقيقة نعني شـيئًا مثل «إن تصورنـا للتنانين يتضمن نفثها للنـار»، وربما يعني ذلك بدقة أكبر «إن القصص التي تحتوي على تنانين تصورهم كنافثين للنار» وهذا صحيح!.

لـذا وبالضد من هـذا الاعتراض، عندما نقـول «التنانين تنفث النار»، بالتـالي فإننـا لا نلجـأ إلى الإشـارة إلى أي شيء حقيقي، ولا نفشـل في قول شيء قـد يكـون صحيحًا أو خطأ. نحن نشـير إلى كيان قائـم بالفعل: وهي القصص حول التنانين. فقولنا: «التنانين تنفث النار» يقول شيئًا عن محتوى تلـك القصص. والفرق الرئيسي بين هذيـن النوعين من الجمل - «التنانين تنفـث النـار» و «بـروس ويليس ثـري» - هو أن ما يشـير إليـه الأول، أي «التنانـين»، لا يظهر صراحةً في موضوع الجملـة. وبالنظر إلى أننا نفهم مثل هذه التصريحات، يجب أن نعرف بالفعل أن العبارة لا يُقصد بها أمراً حرفياً، بل تعني، بدلاً من ذلك، شيئاً آخر.

وبنفـس الطريقـة، عندمـا نقـول بأن «باتمـان فاضـل»، فإننـا لا نعني حرفياً «إن أحد الأشـياء الموجودة في الكون هو شـخص يدعى باتمان وهذا الشـخص هـو شـخص فاضل». وبـدلاً من ذلك، فإننـا نقول شـيئاً يتعلق

بقصص باتمان: حيث يصوّر باتمان بطريقة فاضلة داخلها. وهذا في الواقع صحيح. وهكذا يبدو - على الرغم من عدم وجود باتمان في العالم الواقعي - بأنه لا يزال صحيحًا أنه فاضل. وفي هذا الصدد، تبدو أن حقيقة كونه شخصا خياليا ليس لها أي تأثير.

إعتراض صيغة المبالغة

إن هنالك اعتراض آخر محتمل على اعتبار شخصيات خيالية مثل «باتمان» كنماذج أخلاقية، وهو أنه كما تظهر مهارات باتمان البدنية والعقلية من قبل الكتّاب والفنانين لتكون أكبر بكثير من تلك الخاصة بمعظم الناس، فيمكن أيضًا أن ترتفع فضيلته إلى أبعد مما يستطيعه أي شخص عادي. وفي حالة النماذج التاريخية في العالم الحقيقي مثل يسوع، بوذا، الأم تيريزا، غاندي، والدالاي لاما، يجب أن يكون المثال ممكناً تحقيقه لأن النماذج نفسها قد أرتقت إليه بالفعل. والحجة هي أن الشخصيات الخيالية غير مناسبة كنماذج، ليس لأنها تفتقر إلى الفضيلة، ولكن لأن كُتّابهم يمكن أن يمنحوهم الكثير من الفضيلة بحيث لا يستطيع أحد تحقيق معاييرهم المستحيلة.

ومع ذلك، فإن هذا الاعتراض قد فشل. فالعديد من الأمثلة التاريخية لم تكن فاضلة كما نتخيلها جميعاً. في الواقع، فنحن نجرؤ على القول، عندما يتعلق الأمر «بالنماذج التاريخية»، أن معظم الأشخاص الذين نضعهم على «قائمة النماذج» في معظم الأحيان لا يعتبرون تاريخيين على الإطلاق، بل ومبالغ في شخصياتهم كأشخاص تاريخيين (أسطوريين). وعلى الرغم من أن بوذا كان فاضلاً بلا شك، إلا أن الكثير من خطاباته وقواعده وقصصه كانت مزخرفة ومبالغا فيها خلال 400 عام من التقاليد الشفوية التي سبقت تسجيلها تحريرياً. فعلى سبيل المثال، تُعتبر حكاية علامات بوذا

الأربعة في الغالب رمزية، وليست تاريخية حرفياً.[6] وعلى الرغم من انقضاء وقت أقصر بين حياة يسوع وكتابة الأناجيل، يمكن قول الشيء نفسه عن سجلات حياته وتعاليمه. وحتى عندما نفكر في سقراط – وهو نموذج مفضل للفلاسفة – فإننا نحمل تصوير أفلاطون له على الرغم من معرفة أنه انعكاس دقيق تقريباً لما قاله وفعله بالفعل. وهذا هو الحال مع النماذج الحديثة أيضاً. إذ ربما حتى غاندي والأم تيريزا لم يكونا بالوضوح الذي جسدهما فيه "التاريخ" تماماً.[7]

لذا، فإن "نسخة" حياة الشخص التي تؤهله لقائمة النموذج الأخلاقي ليست تاريخية بشكل تام. فأولئك المتواجدون في القائمة هم جزئياً على الأقل خياليين مثل باتمان نفسه. ولكن هذا لا يعني أن بوذا، يسوع، غاندي والأم تريزا التاريخيين كانوا أشخاصًا سيئين. بالطبع لا! فلقد كانوا من أهل الخير، كل ما في الأمر، هو أن الفكرة التي كونّاها عنهم كنماذج أخلاقية قد لا تكون دقيقة تاريخياً. بالإضافة إلى ذلك، فأن هدفنا ليس إزالة النسخ المبالغ بها من تلك الشخصيات التاريخية من قائمة النماذج الأخلاقية. بل على العكس تمامًا: يجب تركها كما هي! الفكرة هي أن الزخرفة الموجودة في حياة قدوة لا تؤثر على مسألة ما إذا كان ينبغي محاكاة هذا الشخص أم لا. لنفترض أن بوذا لم يجلس تحت شجرة تين الهند ليبحث عن التنوير بعد وقت قليل من رؤيته، بتتابع، رجل عجوز وشخص مريض وموكب جنائزي وحكيم. فأن هذا لا يعني أن التنوير مفهوم تافه، كما أنه لن يقلل من قيمة بحث بوذا عنه. وبنفس الطريقة، فعلى الرغم من عدم ظهور أي شخصية تاريخية كان قد أبدت شجاعة وعدالة وما شابهها على ذات الطريقة التي أظهرها باتمان تحديداً، إلّا أننا لا يزال بإمكاننا تحسين أنفسنا من خلال محاكاة السمات الشخصية التي يعرضها. إذاً، فإن باتمان، وعلى الرغم من عدم كونه شخصية تاريخية، فهو يعتبر قدوة أخلاقية.

الى الدفاع: معلومات غير كاملة

حتى الآن، قمنا بمعالجة الاعتراضات التي تشير إلى أن الأمثلة غير الخيالية هي أفضل من الأمثلة الخيالية. لننظر الآن إلى حجة توحي بالعكس، وهي أن الشخصيات الخيالية (على الأقل بمعنى واحد) تمثل قدوة أخلاقية أفضل. وكما ناقشنا، فإن الحقيقة حول الأمثلة الأخلاقية التاريخية غالباً ما تكون أقل إثارة للإعجاب من المثالية المبالغ فيها، ولكن العديد من هؤلاء الأشخاص ما زالوا يستحقون المحاكاة. ومع ذلك، فمن الواضح أن هناك نقطة لن يكون من الممكن عندها الاستمرار في النظر إلى شخص ما على أنه مثير للإعجاب.

تخيلوا مستشارة للشباب المضطربين، التي جعلها تعاطفها وإصرارها وبصيرتها العميقة عضوة محترمة في المجتمع وبطلة شخصية للأطفال الذين ساعدتهم. إذا اكتشفنا أنه على الرغم من بذلها قصارى جهدها، فإن أبناءها يعانون من إضطرابات شديدة ويخالفون القانون بإستمرار، قد يتغير تقييمنا لها، ولكن ربما سنستمر بإعتبارها جديرة بالثناء والمضاهاة. ومع ذلك، إذا اكتشفنا أنها حققت معدل نجاح منخفض مع المضطربين واكتسبت سمعتها عن طريق نسب عمل الآخرين لها زوراً، فإننا لن نستنتج من ذلك فقط أنها تخفق في أن تكون نموذجًا أخلاقيًا بل وأنها شخص فاسد أيضًا. القصد من هذا المثال هو أننا ما لم نكن نعرف كل شيء عن حياة شخصياتنا، فإننا نواجه خطر إعتبار شخص ما بأنه فاضل رغم كونه ليس كذلك في الحقيقة. وحتى إذا لم يكن الشخص المعني سيئًا اخلاقياً، كما في المثال أعلاه، فربما لا نزال نكتشف أن أولئك الذين اعتقدنا أنهم أبطالًا كانوا في الحقيقة غير إستثنائيين أخلاقياً.

ولأن باتمان شخصية خيالية، فإنه لا يخضع لهذه الإشكالية. حيث يمكننا معرفة ما يفعله معرفة تامة، ليس ذلك فقط بل وجميع حالاته الداخلية

ودوافعه أيضًا. إذا كان الشخص الحقيقي يساعد شخصا ما في حاجة، قد نتساءل عما إذا كان قد فعل ذلك لأنه عطوف حقًا أم فقط لأنه يخدم مصلحته الشخصية. مع باتمان، يمكننا أن نقرأ بالونة أفكاره في القصص المصورة ونحسم القضية. إذا سمعنا أحدهم يثني على النبالة والشجاعة، يمكننا أن نتساءل عما إذا كانت أفعاله تطابق أقواله، أم أنه منافق. مع باتمان يمكننا ببساطة قراءة قصصه ورؤية كل أفعاله بأنفسنا. إذا كان شخص ما فاضلاً الآن، فيمكننا أن نتساءل عما إذا كان سيضل فاضلاً في المستقبل، أو ما إذا كان عزمه سيخفق في يوم من الأيام وسيسقط من مقامه. مع باتمان، يمكن للكتّاب التأكيد بأنه سيبقى دائماً صادقاً في مهمته. ولأجل كل هذه الأسباب، فإن باتمان كشخصية خيالية هو بمثابة نموذج أخلاقي أفضل من الناس الحقيقيين. وعلى عكس الناس الحقيقيين الذين يعانون من نقاط الضعف البشرية، يمكن أن يستمر باتمان إلى الأبد كشخص فاضل دون كلل أو ملل. وكما يقول بروس في Batman Begins: "كرجل فأنا من لحم ودم، بالإمكان تجاهلي أو تدميري. ولكن كرمز؟ كرمز باستطاعتي أن أكون غير قابل للافساد. باستطاعتي أن أكون أبدياً".

ولكن أيضاً..

وعلى نفس المنوال، يعاني باتمان من ضعف لا يعانيه الناس التاريخيون، نوع مختلف من المعلومات غير المكتملة. فمع الكائن البشري، هناك شخص واحد فقط يقرر ما هي الإجراءات التي يتخذها، وماهيته الحقيقية تتحدد بشدة بما يفعله بالضبط. بالإضافة إلى ذلك، فعندما تنتهي حياته، لا مجال لتغيير صفاته وأفعاله، سواء كانت فاضلة أو فاسدة، فإنها ستبقى على ما هي عليه. أما مع باتمان وغيره من الأشخاص الخياليين، فليس هناك فقط إمكانية دائمة للتغيير، بل والعديد من الأشخاص الذين يرسمون الشخصية

وبإمكانهم هندسة هذا التغيير. لقد لاحظنا للتو أن الكتّاب يمكنهم التأكيد بأن باتمان سيضل دائمًا صادقًا في مهمته، ولكن ليس هناك ما يضمن أنهم سيفعلون ذلك. فكلما ازدادت قصص باتمان المكتوبة من قبل المزيد والمزيد من الناس، كلما ازدادت فرصة أن لا تمثل هذه القصص شخصية ثابتة متماسكة، ناهيك عن تلك التي تستطيع أن ترقى دائماً إلى نفس معايير التفوق الأخلاقي.

وهذا لا يقتصر على صحة القصص المستقبلية المحتملة فحسب، بل ويمثل مشكلة بالنسبة للقصص السابقة أيضاً. ففي حين أن العديد من ميزات شخصية باتمان شائعة إلى حد كبير بين الجميع، إلا أن هناك استثناءات. فعلى سبيل المثال، معظم قصص باتمان تصوّره رافضاً لاستخدام الأسلحة النارية، ودائماً ما يرفض خيار قتل خصومه. ومع ذلك، فعندما تم إبتكاره لأول مرة، استخدم باتمان اسلحةً ناريةً وكان لديه القليل من الشكوك حول تطبيق العدالة بقتل المجرمين الذين يقاتلهم. وهنا ينشأ اعتراض خطير للغاية وهو أنه: لا يمكن أن يكون باتمان بمثابة نموذج أخلاقي، لعدم وجود طريقة لاختيار باتمان الحقيقي من بين البدائل المتنافسة والفعالة بنفس القدر. لذا، كيف سيمكن الرد على هذا الاعتراض؟.

لنحاول أولاً استبعاد الحكايات التي لا تعتبر جزءًا من سلسلة «باتمان» المستمرة. فبعض القصص المصورة ليست جزءًا من الاستمرارية السائدة للسلسلة، ولكنها تعمل فقط على تصور الشخصيات بطريقة ممتعة وطرق مختلفة. وفي عالم DC، عُرفت هذه القصص باسم حكايات "Elseworlds (عوالم أخرى)" والتي جرت إما في جداول زمنية بديلة أو على أراض بديلة. وفي حالة باتمان، تتضمن هذه أعمالا مثل "فارس ظلام الطاولة المستديرة Dark Knight of the Round Table" (1999)، والتي تضع بروس واين في كاميلوت، و"قلعة الوطواط Castle of the Bat" (1994)، حيث

يظهر بروس كشخص يشبه دكتور فرانكنشتاين. ومع ذلك، فإن استبعاد القصص غير المتعلقة بالعالم الرئيس غير كافية للرد على هذا الاعتراض لسببين. أولاً، لإن هذا الاستبعاد لن يحل مشكلة الإصدارات المستقبلية ضمن الاستمرارية السائدة، والتي يمكن أن تؤدي إلى تغيير الشخصية (كما رأينا في باتمان "الأهدأ والألطف" بعد أحداث الأزمة اللانهائية Infinite Crisis و 52). وثانياً، أنه تم تصوير باتمان في بعض القصص التي رغم كونها تعتبر خارج الاستمرارية السائدة، إلا أنها نجحت بالتقاط وتصوير شخصية باتمان بشكل ممتاز. لم يُثنى على قصة فرانك ميلر The Dark Knight Returns (1986) لتصويره لباتمان فقط، بل وكواحدة من أهم ما نشر في القصص المصورة له. وبالمثل، في حين أن باتمان: سلسلة الرسوم المتحركة (1992 – 1995) هي تجسيد منفصل عمّا موجود في القصص المصورة، لكنها كانت مقبولة وممتعة لمحبي الشخصية لمحافظتها على الخطوط العريضة لشخصية باتمان. لذلك يجب علينا البحث عن إجابة أخرى.

قد يكون هناك دليل في عبارة: "تجسيد باتمان كشخصية طيبة". إن كان هناك طريقة لتجسيد باتمان كشخصية طيبة، فيجب أن تكون هناك طريقة لتجسيده كشخصية شريرة أيضاً، ولكن كيف نحدد هذا الاختلاف؟ هل يمكن أن تكون تلك مسألة بسيطة وتخص غالبية المعجبين؟ لا، لأنها إذا ما كانت مبنية على الأغلبية، فقد تتغير، ونحن نبحث عن "باتمان حقيقي" مستقر. ربما يكون إذاً باتمان الحقيقي هو أياً ما يتفق مع تصويره الأصلي. ولكن، وكما رأينا أعلاه، سيكون هذا مختلفًا عما قد يعتبره معظمنا اليوم بعض الخصائص الأساسية لباتمان، الخصائص التي يجب أن يمتلكها باتمان لكي يكون باتمان. ويبدو أن هذا هو ما يركز عليه السؤال بأكمله: هل يمكن لشخصية خيالية مثل باتمان أن تمتلك خصائص أساسية؟ وإذا كان الأمر كذلك، إذاً كيف؟.

باتمان الأيقونة

من المنطقي أن نتحدث عن خصائص باتمان الأساسية، لأن باتمان أصبح رمـزًا. صحيح أن تصويره عندما تم إنشـاؤه لأول مرة كان مختلفًا عن تصور معظمنا الآن. ولكن، مثل سوبرمان والعديد من الأبطال الخياليين الآخرين داخـل وخارج القصـص المصورة، فقد نما مفهوم باتمان ونضج إلى شيء أكبر وأكثـر إختلافـاً. تلك المفاهيم الجديـدة الناضجة لتلك الشـخصيات هي ما أصبحت أيقونياً كجزء من أساطيرنا الحديثة. وعلى هذا النحو، فهناك شعور قـوي جداً جعل هذا النمـوذج هو باتمان الحقيقي. فهناك قوة نفسـية في هذه الشـخصية - تلـك التي تجذب وعينا الأدبي بصفتهـا نموذجا أصليا - وهذا هو السبب في أن هذه الشخصية قد صمدت وأستمرت ولا زالت تلهمنا.

وهنـاك مجـال بالطبع للنمو المسـتمر بالإسـتمرار بكتابة قصـص باتمان المستقبلية. وكما هو الحال مع أي شخصية ثابتة في الأدب، يمكننا أن ننظر إلى هذا النمو في سـياق الحفاظ على جوهر الشـخصية. وكـما أن تعلّم معلومات جديدة كافية عن الشـخص يمكن أن يجعل من المستحيل مواصلة النظر إليه كنموذج أخلاقي إذا ما كانت التغييرات التي طرأت على شـخصيته شـديدة بما فيه الكفاية، فلن نتمكن من الاستمرار بدعوته بـ»باتمان». وطالما أن باتمان موجود كأيقونة، وليس فقط كشـخصية، فقد أصبح يتمتع بمكانة أسطورية بالنسبة لنا. وعلى هذا النحو، تطوّر إلى ما نستطيع أن ندعوه بحق «شخصيته الحقيقية». إن الشخصية المتسقة الناتجة، البطل الأدبي الحديث، يمكنه ارشادنا لنصبح فاضلين بشكل أكبر.[8]

باتمان هو قدوة أخلاقية

إن الطبيعة الخيالية لباتمان لا ينبغي أن تعوق سـعينا ورغبتنا في أن نكون

مثلـه. فبعـد كل شيء، فإن القصـص الخيالية تتضمـن عِبَرا أخلاقيـة معينة، أوليس كذلك؟ ففي كثير من الأحيان، تكون بمثابة دعوة للتصرف كما تفعل الشـخصيات البطلـة في القصة. ومثل نماذجنا «التاريخيـة»، قد يكون نموذج باتمان مثاليًا وبعيدًا عن متناولنا. لكن مع ذلك، فمن خلال دراسة ومضاهاة باتمان، يمكننا تطوير صفات الشـجاعة والعدالة والإحسـان وما شـابه ذلك في أنفسـنا. ففارس الظـلام الغامض الآتي من تلك المدينـة الخيالية يمكن أن يساعدنا في الواقع على عيش حياة جيدة وفاضلة في عالمنا الحقيقي.

هوامش الفصل التاسع:

1- وكما يقول في The Simpsons' Comic Book Guy "ما الذي كان باتمان ليفعله؟" (أنظر مايك غروينغ، "قمصان من الجزء الخلفي للخزانة" في Comic Book Guy ' s Book of Pop Culture [New York: Harper Paperbacks 2005].)

2- قصة No Man's Land، المجلد 5 (2001).

3- العدد #27 من Gotham Knights (مايو 2002).

4- العدد #663 من Detective Comics (يوليو 1993).

5- العدد #92 من Shadow of the Bat (ديسمبر 1999).

6- راجع كتاب "الفلاسفة الآسيويون الطبعة الثالثة لجون م. كولر وباتريشا جوسي كولر (Upper Saddle River NJ: Prentice Hall 1998)، الصفحات 136-137. إدعاءات مماثلة قدمها غاناناذ أوبيسيكيري. أنظر "الزهد التأملي البوذي؛ مقتطفات من محاضرة ويليام جيمس بين عامي 2003-2004" على: http://www.hds.harvard.edu/news/bulletin/articles/james_04.html.

7- أقرأ "الموقف التبشيري: الأم تيريزا في النظرية والتطبيق" لكريستوفر هيتشنز (London and New York: Verso 1995)؛ وكتاب آروب تشاترجي "الأم تيريزا: الحكم النهائي"، (Lake Gardens Kolkata India: Meteor Books 2002)؛ وكتاب "غاندي: خلف قناع التأليه" لـج. ب. سميث (Amherst NY: Prometheus Books 2004).

8- للمزيد حول "الإصدارات" المختلفة من باتمان خلال السنوات وعبر أشكال مختلفة من الإعلام، أقرأ مقال جيسون ساوثورث في الفصل الـ12 من هذا الكتاب.

الباب الرابع

من هو باتمان

(هل هذا سؤال خادع؟)

10

تحت القناع

كيف يمكن لأي شخص أن يصبح باتمان

بقلم: ساره ك. دونافان ونيكولاس ب. ريكباردسون

إذاً، هل تريد أن تصبح باتمان؟

حسنا، هل تريد ذلك؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا يمكنك أن تعتقد أن هناك أي عمق حقيقي لماهيتك كشخص. عليك تقبّل عالماً بلا دين أو قوة عليا من أي نوع. وعليك التخلي عن قانونك الاخلاقي إن كان يستند إلى الدين أو الرب. وعليك أن تؤمن بعين قلبك أنك وحدك من يقرر مصيرك. وعليك أن تعيش بين المجرمين. وأن ترتدي زيا أسود وضيقا يجعلك شبيها بالوطاويط. إذا كنت ترغب بذلك - أو إذا كنت فضوليًا على الأقل -

فاستمر بالقراءة إلى النهاية. (أمّا إذا لم يكن الأمر كذلك، فاقرأ على أية حال، فقد دفعت نقوداً مقابل الكتاب بالفعل!).

سننظر في ثلاثة أعمال تظهر بناء باتمان لنفسه في حياته المهنية المبكرة والمتوسطة والمتأخرة: Batman: Year One (1987)، Arkham Asylum (1989)، The Dark Knight Returns (1986). وبالاستناد إلى آراء فريدريك نيتشه وميشيل فوكو حول الهوية والقوة، سنرى أن هوية باتمان وواقعها قد تم بناؤهما، وأن فارس الظلام مدركٌ لهذا البناء ويعتنقه.

فليتقدم باتمان «الحقيقي» رجاء

ولكن قبل أن نتمكن من البدء في إعطائك المعلومات التي تحتاجها لكي تصبح فارس ظلام، نحتاج إلى وضع بعض القواعد الأساسية استنادًا إلى أفكار فريدريك نيتشه (1844 - 1900) [1] وميشيل فوكو (1926 - 1984). [2] وسننظر أيضاً إلى أحد فروع الفلسفة التي ينقدونها: الميتافيزيقا، والتي تتعامل مع ما هو أبعد مما يمكن أن نلمسه، مثل الله، الروح، القيم الأخلاقية الموضوعية، أو الحقائق المطلقة والعقلانية النقية.

يمكننا تلخيص أفكار نيتشه وفوكو عن طريق إدراج بعض النقاط القصيرة. حيث أنهم لا يعتقدون بأن للبشر أرواحا تحدد من نحن أو ما سنصبح عليه. [3] ولا يوجد هناك إله أو آخرة - حيث أنك تموت مع جسدك. و لا علم الأحياء أو علم الوراثة يحدد أو يشرح بشكل صحيح ما ستسميه هويتك (أو الذات، أو الشخصية، اختر تصنيفك المفضل لأنهم جميعًا غير ذي صلة الآن!). حيث أن من أنت هو نتاج بيئتك وكيف تفهم وتهيئ نفسك في تلك البيئة. ولا يوجد معنى عميق لحياتك (والبعض منكم ربما قد أدرك هذا بالفعل). أنت لست أكثر من الهويات المتعددة (والمتضاربة أحيانًا)

التي تعيشها أو تصبحها كل يوم أو حتى لحظة بلحظة. ووفقاً لنيتشه وفوكو، فإن صراع حياتنا اليومية يعمينا عن رؤية هذه الحقائق، وهذا الافتقار إلى الرؤية يحدد ويقيد حريتنا. ولكن باتمان قادر على رفع هذا الحجاب واعتناق هذه الحقائق.

دعونا نتوقف لثانية واحدة لنوضح قضية اللغة. إننا عندما نتحدث عن قضية خلق بروس واين لباتمان، فأننا لا ندعي أن باتمان هو بروس واين، نحن ببساطة نستخدم هذه اللغة لأنها أسهل طريقة لفهم ما نتحدث عنه. فرضياً، يمكن أن يكون باتمان قد خلق بروس واين، بحيث أن باتمان لن يكون واين أكثر من كون واين باتمان. وبإتباع نيتشه وفوكو، فنحن نعتقد أن كلاً من بروس واين وباتمان هما مشهدان ظاهريان. إننا نرفض فكرة وجود بعض الذات "الحقيقية" داخل واين أو باتمان والتي تربطهما مع بعضهما البعض. حيث من الواضح أن الهويتين تتداخلان وتعيان بعضهما البعض من خلال الذاكرة، ولكن هناك الكثير في هذا الأمر أكثر من مجرد ذلك. [4]

وكما يوضح فوكو في كتب مثل تاريخ الجنسانية: لا توجد مقدمة وهويات وأجساد ومعرفة في حالة نقية خارج التاريخ وعلاقات القوة. نحن لا نولد مع الهوية. الهويات هي منتجات القوة (وهذه القوة يمكن أن تكون هي قوة الدولة أو المجتمع) أو العلاقات القوية (مثل العلاقة بين باتمان والجوكر). يطالبنا فوكو بفهم جميع جوانب حياتنا من خلال "تعريف" محدد للقوة. ويركز بشكل خاص على فكرة اننا ودون وعي منا محكومون بقواعد وقوانين وأعراف اجتماعية.

إن الكثير منا يتبع القواعد دون التشكيك فيها، أو حتى معرفة أننا نتبعها أساساً. والأمر الأكثر إثارة للاهتمام هو أن الأفراد ينشئون قواعد دون السؤال حول سبب قيامهم بذلك. وبالإنتقال إلى عالم باتمان، يمكننا أن نفكر في مثال "ذي الوجهين"، والذي يتخذ القرارات بناء على رمي العملة

النقدية وسقوطها على أحد الأوجه. ففي مصحة آركام، عندما يعيد باتمان العملة إليه، يستخدمها ذو الوجهين لتقرير مصير باتمان. وحتى الجوكر نفسه يتبع قاعدة معينة. وبتتبع القصة المصورة ذاتها، يضع الجوكر قواعد خاصة لباتمان عندما يكون في المصحة، ويعطيه ساعة واحدة للاختباء، ويتبع باتمان هذه القاعدة التعسفية. ووفقًا لفوكو، فإن إتباع القواعد يؤدي إلى بناء الهوية الشخصية.

وبالمثل، فإن هوية بروس واين المشيّدة تعكس حياته الغنية. فعندما كان طفلاً كان محميًا من واقع الحياة القاتم في غوثام، فقد عاش مع والدين أحباه، ومن الواضح أنه عاش طفولة خالية من الهموم. لكن سرعان ما أصبح واين ضحية للظروف السيئة، فقد أيقظه مقتل والديه على طبيعة العالم الشرير والفوضوي من حوله. في Batman: Year One يصف ذلك اليوم بأنه اليوم الذي "غادرت المشاعر فيه كل حياتي". وكما نرى في مصحة آركام، فإن الولد الصغير الذي رأى والديه يقتلان، والذي سيصبح في نهاية المطاف باتمان، قد فقد الثقة بالقواعد والمجتمع المتحضر. وكشخص بالغ، قرر واين التوقف عن الخوف وإنشاء قواعده الخاصة.

بناء باتمان

في Batman: Year One، شاهدنا باتمان يخرج للوجود. قصة خلق واين لباتمان تخبر بالكثير. فباتمان ليس نوعا من القوة البطولية المتأصلة في واين لتظهر بأوقات الحاجة. ولنفكر في ثلاثة أمثلة من Year One والتي تُظهر قرار واين الواعي بخلق هوية باتمان.[5]

أولاً، عندما يتدرب بروس واين في منزل عائلته قبل خلق باتمان، يقول: "لست جاهزًا. لدي الوسائل والمهارة. . . .ولدي مئات الأساليب، ولكن

شيئا ما مفقود. شيء ما غير صحيح". ثانياً، وبعد أول محاولة فاشلة للدفاع عن فتاة صغيرة ضد قوادها، بدأ بوضع يده على ما هو مفقود. عندما كان يفكر في أخطائه خلال ذلك المساء، قال: "الإله. . . الخوف من الإله . . . الخوف. . . يجب أن أجعلهم يخافون". وبينما كان يجلس في منزله مصاباً بجروح خطيرة ويتساءل كيف يزرع الخوف في نفوس الآخرين، يصطدم وطواط بنافذته محطماً إياها، ثم يقول: "نعم، أبي، سأصبح وطواطاً"، لتولد فكرة باتمان بعد ذلك. ثالثًا، يبدأ واين في ارتداء زيه وممارسة عمله كفارس الظلام. وكما قال مفوض الشرطة جيم غوردن، فإن باتمان يعمل "ماضياً في طريقه من الجريمة على مستوى الشارع إلى المستويات العليا، من مدمن المخدرات المخرب إلى المتعهد إلى المورد، وعلى طول الطريق وصولاً لأي رجل شرطة فاسد قد يساعد في هذه العملية برمتها". ما زلنا نشعر بتردد واين عندما يقتحم حفلة في قصر العمدة من أجل زرع الخوف في قلوب السياسيين الفاسدين: "لقد تم اختبار الزي والأسلحة، وحان وقت الجدية. والخطوة القادمة هي التوجه إلى قصر العمدة".

إن هوية باتمان هي نتاج لأفعال. سيتفق كل من نيتشه وفوكو على أن الهوية دائمًا ما تكون قيد الإنشاء وبالتالي قادرة على إعادة البناء جذرياً. عندما شهد واين مقتل والديه، كانت لديه الموارد المالية الكافية لمغادرة غوثام إلى الأبد. ومع ذلك، فقد اختار أن يبقى وأن يعيد بناء نفسه جسدياً وعقلياً وعاطفياً ليصبح باتمان.

مصحة آركام وبناء الحقيقة

إذا كنت قد وصلت إلى هذا الحد في فصلنا هذا، فأنت جاد بالفعل في أن تصبح قوة انتقام. علينا الآن أن نكشف عن معلومة أساسية أخرى وهي: لا توجد حقيقة مطلقة. ينتقد نيتشه وفوكو الفلاسفة التاريخيين الذين

يصرون على وجود حقائق مطلقة عن الطريقة التي يسير بها العالم حقاً، ومن نكون كأفراد، وكيف ينبغي لنا أن نعيش. وبالنسبة للفيلسوفين، فأن الذين يملكون القوة هم الذين يقررون ما يمكن اعتباره حقيقة. وكما يقول نيتشه في الفلسفة والحقيقة: «ما هي الحقيقة إذن؟ هي مجموعة متحركة من الاستعارات، والمجازات، والتجسيمات».[6] وبنفس الطريقة التي يعتقد نيتشه بها أن المسيحيين جعلوا الله في صورتهم ولكنهم قالوا بعد ذلك أن الأمر حدث بالاتجاه الآخر، يعتقد نيتشه أن البشر يبتدعون الحقائق ولكنهم يتظاهرون بأن الحقيقة موجودة خارج عقولنا لكي يتم اكتشافها.

وبالتوافق مع رؤية نيتشه الأساسية حول الحقيقة، يطبق فوكو نفس هذا التحليل على القضايا الاجتماعية الأخرى.[7] حيث يجادل فوكو بأننا نقسم تجاربنا إلى قسمين، وهي طبيعية وشاذة. يتم إنشاء التجربة الطبيعية، ولا يمكنها أن توجد بدون "الشاذة" (التي يتم إنشاؤها أيضًا). على التجربة "الشاذة" أن تتجدد بإستمرار من أجل إسناد "الطبيعية".

دعونا نأخذ منطق فوكو حول العلاقة المبنية والتي تعتمد بشكل متبادل بين الفئات كالطبيعية والشاذة ونطبقها على مصحة آركام، ولتحل محل فئات الطبيعية والشاذة مصطلحات الـ"عاقل" والـ"مجنون". وبقبول أن فئتي العاقل والمجنون قد تم إختلاقهما، فهما بالتالي فئات غير مستقرة بطبيعتها، لذا دعونا نركز على كيفية انتاج هاتين الفئتين لهوية كل من الجوكر وباتمان على التوالي. إذ في حين أن معظم الناس يعتبرون الجوكر مجنونا وباتمان عاقلا - وقد قلنا معظم الناس يعتبرونهم كذلك - فقد شككت مصحة آركام بهذا، مسلطة الضوء على الموضوعات الأكبر التي يتم بناؤها من قبل الهوية والواقع على حد سواء.

في مصحة آركام، قام النزلاء حرفياً بالسيطرة على المصحة. وفي صفقة لإطلاق سراح الرهائن، يدخل باتمان المصحة ويواجه أشهر من قام

بملاحقتهم والقبض عليهم من المجرمين سابقاً. بعض من موظفي المصحة يبقون هناك طواعية، وتشرح الطبيبة النفسية روث أدامز لباتمان العلاجات التي مر بها أشرار من أمثال "ذي الوجهين". وعندما يشير باتمان إلى أن العلاج لم يكن له أي تأثير على الجوكر، تقول آدامز أنه قد لا يكون من الممكن تعريف الجوكر بأنه مجنون. حيث تقول:

"من الممكن جداً أننا قد نكون ننظر إلى نوع من العقلانية العليا هنا. تعديل جديد ورائع للإدراك الإنساني، أكثر ملاءمة للحياة الحضرية في نهاية القرن العشرين. . . . وعلى عكسنا أنا وأنت، يبدو أن الجوكر لا يتحكم في المعلومات الحسية التي يتلقاها من العالم الخارجي. . . . فهو يمكنه فقط التعامل مع هذا الوابل الفوضوي من المدخلات من خلال مجاراة التيار. . . .ليست لديه شخصية حقيقية. . . . حيث يقوم بخلق نفسه كل يوم. إنه يرى نفسه على أنه سيد الفوضى، والعالم بنظره مسرح للعبث".

الجوكر هو مثال متطرف وغير مرغوب فيه للنظرية التي نوقشت سابقاً عن الهوية. ومع ذلك، يوضح تحليل الدكتورة آدامز للجوكر بأن صفة الـ"مجنون" مبنية على تعريف المجتمع للجنون. فالجوكر مجنون فقط لأن قواعد غوثام (التي هي حقائق مبنية) قد وصمته على هذا النحو. كما تلمح آدمز بأنه في مجتمع مع قواعد مختلفة إلى حد كبير عن التي في منطقتنا قد يمكن اعتباره عاقلاً.

إنه دورك، باتمان..

وبنفس الطريقة التي يتم فيها التشكيك في جنون الجوكر، كذلك سيتم التشكيك بسلامة باتمان العقلية. (تخيل ذلك!) تبدأ مصحة آركام بالحوار التالي من قصة لويس كارول «مغامرات آليس في بلاد العجائب» حيث تقول

آليس:

- «لكنني لا أريد الذهاب بين المجانين».

- تجيب القطة: «أوه، لن تستطيعي تفادي ذلك. نحن جميعًا مجانين هنا. فأنا مجنونة، وأنتِ مجنونة».

- آليس: «كيف تعرفين أنني مجنونة؟»

- القطة: «يجب أن تكوني كذلك وإلا ما كنت لتأتي هنا».

لاحظ أن هذا مثال آخر لقاعدة موضوعة، حيث يتم تعريف الجنون بناءً على الموقع. إن ما نجده في مصحة آركام هو أن باتمان مثل آليس في بلاد العجائب، حيث يدخل إلى هناك فقط لأنه يشبه المجرمين في نهاية المطاف. وفقاً لنظريتيّ نيتشه وفوكو، سواء أدركنا ذلك أم لا، فأن امكانية تصنيفنا كمجانين تنطبق على الجميع.

يمكننا أن نبرهن أن سلامة باتمان العقلية يمكن أن تكون موضع تساؤل إذا تم تغيير القواعد. فأولاً، يعرف باتمان في النهاية أنه يتشارك بعض الصفات مع آليس عندما قال قبل دخوله إلى المصحة: «أخشى أن يكون الجوكر محقاً. أحياناً أشكك في عقلانية أفعالي. وأخشى أني حين سأسير عبر بوابات المصحة. . . .فأن الأمر سيكون مثل العودة إلى المنزل». إن هذا ليس التلميح الوحيد إلى الشبه مع آليس في بلاد العجائب في هذه القصص المصورة الثلاثة؛ حيث في The Dark Knight Returns، يقع واين في الكهف بينما يطارد أرنبًا!.

ثانياً، إن مصحة آركام ليست مجرد قصة يواجه فيها باتمان أعداءه. فهي تسرد قصة حياة أماديوس آركام، التي تشابه حياة بروس واين بشكل مخيف. إذ غادر كل منهما غوثام ومنزل عائلته وعاد بعد اثني عشر عاماً. وعاد كلاهما لمحاولة إستعادة النظام في غوثام (آركام ببنائه مصحة لعلاج المرضى

النفسيين، ووايـن كحارس للقانـون يحارب الجريمة). يشـعر كل من آركام وواين بالذنب بشأن وفاة أمهاتهما (آركام لأنه قتلها، ووواين لأنه كان السبب في أن والديه غـادرا مسرح السينما في تلك الليلة المشـؤومة). حيث تعرض كلاهمـا لصدمـة مقتل أفـراد عائلتهما. ورأى كل منهـما رؤى عن الوطاويط. ومـع ذلـك، صُنّف آركام كمجنون، بينما خلق وايـن باتمان لمحاربة المجرمين المجانين. وفي سـياق مصحة آركام، فإن هذه التشابهات المباشرة تشجعنا على تأمـل من يجـب أن يصنف على أنه عاقـل ومجنون. كما أنها تتحدانا للتسـاؤل حول بناء آركام لنفسه بالضد من بناء واين لنفسه.

وأخيراً، في نهاية القصة المصورة، نقرأ الملاحظات المكتوبة من قبل جميع النزلاء، بـما فيهم باتمان. والفائدة هي الخطوط العريضـة التالية: "أمي ميتة. أبي ميت. بروسي ميت. سأصبح وطواطا". بنى باتمان هويته الخاصة واعتبر نفسـه مختلفًـا عن بروس وايـن - أو على الأقـل بروسي وايـن[1] - الذي قد يشعر بأنه ميت.

لـذا إذا مـا قـررت أن تصبح باتمـان، فيجـب أن تدرك أنك قـد توصم بالجنـون لكونك تركض ليلاً مرتدياً زياً أسـود، ولكـن بمجرد ظهور عصبة مـن المجرمـين كخصوم، فـإن تعريـف المجتمع للعاقل سـوف يتم توسـيعه ليشملك أنت ويستبعد أولئك المجرمين.

كيف ينظر باتمان عبر الأكاذيب الخاصة بالهوية والحقيقة

لقـد وصلت إلى هـذا الحد، تهانينـا! لقد قبلت بأن الهويـات موضوعة، وحتـى الحقيقـة موضوعـة. إذن مـا الجـزء التـالي مـن اللغـز لإكـمال عملية التحويـل؟ إن مفتـاح حل هذا الجـزء من اللغز يتواجد مع نيتشـه. حين تقرأ

(١) كنايته كطفل "المترجم"

The Dark Knight و ،Arkham Asylum و ،Batman: Year One Returns كتسلسل زمني لحياة باتمان، وإذا كنت تريد أن تصبح باتمان بنفسك، يجب أن تعتنق فلسفة نيتشه كما فعل باتمان.

يقول نيتشه بأننا مخلوقات غريزية وأن هويتنا مبنية على رغباتنا من أجل البقاء والقوة. يقوم نيتشه بالتعبير عن ذلك بالعبارة "إرادة القوة" لوصف هذه الرغبات. [8] إن المفهوم المصاحب لهذا هو التكرار الأبدي (المعروف أيضاً باسم العود الأبدي لذات الشيء). وهذه هي القدرة على الترحيب بكل ما في حياتنا بدءاً من أعلى القمم وصولاً الى أعمق وأكثر الأودية ظلاماً في حياتنا الفردية. ويشيد نيتشه بالشخص الذي يعتنق هذه المفاهيم بشكل كامل.

في كتابه "هكذا تكلم زرادشت"، يلتقط نيتشه بشاعرية جوهر وصعوبة التكرار الأبدي في "في الرؤية والاحجية واللغز" عندما يصف المشهد التالي بأنه رؤية و لغز يجب فك رموزه:

"وقفت بين المنحدرات البرية فجأة لوحدي، منعزلاً، تحت ضوء القمر الكئيب. ولكن ظهر هنالك رجل. . . .رأيت راعياً شاباً يتلوى، مختنقاً مرتعداً، متقلص الوجه، وثعبان أسود ثقيل يتدلى من فمه. هل رأيت مثل هذا القرف والذعر الشديدين على وجه آدمي من قبل؟ يبدو أنه كان نائماً عندما زحف الثعبان الى حلقه دون شك، وهناك عض بكل ما أوتي من قوة. أمسكت بالثعبان وسحبت وسحبت، ولكن عبثاً! لم تستطع يدي أن تقتلع الثعبان من حلقه. ثم صرخت به: "عض! عض رأسه إقطعه! عض!"هكذا كان الصراخ يصعد من أحشائي، خوفي، كراهيتي، غثياني، شفقتي، كل ما كان موجودا بداخلي من خير وشر كان يصرخ من داخلي صرخة واحدة... لكن الراعي عض كما أشرت عليه بذلك: عض بكل ما أوتي من قوة على العض! وبعيداً جداً قذف برأس الثعبان من فمه؛ وقفز ناهضاً. لم يعد راعياً، لم يعد إنساناً، بل كائناً متحولاً، محاطاً بنور؛ ضاحكاً! أبداً لم يضحك أحد

على وجه الأرض كما كان يضحك".[9]

يعتقد نيتشه أن الحياة مليئة بالمعاناة الحقيقية (كما تمثله الأفعى في اللغز) والفرح (كما تمثله اللقمة المظفرة للراعي وضحكه اللاحق). معظم الناس "ينامون" خلال حياتهم (كما يفعل الراعي عندما يعضه الثعبان)، لكن الفرد الذي يعيش وفقاً لفلسفة نيتشه المتمثلة في التكرار الأبدي يمكنه أن يعانق كل من المعاناة والسعادة؛ هذا الشخص يحب الحياة كثيراً لدرجة أنه لا يندم فيها حتى في اللحظات الأكثر إيلاماً. وبنفس الطريقة التي لا يستطيع أحد أن ينقذ بها الراعي إلا الراعي نفسه، فنحن جميعًا قباطنة حيواتنا الخاصة.

وكما الثعبان في تلك الرؤيا، ففي عالم باتمان، إن الوطواط هو رمز لكل شيء مخيف ومأساوي وقاس في الحياة. باتمان فقط قادر على مواجهة الوطاويط، واحتضانها والتغلب على اليأس الذي ترمز إليه. هنالك آخرون كانوا قد شهدوا أيضاً الوطاويط. وعندما يفشلون في تقبّل الوطواط، سيكون لديهم خياران: في الأول، قد ينجذبون الى حياة الجريمة أو الأفعال الشريرة (وهذا قد يشمل الجنون الإجرامي)، وفي الثاني، قد يتم ترويعهم تمامًا ويصبحون منعزلين.

لرؤية مواجهة فاشلة مع وطواط، فكر في مصحة آركام عندما يحكي أماديوس آركام قصة انحداره الذي اوصله للجنون وكذلك جنون والدته. فبعد مقتل عائلته الوحشي، يكشف عن ذاكرة مكبوتة نرى فيها مرة أخرى رؤيا يظهر فيها وطواط. يتذكر آركام أنه زار والدته قبل وفاتها. حيث كانت خائفة وتخبره بأن هناك شيئا يريد أن يأخذها. في البداية، إعتقد آركام أنها مجنونة، ولكن بعد ذلك يقول: "ولكن ليساعدني الرب، لقد رأيته. رأيت الشيء الذي كان يطارد ويعذب أمي المسكينة كل هذه السنوات الطويلة. إني أراه. إنه وطواط. وطواط!" قتل آركام والدته من أجل إنقاذها من الوطواط. إذ يقول: "أتذكر الآن ما حاولت ذاكرتي أن تخفيه عني لأجلي.

الجنـون يولـد في الدم. إنه حق مكتسـب بالـولادة. إنه ميراثـي. إنه قدري". وهنا كانت رؤية الوطاويط تروع كلاً من آركام وأمه.

وبالمثـل ينزلق الدكتور كافنديش إلى هاوية الجنون عند قراءة سـجلات آركام. ثم يقوم بتحرير سجناء مصحة آركام ويجبر باتمان على قراءة مقطع من سـجلات آركام التي يتحدث فيها عن الخفاش. وهو يتهم باتمان بالاشـتراك مـع "بيـت الجوع" والـذي يمدّ فيـه المصحة بـ"الأرواح المجنونـة". يقول كافنديـش، "أنـا لا أنخـدع بهذا التنكـر الرخيص. فأنا أعلم مـا تكون". إنه يقترح بأن باتمان هو قوة باطنية عندما يقول عن آركام أنه "درس الممارسـات الشـامانية، وكان يعلم أن تلك الطقوس فقط، ذلك السـحر فقط، يمكنه أن يتضمـن الوطاويـط. إذن هل تعلم مـاذا فعل؟ خدش أرضية زنزانته راسـماً تعويـذة ملزمـة". تـوفي آركام بمجـرد اكتـمال التعويـذة الملزمـة. في حين أن كافنديش لا يرى حرفياً الوطواط، فإن مجرد الرؤيا التي تنقلها إليه سجلات آركام تدفعه إلى الجنون.

باتمان و- أوه، كما تعلم - الوطاويط

أن تأثـير رؤيـة الوطـواط عـلى بـروس وايـن تختلـف عـن تأثيرها على الآخرين الذين رأوه. إذ في الحين الذي يتم فيه التشكيك في عقلانية باتمان في مصحـة آركام، فلا يوجد أي شيء في بقيـة القصص المصورة الأخرى يجعلنا نشـك أن هناك تمييـزا أخلاقيا بين أفعاله وأفعال مجرمـين مثل الجوكر. إذ أننا نقـرأ عـن نضال بروس واين من أجل السـيطرة على كل مـن رؤية الوطـواط وهويته كباتمان. وهذا هو نضال نيتشـوي لمواجهـة الجنون والمعاناة التي هي جزء من الحياة. وفي نهاية The Dark Knight Returns، نرى بروس واين وهو يتصالح أخيراً مع الوطواط.

هنـاك أربعـة لقـاءات مهمة بين بـروس وايـن وباتمان مـع الوطواط في القصـص المصورة الثلاثـة. أولاً، في فيلـم The Dark Knight Returns، حيـث يحلـم واين بتجربة الطفولة التي يرى فيها وطواطـاً. إذ يقع واين أثناء مطـاردة أرنب في حفرة الأرنب وفي ما سـيصبح لاحقاً كهف الوطواط. هنا يصادف ما يصفه بأنه وطواط قديم. يقول: "شيء ما يتوارى عن الأنظار... شيء يمتـص الهـواء العفـن... ويهسـهس... يحلق برشـاقة قديمة... غير راغـب في التراجـع مثلـما فعل أشـقاؤه... عيونـه تلمع، لم يمسـها الحب أو الفـرح أو الحـزن... يتنفـس بحرارة رائحـة الأعداء المتسـاقطين... رائحة الأشياء الميتة، الأشياء الملعونة... بالتأكيد أشد الناجين - أنقى المحاربين... يـصرخ، يكـره... يدعي بأنني مُلكُهُ". عندما يسـتيقظ وايـن البالغ، يجد أنه كان يمشي نائماً وهو في كهف الوطواط. في هذه القصة المصورة، يروي حلمه كـما لو حددت تجربة الطفولة مسـار حياته، عـلى الرغم من أنه لن يفهم أهمية رؤيا الوطاويط إلّا بعد مرور سنوات عديدة.

ثانياً، يرى واين الوطواط من خلال نافذة غرفة دراسته في مزرعة عائلته في مناسبتين تشير إلى ولادة وإعادة ولادة باتمان. في Batman: Year One، تدفعـه رؤيتـه إلى خلـق هويـة باتمـان. وفي The Dark Knight Returns، تدفعـه رؤيتـه إلى الرجوع بقـرار تقاعده، وارتـداء القناع مـرة أخرى ليكون فـارس الظـلام. وكـما يقول بعـد ذلك بقليـل مـن إرتدائه زي باتمـان: "لقد ولدت من جديد".

وثالثـاً، في مصحة آركام، إذا ما اتبعنا الإشـارات البصريـة للفنان، فإن باتمـان هـو رؤيا الوطواط التي شـاهدها كل مـن أماديـوس آركام ووالدته. حيث يتم رسـم باتمان باسـتمرار كشـخصية غامضة، ودائمًا بدون وجه. هنا يكون باتمان نفسه هو الرؤيا الحيّة للوطواط.

وأخـيرًا، في The Dark Knight Returns، يـرى باتمـان الوطـواط،

الذي تم رسـمه بنفس الطريقة التي تم استخلاصها من ذاكرة طفولته عندما ينظـر إلى ذي الوجهين (قارن بين الصفحات 19 و55 من القصة المصورة). وهـذا يعـزز الفكـرة السـابقة التـي اقترحناها، والتـي يمكن فيهـا أن يؤدي تعرض الشـخص إلى الوطواط لأن يصبح المرء بطلًا إذا ما اعتنق الوطواط، أو شريرًا إذا ما رفض الوطواط. تماماً مثلما اعتنق راعي نيتشه الثعبان وتغلب عليه، كان باتمان قد أعتنق الوطواط بدوره وتغلب عليه.

هل بإمكانك مواجهة الوطواط؟

إذاً بعـد أن قبلت بـأن هويتك مبنية، وأن الحقيقـة والواقع مبنيان، ومن ثـم الذهاب بعيـداً إلى حد تبني هذه المفاهيم بشـكل كامـل، إذاً فأنت لديك الأسـس الفلسـفية لتصبح باتمان بنفسـك. ولكن إذا اتبعـت الخطوات التي حددناهـا، وبدلاً من أن تصبح باتمان، أصبحت الجوكر أو ذا الوجهين، فإننا لا نتحمـل أي مسـؤولية من أي نـوع. وهذه هي المخاطـرة التي على المرء أن يتخذها لكي يصبح وطواطاً.



هوامش الفصل العاشر:

1- في ما يتعلق بنيتشه فإن إستشهاداتنا ومصادرنا هي من كتبه «ما وراء الخير والشر»، ترجمة والتر كوفمان (New York: Penguin 1966)؛ في جينالوجيا الأخلاق، ترجمة والتر كوفمان (New York: Penguin 1967)؛ هكذا تحدث زرادشت: كتاب للكل ولا لأحد، ترجمة والتر كوفمان (New York: Penguin 1978)؛ الفلسفة والحقيقة: مختارات من ملاحظات نيتشه في بدايات سبعينات القرن التاسع عشر، ترجمة وتحرير دانيال برزيار (New Jersey: Humanities Press International 1995).

2- فيما يتعلق بفوكو فإن إستشهاداتنا ومصادرنا هي من كتب اللغة والذاكرة المضادة والممارسة، تحرير دونالد ف. بوتشارد، وترجمة دونالد ف. بوتشارد وشيري سيمون (Ithaca NY: Cornell Univ Press 1977)، تاريخ الجنسانية، المجلد الأول: مقدمة وترجمة روبرت هارلي (New York: Vintage 1990)؛ المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، ترجمة آلان شريدان (New York: Vintage 1995).

3- كما يقول فوكو: "الروح هي نتاج وأداة التحليل السياسي؛ الروح هي سجن الجسد". (المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، الصفحة 30).

4- يجب أن نفكر أيضاً بنقطة أثارتها جوديث بتلر، وهي فيلسوفة متأثرة بنيتشه وفوكو. تقول بتلر: "لمجرد كون الهوية أداءً لا يعني أن بالإمكان إستبدالها مثل زوج جواريب. على سبيل المثال، لا يمكنك الإستيقاظ في صباح يوم ما وتقرر أن تصبح باتمان؛ بدلاً من ذلك، عليك التدرب على الأداء"، راجع كتابها "الأجساد التي تشكّل فارقاً" (New York: Taylor and Francis 1993).

5- ضع في أعتبارك أنه من خلال القول بأن واين قد صنع باتمان، فإننا لا نقول بأن واين هو أقل صناعة من باتمان. قد نشير لباتمان بأنه صناعة لصناعة، على إعتبار أن بروس نفسه قد صُنع.

6- نيتشه، الفلسفة والحقيقة، الصفحة 84.

7- يوضح مقال فوكو عن نيتشه المعنون بـ"نيتشه، الجينالوجيا، التاريخ"،

(الموجـود في كتابـه "اللغة، الذاكـرة المضادة، الممارسـة) فهم فوكو لنهج نيتشـه في جينالوجيا الحقيقة.

8- يناقش نيتشه الإرادة للسلطة في كتب مثل ما وراء الخير والشر، وفي جينالوجيا الأخلاق، وهكذا تحدث زرادشت.

9- نيتشه، هكذا تحدث زرادشت، الصفحات 159-160.

11

هل كان بإمكان باتمان أن يصبح الجوكر؟

بقلم: سام كولينغ وكريس راغ

سؤال مشروط

أفترض بأننا أنت وأنا مواطنون في مدينة غوثام، والذين قرأوا جميع صحف غوثام الرسمية بكل عناوينها المتعلقة بباتمان ولديهم شكوك حول هوية باتمان. نحن على قناعة بأنه إمّا أن يكون الملياردير اللعوب بروس واين أو - بروح من نظرية مؤامرة عظيمة - أنه سيكون العقلية الإجرامية الرهيبة المعروفة فقط باسم الجوكر. وفي يوم ما، تعلن الصحيفة الرسمية بعنوان كبير على صفحاتها الأولى، «باتمان بلا قناع: الملياردير واين هو فارس الظلام!» لقد تم تأكيد شكوكنا أخيراً. نحن نعرف الآن أن بروس واين هو باتمان. ولكن على الرغم من هذا، يبدو من المؤكد أنه كان من الممكن أن يكون الجوكر هو باتمان. ولكن هل هذا هو الحال فعلا؟.

هنالك العديد من الطرق لفهم الادعاء الذي يقول بأنه: «يمكن أن يكون باتمان هو الجوكر». والطريقة التي ستكون مناسبة لمناقشتنا هي

الآتيـة: «من الممكـن أن يكون الجوكر مماثـلاً لباتمان». إن إدعـاءات من هذا النـوع - إدعاءات حـول الإمكانية والضرورة والاسـتحالة - هي إدعاءات مشروطـة. تؤكد الإدعـاءات المشروطة على أنه كان يمكـن للكون أن ينتهي إلى طريقـة معينة. فعلى سـبيل المثـال، «كان يمكن أن يكـون لباتمان اثنين من المسـاعدين»، و»لم يكن من الممكن لكاتومان محاربة الجريمة إذا كانت بدلتها ضيقة أكثر بقليل مما هي عليه» هي ادعاءات مشروطة حول الأشـياء الممكنة لباتمـان وكاتومـان. وفي اللغة العاديـة، تتضمن هذه الأنـواع من الإدعاءات عـادة مصطلحـات مثل «قد» و»ربـما». حيث إن صحـة أو زيف الإدعاءات الشرطية تعتمد على الحقائق المتعلقة بماهية أنواع الأشـياء الممكنة، وفي الحالة الخاصة التي نحن مهتمون بها، حول ما إذا كان باتمان يمكن أن يحمل علاقة معينة - علاقة هوية - بالجوكر.

في هـذا الفصـل، سـنتناول إدعاءً واحـدًا مشروطًا فقط وهـو: هل كان يمكـن لباتمـان أن يكـون الجوكـر؟ تتطلـب الإجابة عـلى هذا السـؤال قدراً معقـولاً مـن التحقيق المـشروط وبعـض الميتافيزيقيا الجادة. ولحسـن الحظ، فإن الميتافيزيقيا - دراسـة ما هو موجـود وكيف يتفاعل مع محيطه - هي عالم الفلسـفة الأكثر شـبهاً بالقصص المصورة. غالبًا ما يصبـح هذا الأمر معقدًا، ناهيـك عن كونـه غريباً أيضاً. ولكن قبل أن نفكر فيـما إذا كان الأمير المهرج قد يكون مماثلاً لفارس الظلام، سـنحاول تجميع بضع الأجزاء الأساسية من لغـز ميتافيزيقي معقد جدًا. وبعد تقديم بعض الافتراضات الميتافيزيقية (كما نأمل)، سننظر في حجة تهدف إلى إظهار أن باتمان لم يكن من الممكن أن يكون الجوكر، حيث سـيكون ذلك أمراً مفاجئاً (وربـما لا يكون كذلك). وأخيرًا، سـنثير بعض الإشـكالات لأي شـخص يقبل هذه الحجة يتسائل لماذا تكون الإجابة عن أسـئلة مشروطة متضمنة شخصيات خيالية مثل باتمان و الجوكر هي مسألة أكثر تعقيدًا مما قد يتوقعه المرء؟.

بعض الأشياء غير السرية جداً حول الهوية

لنبدأ بتقديم أول وأهم قطعة من اللغز الميتافيزيقي: وهو الهوية. نحن عادة ما نقول أشياء مثل «لديهم تسريحة شعر متطابقة» أو «ملابسهم متطابقة». هذه الجمل تنطوي على مفهوم للهوية بين شيئين منفصلين ولكنهما متشابهين للغاية. من المهم أن نلاحظ أن مفهوم الهوية الذي سنناقشه يختلف بطريقة مهمة جدًا، وفي الواقع، إنها علاقة حيث الأشياء لا تحمل تصوراً إلّا لنفسها. يتم التعبير عن فكرة الهوية التي نهتم بها عندما نقول أشياء مثل «الدكتور جيكل مطابق للسيد هايد» أو «شيكاغو هي مماثلة للمدينة العاصفة». لذا، وعلى الرغم من أن اللوحة ونسختها المزيفة قد يكونان متطابقين، بمعنى أنهما متشابهان للغاية، إلا أنهما ليسا متطابقين في الطريقة التي سنكون مهتمين بهما. فبعد كل شيء، قد تحب إمتلاك الأصلية منهما ولكنك لن تحب إمتلاك تلك المزيفة.

لذلك، عندما نفكر فيما إذا كان باتمان متطابقًا مع الجوكر، فنحن مهتمون بما إذا كان بإمكانهما أن يكونا كشخص واحد بنفس الطريقة التي تكون فيها متطابقاً مع نفسك وكذلك مختلفاً مع توأمك إن كان لديك توأم. لا يهمنا هنا ما إذا كان الجوكر قد يخضع لعملية جراحية مكثفة، ويشتري زيا جديدا، وليشابه باتمان تمامًا. ولكننا نريد أن نعرف ما إذا كان يمكن أن يكون باتمان والجوكر متطابقان جداً ليكونا الشخص نفسه.

إليك شيء واحد نعرفه عن الهوية: كل شيء مطابق لنفسه (أو متطابق ذاتيًا) وغير مطابق لأي شيء آخر. وبالنظر إلى أن كل شيء متطابق ذاتيًا، فإن العديد من الفلاسفة يؤيدون مبدأً يطلق عليه «تطابق الهوية» (دعنا نسمي هذا «ا ت ا» للاختصار). ووفقًا لهذا المبدأ، فلكي تكون الأمور متطابقة، فعليها مشاركة كل ممتلكاتها مع أحدها الأخر. لذلك، وعلى سبيل المثال، تمتلك أنت وذاتك جميع الخصائص ذاتها بالضبط: فكلاكما بشري، وكلاكما

متعلمان، وكلاكما تعرفان من هو باتمان. ونظرًا لأنك أنت وذاتك تتشاركان في جميع الممتلكات، إذاً أنتما متطابقين. افترض الآن أن لديك توأما وأن توأمك ولد بعد دقيقة من وقت ولادتك. ستكونان متمايزين: فأنت لا تشاركه بملكية ولادتك في نفس اللحظة.

وبالمثل، فإذا كان كل من بروس واين وباتمان متطابقين، فسيمكننا القول أنه إذا كان بروس واين مليارديراً، فإن ات ا تنطوي على أن باتمان ملياردير أيضاً. في حين أن حقيقة أن باتمان هي «الهوية السرية» لبروس واين قد تجعل هذا الادعاء يبدو غير متوقع إلى حد ما، فمن المهم أن ندرك أن الإحساس الذي قد يعتقد فيه المرء أن باتمان ليس مليارديراً هو على الأرجح ليناً وأكثر مجازية مما نهتم به. لأن ات ا تستلزم أن لا تختلف الأشياء المتطابقة بالخصائص التي تمتلكها، حيث سيكون من المفيد تذكر ات ا عندما نحاول تحديد ما إذا كان باتمان يمكن أن يكون متطابقًا مع الجوكر.

الإنتقاء من عوالم محتملة

يتم وضع أسئلة مشروطة حسب مشروطية «العوالم الممكنة». وعلى الرغم من الاسم، فإن هذه العوالم الممكنة - الطرق الأخرى التي يمكن أن ينتهي إليها هذا العالم - هي أشبه بالأكوان البديلة منها بكواكب الفضائيين. [1] وباستخدام العوالم الممكنة كأداة، سيمكننا التمييز بين الطرق المختلفة للجمل اللغوية لكي تكون صحيحة. فعلى سبيل المثال، قد يكون من الصحيح أن الديناصورات ربما لم تنقرض، ما دام هناك عالم محتمل نعيش فيه جنباً إلى جنب مع الديناصورات. وبالمثل، قد يكون صحيح أن السيارة لم يتم ابتكارها، حيث هناك عالم محتمل لا توجد فيه سيارات. أمّا عالمنا، العالم الفعلي، فهو واحد فقط من هذه العوالم الكثيرة جداً.

ويمكننا استخدام العوالم الممكنة لشرح مفاهيم مهمة مثل الضرورة (الإضطرارية). حيث إذا كانت الجملة صحيحة بالضرورة، فهي صحيحة في كل عالم ممكن. إن "2+2=4" و"المثلثات لها ثلاثة أضلع" وكلاهما صحيح بالضرورة. لذلك، في كل عالم ممكن، ستكون 2+2=4، والمثلثات لها ثلاثة أضلع. أمّا إذا كانت الجملة صحيحة بشكل محتمل فقط، فهذا سيجعلها صحيحة في بعض، وليس كل، العوالم الممكنة. إن جمل "يوجد كبار خدم" و"يوجد أبطال خارقون" هي صحيحة بشكل محتمل فقط، لأن هناك بعض العوالم الممكنة حيث يوجد فيها كبار الخدم والأبطال الخارقون وعوالم محتملة أخرى لا يوجدون فيها ذلك. فئة أخرى من العبارات، بما فيها تلك التي مثل: "2+2=3" و"المثلثات لها ضلع واحد فقط"، هي خاطئة بالضرورة؛ حيث من المستحيل أن تعني هذه الأنواع من العبارات ما تعنيه في الواقع وتبقى صحيحة في الوقت ذاته.

تمثل العوالم المحتملة ما كان بإمكاننا أو ما لم نتمكن من فعله، لذا عند البحث في الأسئلة النموذجية، علينا أن ننظر إلى العوالم المحتملة للحصول على إجابات. هل تشعر بالفضول حيال ما إذا كان هناك كوكب غير مرئي، بحجم البطاريق؟ حسنا، إذا كان هناك عالم محتمل حيث توجد أشياء من هذا القبيل، فسيكون من الصحيح أحتمال وجود بطاريق غير مرئية بحجم الكواكب. وبالإضافة إلى ذلك، فعندما يسأل شخص ما إذا كان بإمكانك التأخر عن اجتماع، سيمكننا حينها استخدام العوالم الممكنة لتحديد الإجابة على ذلك. وبصورة تقريبية جدًا: إذا كان هناك عالم محتمل (مشابه تمامًا للعالم الفعلي) حيث تأخرت فيه عن الاجتماع، فسيكون من الصحيح احتمال تأخرك عن الاجتماع في العالم الفعلي أيضاً.

قد تتساءل كيف أن هذا الشخص الذي تأخر عن الاجتماع هو في الواقع مطابق لك؟. فبعد كل شيء، أنت تمتلك خصائص مختلفة: فقد كان أحدكم

متأخرًا عن الاجتماع، والآخر لم يكن كذلك. إن هذه مسائل شائكة، ولكن أحد الطرق لفهم ذلك هو تخيل نفسك في عوالم أخرى ممكنة كما تتخيل نفسك وأنت في أزمنة مختلفة. قبل خمس دقائق كنت تقف، والآن أنت تجلس. وعلى الرغم من هذا التغيير، إلا أنك ما زلت متطابقًا مع نفسك الآن ومع نفسك قبل خمس دقائق. وفي ما يلي، لن نناقش التفاصيل الميتافيزيقية لكيفية تطابق الأشياء مع الوقت دون انتهاك ا ت ا. ولكن بدلاً من ذلك، سنفترض فقط أن الأفراد يمكن أن يكونوا متطابقين في عوالم مختلفة تماماً مثلما هم متطابقين في أوقات مختلفة.

شيء آخر يجب ملاحظته قبل المتابعة وهو أنه بالنسبة لمعظم ما يلي، سنفترض أن باتمان والجوكر وبقية عالم DC هم مجرد كيانات محتملة. وتوجد الكيانات المحتملة في العوالم المحتملة فقط، ولكن ليس في العالم الفعلي. وبالنظر إلى هذا الافتراض، كان يمكن للعالم أن يتحول بطريقة ليوجد فيه باتمان ومدينة غوثام وذو الوجهين. وسنكون مهتمين أيضًا بعالم محتمل مثل هذا بشكل خاص: عالم محتمل حيث جميع الحقائق المعتادة حول باتمان وبقية عالم DC حقيقية. باختصار، سوف نسمي هذا المكان بالأرض الجديدة، كما يدعى العالم السائد الحالي في DC. وبعد إدخال مفاهيم مثل الضرورة، والإحتمالية، والعوالم الممكنة، يمكننا الآن وضع هذه المفاهيم لتستخدم جيداً في محاولة الإجابة على السؤال المطروح: هل بإمكان باتمان أن يكون الجوكر؟

إذا كانت الإجابة الصحيحة على هذا السؤال هي نعم، فعندئذ سيكون هناك عالم ممكن يكون فيه باتمان والجوكر متطابقين تماماً لدرجة أن يكونا ذات الشخص. وسيكون هذا عالماً محتملاً حيث يتواجد فيه باتمان والجوكر كشيء واحد متطابق. وبعبارة أخرى، فإن في بعض العوالم الممكنة، سيكون الشيء المنتقى والذي اصطلح عليه أسم "باتمان" هو مطابق للشيء المنتقى

الـذي اصطلـح عليـه أسـم "الجوكـر". إن هـذا الحديث عـن مصطلحات "انتقاء" الأشـياء هو في الواقع اختزال لبعض فلسـفة الـكلام، وعلى الرغم من أن فلسـفة الـكلام معقـدة، ولكن من المهـم الوصول إلى عمـق القضايا الشكلية في الطبيعة.

أولاً، مصطلحـات مثل "الجوكر" و"باتمان" هي أسـماء، والأسـماء لها ميـزة فريـدة: فعندما تشـير إلى، أو يتـم انتقائها لتطلق على كائـن معين، فإنها تشـير إلى ذلـك الكائـن في كل عالم ممكن. هـذه الميزة الفريدة لا تتشـارك مع الوصـف. ولمعرفـة السـبب، فكـر بوصـف "مفـوض شرطة غوثـام" ففي الأرض الجديـدة، سـيكون الكائـن الذي يشـير إليـه هذا الوصـف هو جيم غـوردون. أمّا في عوالم أخرى محتملة، حيث سـارت الأمور بشـكل مختلف، فقد يكون آلفريـد بينورث هو مفوض الشرطة في غوثام، لذلك، ففي بعض العوالم الممكنة، سيشـير مصطلح "مفوض شرطة غوثـام" إلى آلفريد وليس لغـوردون. ولهذا السـبب، يختلـف الوصف تمامًا عن الأسـماء بالطريقة التي تشـير بهـا إلى الكائنات. لذا، فبينما يشـير مصطلح "هـارفي دينت" إلى هارفي دنيت في جميع العوالم الممكنة، فإن مصطلح "المدعي العام السابق في غوثام" لا يشير لنفس الشيء دائماً.

ثانيـاً، إن السـؤال الذي نناقشـه لا يتعلـق فقط عمّا لو كان سـمّي باتمان بأسـم "الجوكـر" ولـو سـمي الجوكر بأسـم "باتمـان". فهناك سـبب وجيه للاعتقـاد بأن اللغـة الإنجليزية يمكـن أن تكون قد تطورت بشـكل مختلف بحيث أن الكلمة المسـتخدمة بالفعل للإشـارة إلى باتمان يمكن في الواقع أن تسـتخدم للإشـارة إلى الجوكر. وما يهمنا هو الخصائص النموذجية للأشـياء المعنيـة: باتمان والجوكـر. ومثلنا أنا وأنت، فهذه الأشـياء أيضاً تمتلك وتفتقر إلى خصائص مشروطة معينة. فعلى سـبيل المثال، يعتقد العديد من الفلاسفة بأننا وإن كنّا نفتقر إلى الخاصية الشرطية لنكون بيضة مسلوقة محتملة، إلّا أننا

نمتلك الخاصية الشرطية المحتملة لنكون أطول بإنش واحدٍ مما نحن عليه في الواقع. ولا تؤدي حقيقة استخدام المصطلحين "باتمان" و"الجوكر" إلى تغيير الخصائص الشرطية لهذه الكائنات. وبدلاً من ذلك، فإن حقيقة أن هذه المصطلحات هي أسماء تساعدنا على فهم أفضل لما يجب أن يكون عليه الواقع في جمل مثل "ربما يكون باتمان متطابقا مع الجوكر" لتكون صحيحة.

الهويات السرية بالضرورة

إن المنطق الشكلي هو لغة رسمية - شبيه بالرياضيات إلى حد كبير - ويستخدم لتبسيط الطريقة التي نفكر بها حول الإحتمالية والضرورة. في المنطق الشكلي، تكون بعض القواعد المنطقية (البديهيات) مقبولة عالمياً تقريباً. وفيما يلي بعض الأمثلة: إذا كان هناك شيء صحيح بالضرورة، فمن المحتمل أن يكون صحيحًا. وإذا كان هناك شيء صحيح، فمن المحتمل أن يكون صحيحًا. ومن الأمثلة الأكثر تعقيدًا ما يلي: إذا كان هناك شيء من المحتمل أن يكون صحيحًا، فمن المحتمل أن يكون صحيحًا بالضرورة. والمثال المعقد على نحو سخيف هو: إذا كان هنالك شيء من المحتمل بالضرورة أن يكون من المحتمل بالضرورة أن يكون صحيحاً بشكل محتمل، فهو صحيح بالضرورة!

إن خصوصيات وعموميات المنطق الشكلي ليست ذات أهمية حاسمة هنا، ولكن إحدى أطروحات المنطق الشكلي مهمة وهي: ضرورة الهوية. إذا كانت ضرورة الهوية صحيحة، فإن ادعاءات الهوية - التي تتضمن رمز الهوية «=» - هي صحيحة بالضرورة، إذا ما كانت صحيحة على الإطلاق. في الواقع، فإن ضرورة الهوية هي أكثر تحديداً حيث أنها تنطبق على إدعاءات هوية معينة فقط. فعلى وجه التحديد، تقول ضرورة الهوية أن ادعاءات الهوية التي لها أسماء على كلا جانبي «=» هي صحيحة بالضرورة إذا كانت صحيحة،

وخاطئة بالضرورة إذا كانت خاطئة. ولهذا السبب، تضمن ضرورة الهوية أن «هارفي دينيت = ذا الوجهين» والجملة المكافئة هي «هارفي دينت هو مكافئ لـذي الوجهين» هـي بالضرورة صحيحة. ومع ذلك، فـإن ضرورة الهوية لا تضمن أن «هارفي دينت = المدعي العام السابق لغوثام» صحيحة بالضرورة. حيـث لا تنطبق ضرورة الهوية عـلى هذه الجملة، لأن «المدعي العام السـابق لغوثام» هو وصف وليس اسمًا.

لمـاذا يجـب أن نصدق بـضرورة الهوية؟ وذلـك بسـبب ا ت ا والادعاء الواضـح بالـضرورة، أن كل شيء مطابـق لذاته. تخيـل أن س وص هما مثل المتغيرات في الجبر؛ حيث يمثلون أشياءً ما. الآن، إذا كان كل شيء بالضرورة متطابقًا مع ذاته، إذن، ففي كل عالم ممكن، فإن س = س. وإذا كان س = ص في بعض العوالم المحتملة، فإن ا ت ا يسـتتبع بأن س وص يجب أن يكون لهما نفس الخصائص. وهذا يعني أنه إذا كان باتمان متمثلاً بـ س وبروس واين بـ ص وكان س = ص، فـإن ا ت ا تضمن أن باتمان وبروس واين يشـتركان في نفس الخصائص. إذاً، إن أي خاصية تمتلكها س ستكون متطابقة مع الخاصية التي تمتلكها س ذاتها بالضرورة؛ لذلك، يسـتلزم ا ت ا أنه يجب أن يكون لـ ص خاصيـة مطابقـة بالضرورة لـ س. وفي حالة الوطـواط، إذا كان «باتمان» و»بـروس وايـن» متطابقين في بعض العـوالم المحتملة، فبـما أن باتمان يمتلك خاصيـة مطابقـة بالضرورة مـع باتمان ذاتـه، فيجب أن يمتلك بـروس واين أيضًا خاصية مطابقة بالضرورة مع باتمان. والاستنتاج من خلف هذه الحجة المدمجة، ولكن المعقدة، هو: أنه عندما تكون كيانات مثل بروس واين وباتمان متطابقة، فهي متطابقة بالضرورة.

إذا كانت ضرورة الهوية صحيحة وباتمان هو اسـم، إذاً سـيمكننا حينها أن نخرج بمحاجة تظهر بأن باتمان لم يكن ليمكنه أن يكون الجوكر: فباتمان والجوكر ليسا متطابقين في الأرض الجديدة. وبما أن باتمان والجوكر لا يتطابقان

في الأرض الجديدة، فإن «باتمان = الجوكر» ليس صحيحًا بالضرورة. ولكن، في ضوء ضرورة الهوية، فإذا كانت ضرورة الهوية صحيحة، يجب أن تكون صحيحة بالضرورة. ولأن «باتمان = الجوكر» ليس بالضرورة صحيحًا، فيمكننا أن نستنتج بأن «باتمان = الجوكر» لا يحتمل أن يكون صحيحاً. وبما أن «باتمان = الجوكر» لا يحتمل أن يكون صحيحاً، إذاً فباتمان لم يكن من الممكن له أن يكون الجوكر! (هل كان ذلك سهلاً؟).

«باتمان» و«روبن»

حسناً، نعترف بأننا قدمنا حجة معقدة إلى حد ما عن سبب عدم إمكانية أن يكون باتمان هو الجوكر. وهي حجة معتمدة على بعض الافتراضات غير المألوفة، رغم أنها معقولة، حول الهوية والضرورة. إذن، ها هنا يكمن اعتراض حول الحجة التي صغناها، ولله الحمد، إنها تعتمد على أسس أقل تعقيدًا. دعونا نسميها حجة روبن. لقد افترضنا أن «باتمان» هو اسم، وقد استنتجنا أن «باتمان» لم يكن أي شخص آخر غير بروس واين، ناهيك عن أن يكون الجوكر مثلاً. ومع ذلك، يبدو بأن «باتمان» و»روبن» هما من نفس النوع من المصطلحات، لذلك، فإذا كان أحدهما اسمًا، فسيكون كلاهما اسمًا. وإذا كان أحدهما وصفًا، فسيكون كلاهما وصفاً كذلك. وكمسألة تخص الأبطال الخارقين، فقد كان هناك أكثر من روبن واحد. حيث كان كل من ديك غرايسون وجيسون تود وتيم دريك (من بين آخرين) روبن في أوقات مختلفة، لذلك فإنه ليس بالضرورة أن يكون صحيحًا أن أسم روبن متطابق مع تيم دريك أو جيسون تود أو ديك غرايسون. وإذا كانت متطلبات الهوية التي تتضمن «روبن» غير صحيحة بالضرورة أو خاطئة بالضرورة، إذاً فلا يمكن أن يكون «روبن» اسمًا، نظرًا لما نعرفه عن الأسماء. لذلك فإن «باتمان» أيضاً لا يمكن أن يكون اسمًا. وإذا لم يكن «باتمان» اسمًا، فحينئذٍ ستفشل

حجتنا الأولى: حيث لا تنطبق ضرورة الهوية على الجمل التي هي مثل «روبن» أو «باتمان» لأنهما أوصاف وليسوا أسماء.

هناك شيء مثير حول هذا الاستنتاج. حيث يبدو أنه يمكن للأفراد المختلفين اتخاذ هويات سرية مختلفة، ومن الطرق التي يمكن من خلالها شرح احتمالية ذلك هو اعتبار «باتمان» وغيرها من «الهويات السرية» هي أوصاف وليست أسماء. فعلى سبيل المثال، قد يكون «روبن» اختصارًا لـ «الرجل - أو الفتاة، في قضية ستيفاني براون - الذي يرتدي ملابس روبن». في الواقع، قد يعتقد المرء أن هذا الأمر واضح. فأولاً، غالباً ما يطلق على بروس واين اسم «باتمان»، وقد يتصور المرء أن «باتمان» هو مجرد اختصار لوصف معين. وثانياً، إن هنالك بعض (مثل جان بول فالي وديك غرايسون) من كانوا قد ارتدوا قناع وعباءة «باتمان» بدل واين ليشغلوا مكانه في غيابه. وثالثًا، حقيقة أن «روبن» ومصطلحات أخرى تشبه إلى حد كبير مصطلح «باتمان» المستخدم، وأن «روبن» ومصطلحات أخرى قد لا تكون أسماء، توفر سببًا للتفكير بأن «باتمان» هو ليس اسما.

ولكن هناك أسبابا وجيهة أيضاً للإعتقاد بأن «باتمان» ليس وصفاً، بل هو في الحقيقة اسم. أولاً، تمر معظم الأوصاف باختبار لغوي معين. وكما هو الحال في معظم الاختبارات اللغوية، توجد هناك استثناءات، ولكن مع ذلك فإن هذا الاختبار جيد بشكل عام. إذا ظهرت مصطلحات معينة في الوصف، فإن بعض الاستنتاجات تكون عادةً استنتاجات جيدة. أنظر في الوصف الآتي: «أقبح المجرمين في غوثام». إذا كان هذا الوصف يقصد به شخص معين، فسيمكننا بشكل معقول استخلاص استنتاجات معينة حول ذلك الفرد المعني. فعلى وجه الخصوص، سيمكننا أن نستنتج أن هذا الشخص قبيح، ومجرم، ويقطن في مكان ما من غوثام. يبدو أن «باتمان» يفشل في هذا الاختبار، حيث لا يمكننا أن نستنتج بشكل معقول أن ذلك

الشـخص هو باتمان. وعلى الرغم من أن هذا الاسـتنتاج ليس قاطعًا، إلا أنه علـى الأقـل يمنحنا سـببًا جيدًا للاشـتباه في أن «باتمـان» ليس وصفًـا مُقنّعًا. ووفقاً لبعض الفلاسـفة، فإن الأوصاف المقنعة شائعة. فعلى سبيل المثال، إذا كان «بـروس وايـن» وصفًا مقنّعًا، فإن «بروس واين» سـيكون مجرد نسـخة مختصرة لـ«ابن مارثا واين والدكتور توماس واين».

ثانياً، والأكثر أهمية، تشـير الأوصاف إلى أشـياء محددة فيها خصائص معينـة. فوصف «أقبـح المجرمين في غوثام» يمكـن أن يصف القاتل كروك Killer Croc لأن القاتـل كروك قبيح الشـكل، ومجرم، ويقطن في مكان ما في غوثـام، غالبـاً في مجاريرها. ولكن، إذا أراد شـخص ما، فيمكنه السـعي ليصبح أقبح من القاتل كروك، وأكثر إجراماً، ويسكن غوثام. وإذا أنجزت تلـك الشروط الغريبة إلى حد ما، فإن هذا الوصف سيشـير إليه. لاحظ أن "باتمـان" لا يعمل بهذه الطريقـة: فبغض النظر عن مدى جودة الزي الذي تقـوم بصنعـه، أو الكهف الـذي تجهزه تحت منزلك، فسيشـير "باتمان" إلى شـخصية باتمان الخيالية بدلاً من أن يشير لأي شخص آخر. ولهذا السبب، يبدو أن عبارة "باتمان" لا تتصرف وكأنها وصف.

إذاً يبدو بأن حجة روبن تعطينا سببًا للاعتقاد بأن "باتمان" ليس اسمًا، مما يعنـي أن الحجة التي تنطـوي عليها ضرورة الهوية تفشـل. ولكن هناك أيضًـا سـببًا جيـدًا، كما هو موضـح في الحالتين اللتـين تم النظـر فيهما للتو، للاعتقـاد بـأن "باتمان" ليس وصفاً. ولهذا السـبب، يبـدو أن "باتمان"، أيا كان تصنيفه، هو مصطلح غريب بالفعل.

هناك بعض الطرق التي يمكن للمرء اتباعها لحل هذه المشكلة وتحديد ما إذا كان "باتمان" اسـما أو وصفا. فقد يجادل المرء أنه على الرغم من فشـل هـذه الاختبـارات، فـإن "باتمان" هـو في الحقيقة وصف، وبـما أنه وصف، فإنـه يمكـن أن يشـير إلى الجوكـر في عـالم آخر غـير الأرض الجديـدة. وقد

يجادل المرء أيضًا أنه على الرغم من أنه يبدو أن هناك عدة أفراد يشار إليهم بـ"روبن"، فقد كان هناك بالفعل العديد من الأفراد بأسماء مختلفة دائمًا ما يتم "اختصارها" بطريقة مُقنّعة. إذا كان باتمان والجوكر هما مجرد أفراد محتملين، فعند معرفة ما إذا كان من الممكن أن يكون باتمان هو الجوكر، سنحتاج إلى حل هذه المشكلة. ونحن سنقترب من حل هذه المشكلة من خلال مناقشة أي أنواع من الكيانات بالضبط هم باتمان والجوكر بدلاً مما إذا كان "باتمان" اسمًا أو وصفًا. وفي نهاية الأمر، سنقترح أن بعض الاعتبارات الميتافيزيقية تشير إلى أن باتمان كان يمكن له أن يكون الجوكر.

الخيال والعوالم المحتملة

حتى الآن، كنّا قد افترضنا أنه على الرغم من أن الأرض الجديدة وسكانها غير حقيقيين، إلا أنه كان من الممكن أن يوجدوا. ووفقاً لهذا الافتراض، فإن «باتمان» و «الجوكر» هما مجرد كيانات محتملة، مثل أخ توأم محتمل لك فقط، أو مجرد قطعة بحجم مجرة من التوست الفرنسي. لو كانت هذه الكيانات قد تواجدت بالفعل، فإنها تشبه إلى حد كبير الأشياء المادية التي تشكل عالمنا. حيث أنهم سيكونون أشياء مادية ملموسة مثلك أو مثلي أنا أو هذا الكتاب أو مبنى إمباير ستيت. إن معظم الأشياء التي نعرفها هي أشياء مألوفة؛ أشياء خاضعة لقوانين الفيزياء وتوجد ضمن المكان والزمان.

لكن الشخصيات الخيالية، مثل باتمان وروبن، ليست شخصيات مادية. فهي أشبه بالأرقام والقصص؛ فمن غير المنطقي القول إن لديك الرقم خمسة في جيبك أو أن هاملت يسكن على جزيرة كوني. ولهذه الأسباب، تكون الشخصيات الخيالية كيانات مجردة كالأرقام بدلاً من كونها أجساما مادية مثل هذا الكتاب. وهناك سبب وجيه للاعتقاد بأن

الكيانـات المادية تختلـف كثيرًا عـن الكيانات المجـردة، ولكـن الكيانات المجـردة الخيالية، كباتمـان والجوكر (ولكن ليس الرقـم أثنين)، تبدو مختلفة بشـكل خاص عـن الكيانـات المادية. إحـدى الطـرق التي قد تكـون فيها الكيانات التجريدية الخيالية فريدة بشكل خاص هي في الطريقة التي تمتلك بها خصائص مشروطة.

يتم تحديد الخصائص الشكلية أو النموذجية للكيانات المادية المتعارف عليهـا ضمـن الحيـاة اليوميـة كالطـاولات والأحذيـة والكتـب بحقائـق موضوعيـة مسـتقلة عن ما يفكر به أي شـخص. في حجتنـا، كنّا قد أعتبرنا باتمـان والجوكر ككيانـات مادية، ولكن كما أشرنا للتـو، فإنهما مختلفان تمامًا عن ذلك؛ فهم كيانات خيالية مجردة. ومع ذلك، إن لم تكن شخصيات مثل باتمان كيانات مادية تسـكن عـوالم محتملة، فمن غـير الواضح كيف يمكننا أن نفهـم الإدعـاءات المشروطة التي نفترضها بشـأنهم. وبالرغم من ذلك، يمكننـا أن نقول أن من بين الادعاءات المشروطة حـول الكيانات الخيالية، فـأن بعضهـا صائب وبعضها خاطـئ. كان يمكن لباتمـان أن يقتل الجوكر. ولم يكن السـيد فريز ليسـتطيع الاسـتمرار في المشي على الشـمس (أو حتى على شـاطئ ميامي). إذن، كيف نفهـم الخصائص النموذجية للشـخصيات الخيالية المجردة؟ ربما تكون الشـخصيات الخيالية مثل باتمان لها خصائصها النموذجية بطريقة خاصة جدًا: فهي تمتلك هذه الخصائص لأنه تم صناعتها بواسـطة مؤلفـين وفنانين مثل بـوب كين Bob Kane وغرانت موريسـون Grant Morrison وجيم آبارو Jim Aparo وجيم لي Jim Lee.

بتعبـير أدق، في حـين أن الشـخصيات الخياليـة المجـردة ليسـت مجرد كيانـات محتملـة، فـلا يمكننـا اسـتخدام العـوالم الممكنة لفهـم خصائصها النموذجيـة. هـذا يعنـي أن هنـاك حاجـة إلى طريقـة بديلـة لمعرفـة كيـف للشـخصيات الخيالية أن تمتلـك الخصائص الشرطيـة. وإليك إحدى تلك

الطـرق التي توصلنا لها هـي الخصائص المشروطـة - خصائص شرطية أو ضروريـة بطريقـة معينة - للشـخصيات الخيالية التي نـص عليها المؤلفون الموثوقون لتلك الشـخصيات. إن الخصائص النموذجية لباتمان تختلف عن الخصائـص النموذجية للزرافات وأبراج المراقبة: فالأولى مشروطة من قبل مؤلفـين مثل بوب كين، بينما الأخرى يمكـن معالجتها من قبل أي شـخص بشكل مستقل. إذا كان هذا صحيحًا، فالأشياء التي يستطيع باتمان فعلها أو تلـك التي تتعذر عليـه لا تتحدد بما يمكن أن يكون موجودا في ذلك العالم، ولكن بما يعتقده مؤلفو قصص باتمان أنه ممكن بالنسبة له.

إن صياغـة هذا الحل المقترح بشـكل أكثر اكتمالٍ سـيثبت أنه أمر معقد للغاية، ولكن نتيجة السـؤال الذي كنا مهتمين به واضحة. لا يمكن تحديد مـا إذا كان باتمان يمكـن أن يكون الجوكر من خلال طرقنا المعتادة للتحقيق النموذجـي. وللإجابـة عـلى هـذا السـؤال، نحتـاج إلى معرفـة الخصائص النموذجيـة التي يعتقـد مؤلفو قصص باتمان أن باتمـان والجوكر يمتلكاها. يبـدو، إذن، أن إحـدى الطـرق للإجابـة عـلى هذا السـؤال هـي من خلال التحقيق بالأسلوب القديم، وهو القراءة.

حسـنا، لقـد قمنـا بالقـراءة - فبعـد كل شيء، هذا ما نقـوم به نحن - والنتائـج هي أن باتمـان والجوكر يمكنهما أن يكونـا متطابقين. ولكن لماذا؟ لأنه في Batman: Two - Faces (1998)، يكون كل من باتمان والجوكر عبارة عن شـخص واحد. تـشرح هذه القصة من العـوالم الأخرى - وهي قصـة لباتمـان يبدو أنهـا قد حدثت خـارج الاسـتمرارية النموذجيـة لـعالم DC، أو على أرض غير الأرض الجديدة - سـيناريو حيث يكون فيه باتمان والجوكـر متطابقين في الواقع، مثـل الدكتور جيكل والسـيد هايد. لذا فإن هـذه الحالـة الخاصة توفر لنا سـبباً وجيهـاً للاعتقـاد بأن الهويـات الخيالية (السرية أو غير ذلك) قد لا تكون ضرورية جداً كما كنا نعتقد.

أترك المزاح جانباً، فهذه الفوضى مشروطة

في البدايـة، شرعنـا في الإجابـة على السـؤال حـول «هل يمكـن لباتمان أن يكـون الجوكـر؟»، افترضنا من البدايـة أن»باتمان» و»الجوكر» هما اسـمان لأفـراد محتملين فقط - أشـياء موجـودة في عوالم أخرى ممكنـة - ونظراً لهذه الافتراضـات، فقـد جادلنا بأن هناك سـببًا للتفكير بأنه لم يكـن يمكن لباتمان أن يكون الجوكر. وعلى الرغم من هذا، فهناك بعض الأسـباب للاعتقاد بأن «باتمـان» قد يكـون وصفًا حقـاً، وإذا كان كذلك بالفعل، فمـن الممكن جداً لباتمـان أن يكـون الجوكر. ثم اقترحنا بأن باتمـان والجوكر قد يكونان كيانات غريبة، مجردة، خيالية أكثر من كونهما مجرد أفراد محتملين.

قد يشـكو بعض الفلاسفة من كلا هذين الخيارين. حيث يفضل هؤلاء الفلاسـفة، الذيـن يطلق عليهـم أحيانًا الإسـمانيون nominalists، مشـهدًا متناثـرًا كالصحـاري شـبيهًا بالواقعيـة. وينكـرون أن هنـاك فقط أمـا أفراد محتملـين أو كيانـات مجـردة. ويأخذون على محمـل الجد الحكمـة الميتافيزيقية التي تقول: "الأقل هو الأكثر" ويؤمنون بالكيانات الفعلية والأفراد الماديين فقط. في حين أن هناك سـماتاً جذابة للصورة الميتافيزيقية الاسـمانية، سيكون واجب على الاسـماني أن يقـوم على الأقل بشيء غير مريـح ولكنه ضروري: بـما أن الاسـمانية تنكر وجود كيانـات مجردة أو محتملة، فيجب على الاسـماني أن ينكـر أن باتمـان، الجوكر، وروبن موجودون من الأسـاس. قد تجعل هذه النتيجة الفلسـفة الاسـمانية غير جذابة، ولكنها نتيجة مثيرة للاهتمام بشـكل كافٍ، حيث قد تعتقد أن باتمان نفسـه يجب أن يكون اسـمانياً. فبعد كل شيء، إذا كانت الاسمانية صحيحة، فلن تكون هناك جريمة في غوثام. والأكثر من ذلك، لن تكون هناك غوثام على الإطلاق.[2]

هوامش الفصل الحادي عشر:

1 - "كواكب الأرض البديلة" في عالم DC (قبل Crisis on Infinite Earths وبعدها 52) هي شيء مشابه كثيراً لما يدعوه الفلاسفة بالعوالم المحتملة؛ هي أكوان بديلة منفصلة حيث ينحو الواقع منحى مختلفا بطريقة ما على مسار التأريخ.

2 - الشكر موصول من قبل المؤلفين لكول آرمسترونغ، باراك كراكوير، إيتان مانهوف، وكريس تيلمان لمناقشاتهم وتعليقاتهم المفيدة.

12

أزمة هوية باتمان
والتشابه مع عائلة فتغنشتاين

بقلم: جيسون سوتبورث

ما الذي يعنيه لشخص ما أن يكون باتمان؟ هل هناك شيء مطلوب بالنسبة لنا لنحدد شخصا ما بصفته باتمان؟ هل هناك جودة أو خاصية إذا ما إمتلكها الفرد فإنها ستجعل منه باتمان؟ في هذا الفصل، سنتناول هذه الأسئلة. وعلى طول الطريق، سنرى أن كل طريقة مفيدة للوصول لمعنى وتعريف باتمان، أو أي شيء آخر يخصه، هو من خلال فكرة «التشابه الأسري».

القصص المصورة، الظروف، والأمثلة المضادة

إن للفلاسفة شروطا لأنواع الظروف التي تسمح لنا بالتعرف على شيء ما باعتباره ما هو عليه في الأساس، أو تحديده كجزء من مجموعة من الأشياء. فإذا كانت سمة أو جودة ما مطلوبة لتكون جزءًا من مجموعة، فنحن نقول

إنها شرط ضروري. فكر في تفاحة: إذا كان شيء ما هو تفاحة، فإن من الضروري أن يكون فاكهة، أو أن تكون فاكهة هو شرط ضروري لكونك تفاحة. لاحظ أن هذا لا يعني أن كونك فاكهة كافٍ لتكون تفاحة. حيث يجب أن يكون التفاح على شكل تفاح، له شكل مدور، وقصبة رفيعة من الأعلى، ولا يكون برتقالاً، ونستطيع هكذا تسمية بعض الشروط الأخرى المرتبطة بـ»عائلة التفاح». كل هذا يعني بأنه لا يمكن لشيء أن يكون تفاحًا دون أن يكون فاكهة؛ فجميع التفاح هو فاكهة، لكن ليست كل الفاكهة تفاح.

من ناحية أخرى، إذا كان الايفاء بمتطلب معين كافياً ليتم تضمينه في المجموعة، فإن هذا المتطلب سيكون شرطا كافياً. إنظر في حالة الحيوانات، إن حقيقة أن شيئًا ما هو قطة سيكون كافياً بشكل وافٍ لكي يكون هذا الشيء حيوانًا. لاحظ أنه يمكن أن يكون هناك العديد من الظروف الكافية ليكون الشيء حيواناً. يكفي أيضًا أن يكون الشيء حيوانًا أو طيراً أو سمندلًا أو إنساناً؛ حيث أن كل القطط حيوانات، ولكن ليس كل الحيوانات قططاً.

إذاً هل يمكننا تحديد الشروط الضرورية والكافية لباتمان؟ بفضل القصص المقروءة على نطاق واسع مثل (Batman: Year One (1987 و The Dark Knight Returns (1986)، بالإضافة إلى سلاسل الرسوم المتحركة المختلفة وأفلام الحركة الحية، فإن تحذف العديد من الاحتمالات تتبادر إلى الذهن على الفور: إن باتمان رجلٌ، وهو بروس واين، وهو يرتدي زياً يظهره كوطواط، ويحارب الجريمة. باتمان يعمل بهذه الطريقة للانتقام لموت والديه، اللذين قتلا عندما كان طفلاً. ومنذ قتل والديه بواسطة مسدس، فإنه يرفض استخدام المسدسات، كما أنه لا يقتل خصومه أبداً. هذه هي صورة تقليدية إلى حد ما وغير مثيرة للجدل لسمات باتمان الرئيسية. لكن حل لي هذه المعضلة: هل هذه شروط ضرورية، وظروف كافية؟ أحدهما أم

كلاهما؟.

الجواب البسيط هو. . . لا. لا يعتبر أي جزء من هذا التصور عن باتمان شرطًا ضروريًا أو كافياً لشخص ما لكي يكون باتمان. لغرض المحاججة سنستخدم طريقة يدعوها الفلاسفة "عكس المثال". في البداية سنأخذ مرشحاً للحصول على شرط ضروري أو ملائم، ثم سنقدم مثالاً أو اثنين توضح سبب فشل هذا المرشح. المثال المضاد للشرط الضروري سيكون مثالاً على افتقار باتمان لسمة ما، مما يبين أن هذا الشرط غير جوهري لباتمان. أما المثال المضاد للشرط الكافي فسيكون مثالًا لتلك السمة في حال وجودها في شيء آخر ليس باتمان، مما سيبين مرة أخرى أن تلك السمة ليست حصرية لباتمان.

لنبدأ بالادعاءات القائلة بأن باتمان لا يقتل خصومه ولا يستخدم الأسلحة النارية. في ظهور باتمان الخامس يمكن العثور على مثال مضاد للطرح القائل بأن هذه الشروط ضرورية. Detective Comics 32 (تشرين الأول/ أكتوبر 1939)-فقط أبحث عن تلك النسخة، فأنا متأكد من أن لديك واحدة - تحتوي على الجزء الثاني من القصة والتي يحارب فيها باتمان مصاص دماء يدعى الراهب Monk. في هذه القصة، قام الراهب وشريكه بتنويم صديقة باتمان (جولي ماديسون) مغناطيسياً وأحتجزوها كرهينة. يحل باتمان هذه المشكلة بإطلاق النار على كلاهما بالرصاص الفضي ويقتلهم بينما هم نائمون، مظهرين أن شخصا ما يمثل باتمان قد استخدم مسدساً.[1] إذاً لا يعتبر أي من هذه الشروط كافياً ليكون الشخص باتمان أيضاً، حيث أن نقض بقية الشروط الأخرى سيكون أسهل من هذا الشرط الأخير حتى. من الواضح أن هناك العديد من الأشياء التي لا تقتل أو تستخدم البنادق ولكنها ليست باتمان، بدءاً من شخصيات القصص المصورة الأخرى، مثل الشمبانزي المحقق Detective Chimp، إلى أناس حقيقيين، مثل غاندي،

إلى الأشياء الجامدة، مثل كبّاستي.

غالبًا ما يقترح معجبو باتمان غير المتعمقين أن كون شخص ما بروس واين هو ضروري وكافٍ ليكون باتمان. ولكن قراء القصص المصورة المتعمقين بباتمان منذ أوائل التسعينيات يعرفون عن هذا الأمر بشكل أفضل. فخلال قصة Knightfall (1993-1994)، يتخلى بروس واين عن رداء باتمان بعد كسر ظهره من قبل باين. وما أصاب وأرعب المعجبين في كل مكان أن بروس قد اختار جان بول فالي Jean Paul Valley(البطل عزرائيل Azrael) ليحل محله، وفي قصة Prodigal (1994 - 1995) التي تلتها، اختار ديك غرايسون (وهو نايتوينغ Nightwing، وروبن الأول، والذي كان المحبون للسلسلة أكثر سعادة بوجوده). لذلك، ولأكثر من عامين، كان شخص ما غير بروس واين يظهر كباتمان، وبموافقة بروس واين نفسه. كذلك، في تلك الفترة فأن بروس واين لم يكن باتمان، مبيناً أن بروس واين ليس ضروريا ولا كافيا ليكون باتمان.[2]

ولعل المرشح الأكثر احتمالاً ليستوفي شرطاً ضرورياً ليكون باتمان هو من كان قد قُتل والديه. أولئك الذين قرؤوا قصة من عوالم أخرى تدعى Batman: Castle of the Bat (1994 يعلمون بأن هذا الشرط لا يمثل حلاً نهائي. حيث تبدأ هذه القصة مثل بداية قصة باتمان المتعارف عليها بوفاة والدي بروس واين. في هذه القصة، وكمحاكاة لقصة فرانكنشتاين الكلاسيكية، يكبر بروس واين ليصبح عالماً عظيماً ويكرس الجزء الأكبر من بحثه لإحياء الأنسجة الميتة. وفي نهاية المطاف، يتمكن بروس من إحياء والده بمساعدة المواد الحيوية المستخلصة من الوطاويط. ثم يرسل بروس الرجل الوطواط خاصته والذي يدعوه (وهذا ليس بالأمر المفاجئ) بـ"باتمان" للانتقام لوالديه الميتين. إن والد بروس واين المقتول هو باتمان في هذه القصة، لذلك لم يتم موت والدي "باتمان" في هذا الإصدار تقنياً.

ومرة أخرى، تصبح قضية الكفاية شـديدة الصعوبة مع هذا الشرط: فوجود والدين مقتولين أمر شـائع في قصص الأبطال الخارقين. فعلى سـبيل المثال لا الحـصر، تم قتـل والدي هيلينـا بيرتينيلـلي Helena Bertinelli، ولكن هذا السبب قد دفعها لأن تصبح الصيادة Huntress، لا أن تنتهي لتصبح باتمان.

وغالبًـا مـا يقال عن باتمـان أنه منعـزل، حيث أختار أن يعمـل بمفرده، ويتعـاون مع الآخرين عنـد الضرورة القصوى فقط. ولكـن عند التفكير في هـذا الأمر فـإن هناك عددا من الأمثلـة المضادة لهذا الادعـاء. في وقت مبكر جـدًا من تاريخ باتمان كان قد بدأ بالعمل مـع الآخرين. في فيلم Detective Comics #38 (April 1940)، تـم تقديم روبن الفتى المعجزة Robin the Boy Wonder كشريـك لباتمان، ليتزايد بعدها عـدد الحلفاء الذين إتخذهم الى جانبـه. وفي عـالم قصـص باتمـان المصـورة اليـوم، سـوف تقـرأ في بعض الأحيان إشارة إلى "فريق باتمان" أو "عائلة باتمان"، وهي مجموعة كبيرة من الأشـخاص الذين بات يعتمد باتمان عليهم (وهم روبن ونايتوينغ وأوراكل Oracle وغيرهـم). وينبغـي أن يكـون قـد بات مـن الواضـح أن كـون المرء وحيداً لا يكفي ليكون باتمان.

وبما أن أحد الأسـماء المسـتعارة لباتمان هو "فارس الظلام"، فقد يقترح البعـض أنه من الـضروري أن يكـون "باتمان" مظلـمًا وكئيبـاً. ولكن راجع قصص العصر الفـضي لباتمان،[3] فخلال هذه الفترة، وبفضل الهيئة التشريعية للقصص المصورة، كانت القصص المصورة للأبطال الخارقين لطيفة ومحببة، وكانـت القصص عادة ما تدور حول المخادعـين أو المحتالين. وأحد الأمثلة عـلى تلـك القصـص هـي Batman # 108، حيـث تظهر باتوومـان العصر الفـضي (كاثي كـين) لأول مرة. وهذه هي بداية سلسـلة مـن القصص التي تتميـز بالمغازلة بـين باتمـان وباتومان، بإطـار كوميدي رومانـسي نموذجي: حيـث يناضـل باتمـان للحفـاظ عـلى عزوبيته بينـما تجذبـه باتومـان للزواج.

سخيف؟ بالفعل، ولكن مظلم؟ بالتأكيد لا.

ماذا عن حقيقة أن باتمان يحارب الجريمة بالضرورة؟ كما كنت قد خمنت مسبقاً، فهناك أمثلة مضادة لهذا أيضاً. ومثالي المفضل هو حول باتمان الذي يرتكب الجريمة بدلاً من محاربتها هو جزء من بين جزأين من Justice League of America #37 – 38 (August and September 1965).

في هذه القصة، يتم تعريفنا بالأرض - A، وهي أرض حيث تكون فيها أصدارات أخرى من الأبطال الخارقين من العصر الفضي لـDC والذين يدعون فرقة الجريمة. في هذه القصة، تحارب فرقة العدالة (من الأرض - 2، لأولئك الذين يتتبعون موطن كل فرقة) فرقة الجريمة في عالم DC الكلاسيكي - المعكوس. (والأمر الظريف في مظهر باتمان في هذه القصة هو أن باتمان الأرض - A يبدو تماماً مثل باتمان العصر الفضي باستثناء أن لديه ظلال لحية خفيفة). لذا فمن الواضح أن كونك محاربا للجريمة ليس شرطًا ضروريًا لتكون باتمان. ومرة أخرى، فإن من الواضح أن المطالبة بالكفاية تسقط هنا، لأن جميع الأبطال الخارقين -ومن ضمنهم بوستر غولد Booster Gold- يحاربون الجريمة.

فتغنشتاين وألعاب اللغة

بدون أي شروط ضرورية وكافية، قد تتساءل كيف يمكننا تحديد ما يجعل شخصاً ما باتمان بنجاح. يمكن العثور على أحد إجابات هذا السؤال في تحقيقات لودفيغ فتغنشتاين (1889 – 1951) الفلسفية.[4] يُقرّ فيتغنشتاين أنه في محاولته لتعريف الأشياء مثل الـ"لغة"، فهو يضع نفسه في موقف شبيه بالذي نحن فيه مع باتمان حيث: »عوضاً عن التوصل إلى شيء مشترك بين الجميع و نسميه "لغة" فأني أقول بأن ليس لدى هذه الظواهر أي مشترك بينهم يدفعنا لاستخدام نفس الكلمة و تطبيقها على الكل، إلا أنها -أي تلك

الظواهر- ترتبط ببعضها الآخر بطرق عديدة مختلفة. وبسبب هذه العلاقة، أو كل تلك العلاقات، نستطيع تسميتم جميعًا بالـ"لغة".[5]

إن العلاقة التي يكتب عنها هي علاقة تشابه. وما يجعل كل الأشياء المختلفة التي تسمي "اللغة" لغة هو أنها متشابهة مع بعضها البعض. سُمِّيَ هذا التشابه بالتشابه الأسري من قبل فيتغنشتاين، لأنك ترى هذا النوع من التشابه في العائلات فقط. فكر في عائلتك، إذا كنت مرتبطًا بيولوجيًا، فسوف تشبه والديك وأشقائك إلى حد ما. إذا كان علينا إيجاد طرق نتشابه فيها جميعًا، فسوف نفشل. فعلى سبيل المثال، ربما تكون أنت وأحد أخوتك تملكون شعراً أحمر كوالدك، ولكن بقية أفراد عائلتك لا يملكون شعراً أحمر. وقد يكون لديك ولدى أخوتك وأمك أيضاً عيون بنية، ولكن والدك ليس كذلك. وقد يكون لديك أنف لا يبدو كالذي لأمك أو لأخوك أو لأختك. بالإمكان تطبيق نفس هذه الطريقة عند أخذك بعين الاعتبار شكل الجسم والوجه والبشرة وحجم الأذنين.

يستخدم فيتغنشتاين حالة الألعاب لحل هذه المسألة. حيث هناك العديد من أنواع الألعاب المختلفة. ما هو الشيء المشترك بينها جميعاً؟ إذا بدأت بالألعاب اللوحية، فقد تظن أن جميع الألعاب اللوحية تحتوي على قطع تتحرك حول اللوحات. وبإضافة ألعاب البطاقات الى المزيج، ستلاحظ أن أي من تلك القطع في الألعاب اللوحية ليست ضرورية هنا. وترينا ألعاب الفيديو والسوليتير أنه ليس من الضروري أن يكون هناك أكثر من لاعب واحد. وقد تظن أن جميع الألعاب ممتعة، ولكن ماذا عن اللعبة التي يحاول فيها البالغون ملاعبة الأطفال، مثل قولك لمجموعة أطفال: «لنرى من الذي يمكنه أن يكون هادئًا لوقت أطول؟» وتتضمن بعض الألعاب إمتلاك مهارة اللعب بشكل جيد، كالتنس، في حين أن البعض الآخر، مثل الروليت، لا تستدعي ذلك. ماذا عن لعبة الروليت الروسية؟ هذا هو مثال على لعبة خطيرة للغاية

على عكس معظم الألعاب (على الرغم من أنه لا يزال هناك فائزون وخاسرون محـددون فيها). بعض الألعاب، مع ذلك، ليس فيها فائزون وخاسرون حتى، مثل لعبة حلقة حول الورود ring – around – the – roses (هي لعبة غنائية يصنع فيها الأطفال حلقة حول الزهور ليدوروا حولها "المترجم"). لذا، يبدو أنه لا يوجد شيء مشترك بين جميع الألعاب، كل ما لدينا هو مجموعة من أوجه التشابه التي تشكل جزءًا من مجموعات مختلفة من الألعاب.

ولكـن لحظـة واحدة، قد يقول بعض الأشـخاص أن بعـض الأمثلة على الألعاب التي قدمتها ليست ألعابًا على الإطلاق، لا سيما ألعاب مثل الروليت الـروسي والحلقة حـول الورود. يبـدو أن هناك سـببًا جيدًا لإعتبـار الروليت الروسـية عـلى أنها لعبة. فبعـد كل شيء، الروليـت في الكازينوهات هي لعبة. إذا كان الرهـان بالمـال على عجلة تدور عشـوائياً ثم تتوقـف حيث تتمنى أنت هـي لعبـة، فلـماذا لا يعتبر الرهـان بحياتك بدلاً عـن المال لعبة أيضـاً؟ الحلقة حول الورود أيضاً تبدو كمرشـحة مقبولة لتكون لعبة. حيث أن لديها العديد مـن العناصر غير الموجـودة في الألعاب الأخرى الأقل متعـة منها: فهي مادية وممتعـة ولهـا مجموعة مـن القواعـد. أمّا السـبب وراء رغبتـك في رفض حلقة حـول الورود كلعبة هو لكونها لا يوجد فيها فائز، ولكن بهذا المعيار، فإن لعبة تتريـس الفردية لن تعتبر لعبة كذلـك (تتريس: لعبة فديو ظهرت في الثمانينات ولا زالـت مسـتخدمة حتـى يومنـا هـذا، وهي مـا تعرف عـادة بلعبـة ترتيب المكعبـات "المترجـم"). ولا يعنـي هذا عـدم وجود ما يمنعك من رسـم خط فاصـل لأعتبار شيء ما ليس بلعبة؛ المقصـود فقط هو إظهار أنه لا يوجد شيء حول الألعاب يحدد مكان رسمنا لهذا الخط الفاصل. الفرق هو أنك قد تقول: "إن حلقة حول الورود ليسـت بلعبة"، ولكن سـيكون ذلك مجرد ميزة خاصة بك تجعلك تحدد ما يجعل الألعاب ألعاباً، ولكنها لا تعتبر ميزة خاصة بالمفهوم الفعلي لكون اللعبة لعبة.

يمكننـا تقديـم رد مماثل على الاعـتراض الذي يقول بأننـا لا ينبغي لنا أن نحتسـب قصص العوالم الأخرى كحالات لباتمان. فعندما ترسم خطاً وتقول إن باتمـان يمكـن أن يُفهـم مـن مجموعـة الحـالات الضرورية حـول باتمان في الاستمرارية السائدة للقصة، أو من المفهوم العام لدى محبي باتمان، فأنت تختار بذلـك تحديـد وصف لمفهـوم باتمان. ومع ذلـك، فإن هذا يختلـف عن المفهوم الواقعي لأنه مجرد وصف ظاهري فقط.

وقـد يعترض بعض القـراء على أنه بدون حدود ثابتة لمـا هو لعبة وما هو ليس كذلك، فإن مصطلح لعبة لن يكون مفيدًا على الإطلاق. ومع ذلك، يبدو أن هذا غير صحيح. فكلنا نسـتخدم كلمـة «لعبة»، وكما رأينا، لا يمكن وضع مثل هذه الحدود. وهذا هو الحال أيضاً مع باتمان. ففي وقت سـابق رأينا أنه لا توجـد شروط ضرورية وكافيـة لكونه باتمان. ونظرًا لأن هـذه هي الحالة، فلا يمكننـا تقديم تعريف ملموس لباتمان تماماً كما لا يمكننا تعريف كلمة «لعبة». ومع ذلك، فإننا نسـتخدم كلمة «باتمان» بسـهولة، ونفهم ما يقصده الآخرون عندما يقولونها. لذا، يبدو أن المصطلح مفيد تمامًا بدون وجود حدود ثابتة.

ولكن كيف يجب أن نشرح لأحدهم ماذا تعني «لعبة»؟ يقول فيتغنشتاين إننـا نصـف ألعابًا محددة ومختلفة للفرد، ثم نضيف قائلين «والأشـياء المشـابهة لتلـك هـي ألعاب».[6] يبـدو أن هذا قـد يكون جوابـاً مقنعًا ليس فقـط لكيفية وصفنـا للعبة بطريقـة فيتغنشـتاين، ولكن أيضًـا لكيفية شرحنـا الفعلي لماهية اللعبة. فإذا ما قام طفل ما بسـؤالنا عن ماهية اللعبة، فسنشـير إلى الأمثلة التي يعرفهـا الطفل، ونقول: "مونوبـولي، كانديلاند (مدينة الحلوى)، والبيسـبول هي ألعاب، وكل ما تشابهها هي ألعاب أيضاً".

دعونـا ننظر الآن لهـذا الأمر من جانـب باتمان. إذا ما سـألنا أحدهم عن مـا ومـن هو باتمان، فسـنقدم قصـة مختصرة عن أصـول باتمان بنفـس الطريقة

التي قمت بها في بداية هذا الفصل. قد نذهب بعد ذلك إلى إستعراض بعض القصص المثيرة للاهتمام التي كنا قد قرأناها. حينها سيكون هذا الشخص قادراً على رؤية الحالات الشائعة التي تحدد باتمان كباتمان. قد تواجه بعد ذلك بعض الحالات الغريبة بالنسبة لباتمان والتي كنت قد أشرت لها، وستضطر إلى النظر في "هل هذه الحالة تنطبق على باتمان؟" ثم سيتمكن الشخص من رؤية المشتركات بين هذه الحالات الجديدة لباتمان ومفهومه السابق عنه، تمامًا مثل طفل يتوقف عن التفكير في ما إذا كانت المطاردة أو ماركو بولو كلاهما لعبة.

روبن؟ من يكون هذا؟

قد تستصعب فكرة أنه يتم فهم كل مصطلح في لغتنا من حيث التشابه الأسري، ولكن فيتغنشتاين لديه حجتين إضافيتين لإقناعك بذلك. أولاً، تخيل شخصاً ما يقول: «لا وجود لروبن». قد يعني هذا عدداً من الأشياء المختلفة. ربما يعني ذلك أن باتمان لا يملك أي شريك، ولكنه قد يعني أيضاً أن ديك غرايسون لم يعد شريكه. يعتقد بعض الفلاسفة أنه يمكن معالجة اسم «روبن» بسلسلة من الأوصاف. قد تكون بعض الأمثلة على ذلك «الصبي الذي قُتِلَ والداه عندما تم التلاعب بإرجوحتهم أثناء عرضهم في السيرك» و»الصبي الذي رفضت باربرا غوردون عروضه الجنسية». إن التبديل بين هذه التعريفات مع الادعاء القائل «لا وجود لروبن» يغير من هذا الإدعاء.[7]

ويستمر فيتغنشتاين بطرح هذه المسألة بطريقة مختلفة. لو تم تحديد تعريف "روبن" بواسطة هذه الأوصاف، ومن ثم تبين أن جزءًا واحدًا من هذا الوصف غير صحيح، فهذا يعني أنه لم يكن هناك روبن. لذا، فإذا تم "إعادة ضبط" قصة حياة روبن بحيث يتم قبول تودده الجنسي من قبل باربارا غوردن (كما هو الحال في قصة Zero Hour المستمرة)، وكنا متمسكين بإدعائنا

السابق على أنها لن تفعل ذلك، فهذا يعني أنه لم يكن هناك روبن من الأساس! لكن ليس ذلك ما يحدث حين نصطدم بمعلومات متضاربة. ما يحدث هو أننا نتوقف عن الاعتقاد بصحة تلك المعلومة غير المؤكدة عن روبن. إن النقطة المستهدفة من هذه الحجة هي أن اللغة تستخدم في كل وقت دون معنى ثابت. وقبل قراءة هذا الفصل، ربما ظن بعضكم أنه شرط ضروري لباتمان أنه لم يقتل خصومه. ولكن بعد أن تبين أن هذا غير صحيح، لم تقم بإنكار أن هذه الشخصية هي باتمان. وبدلاً من ذلك، فقد قمت بتعديل تصورك لباتمان.

يعتمد فيتغنشتاين على مثال آخر لإثبات وجهة نظره. تخيل أحدهم وهو يقول: "هناك باترينغ (هو سلاح معدني حاد يكون على شكل وطواط، عادة ما يرميه باتمان تجاه أعداءه "المترجم")"، وكلما اقترب منه شخص ما، اختفى. قد نقول إن الباترينغ لم يوجد قط وأنه كان مجرد وهم. ولكن تخيلوا كذلك أن الباترينغ يظهر مرة أخرى، ونكون الآن قادرين على لمسه. يمكننا الآن أن نقول أن الباترينغ كان حقيقياً وأن اختفاءه كان مجرد وهم. ولكن ماذا لو اختفى الباترينغ مرة أخرى، فقط ليعاود الظهور بشكل متقطع؟ هل هذا الشيء هو باترينغ أم لا؟ إذا كنت لا تعرف كيفية الرد على هذا السؤال، فلا تشعر بالسوء. فمعظم الناس ليس لديهم إجابة جاهزة لهذا السؤال. ومع ذلك فإن هذا سيكون كافياً لإيصال وجهة نظر فيتغنشتاين. إن حقيقة كوننا لا نعرف كيفية الحكم في هذه الحالة تظهر أنه يمكننا استخدام كلمة "باترينغ" دون وجود قواعد استخدام ثابتة. وإذا كان هذا صحيحًا، فنحن نستخدم اللغة بدون وجود معنى ثابت للكلمات، والسبب الوحيد المقبول لذلك هو أننا نفهم كل الأشياء عن طريق التشابه الأسري.[8]

يقدم باتمان والأبطال الخارقون بشكل عام حالات حقيقية لمثال الباترينغ المتكرر الإختفاء. حيث يتم كتابة قصص جديدة باستمرار، وبذلك يتم تضمين العديد من التغييرات على الوضع الراهن للشخصية. لاحظ قصة

The Dark Knight Returns. فقبل كتابة هذه القصة، كان الناس يعتقدون بأن باتمان و سوبرمان صديقان، وأن كلاهما خيّران. ولكن هذه القصة تضع الشخصيتين على خلاف، حيث يدافع كلاهما عن مواقف متعارضة يلتزمان بها أخلاقياً. وبالنظر لهذا الوضع، فلا يمكن لكليهما أن يكونا خيّرين. إذن ماذا فعلنا عندما قرأنا هذه القصة؟ لقد تركنا مفاهيمنا السابقة عن الشخصيتين تتغير نظراً للمعلومات الجديدة التي توفرت الآن.

إبقاؤه ضمن العائلة

في الختام، لننظر فيما تعنيه قيمة التشابه الأسري للمجالات الأخرى للفلسفة. بالنسبة للمبتدئين، فإذا كان فيتغنشتاين على حق، فسيكون هذا بمثابة اعتراض على النظريات الأخلاقية التي تحاول استخدام الشخصيات الخيالية كنماذج أخلاقية (كما في الفصل الذي قدمه كل من ديفيد كايل جونسون وريان رودس في هذا الكتاب). وإذا لم يكن هناك وصف ثابت يمكن إعطاؤه لشخصية، فلن تتمكن من الإشارة إلى سمات معينة لهذه الشخصية، أو إلى كيفية تصرف هذه الشخصية في موقف معين. بعبارة أخرى، فإن عبارة «يجب عليك التصرف مثل باتمان» لن تساعدنا في تحديد كيفية التصرف، لأن «باتمان» قد يتصرف بطرق مختلفة في ذات الحالة في إصدارات أو فترات زمنية مختلفة. يمكنك دومًا توضيح ما تعنيه بتعبير باتمان بالإشارة إلى سمات شخصية محددة، أو كيفية تصرفه في مواقف محددة. ولكن إذا قمت بذلك، فلا يوجد سبب للإشارة إلى باتمان كنموذج أخلاقي، حيث يمكنك الإشارة إلى السمات تلك. ومن النادر أن تقتصر الأفكار الفلسفية الكبرى على مجال واحد من الفلسفة، فكثيراً ما يمكن أن يؤدي السؤال في الفلسفة الأخلاقية، على سبيل المثال، إلى لغز ميتافيزيقي أو معرفي. وبهذه الحالة، فإن كل الفلاسفة هم محققون، لكن ليس كل المحققين. . . حسناً، أعتقد أنك قد فهمت قصدي الآن.[9]

هوامش الفصل الثاني عشر:

1- ومع ذلك فإنك قد تجادل بأنه لم يقتل بالفعل، لأنه مصاص دماء، أي أنه ميت بالفعل. حسناً، ولكن في The Dark Knight Strikes Again (2001)، فإن باتمان يقتل ديك غرايسون بالفعل (والذي أصبح قاتلاً، وقتل أبطالاً خارقين مسنين) بإلقائه في حفرة مليئة بالحمم.

2- يظهر مثالي المضاد المفضل في الواقع أن كل من المطالبة بالضروريات والمطالبة بالترفيات هي غير صحيحة. في العدد #167 من World›s Finest (يونيو 1967)، نشهد عالماً يكون فيه كلارك كينت باتمان وبروس واين سوبرمان.

3- العصر الفضي للقصص المصورة هو الفترة الرئيسية الثانية للكومكس (العصر الذهبي كان الفترة الأولى)، والذي بدأ منذ نهاية الخمسينيات وحتى بداية السبعينيات.

4- لودفيغ فيتغنشتاين، تحقيقات فلسفية، ترجمة ج. ي. م أنسكومبي (Oxford: Blackwell 1953). جميع الإستشهادات في هذا الفصل مصدرها هذا الكتاب.

5- المرجع الأخير، الملاحظة 65.

6- المرجع الأخير، الملاحظة 69.

7- المرجع الأخير، الملاحظة 80.

8- المرجع الأخير.

9- أود شكر كل من روث تالمان وكلاريس فيرغسون لتعليقاتهم المفيدة.

13

كيف هو الحال عندما تكون باتمان؟

بقلم: رون نوفي

«لقـد حظيـت بيـوم سيء في وقت مـا، هل أنا محـق؟ أعلـم أنّي كذلك. أسـتطيع القول بأنك قد حظيت بيـوم سيء، ومن ذلك الحين تغير كل شيء. فما الذي يمكن أن يدفعك لارتداء ملابس جرذ طائر».

- الجوكر، The Killing Joke 1988

"لن أستطيع قتلك يوماً. أين ستكون المتعة بغياب نقيضي المستقيم؟".

-الجوكر Batman#663 (فبراير 2007)

الرد على هاتف الوطواط

تخيل نفسـك تفعل مـا يفعله باتمان. هل سـتجعلك تجربـة الأمر تعرف كيف هو شعور أن تكون باتمان؟ فمثل الكثير من الأطفال مع دافعهم للقفز من الأثاث والعدو خلال مداخل المنزل، كان الأمر قد استغرق مني منشفة

حمـام معلقة حول رقبتي فقط لأصبح باتمان. وكنت انزلق عبر أرضية المطبخ المشـمعة ببجامتي، وكنت أصنع موسيقاي التصويرية الخاصة منشداً: «ناه – نا ناه – نا، ناه – نا ناه – نا» وهي موسيقى من برنامج تلفزيوني في الستينيات. في ذلـك الوقت، لم يكن لدي أي شـك في أن هذه كانـت تجربة باتمان كاملة. لكن وكما اتضح لاحقاً، فقد كنت مخطئاً.

في الواقع، إذا ما تمكنت أنت أو أي شخص آخر غير باتمان من معرفة ما يعنيه أن تكون «باتمان»، فستحتاج إلى تلبية شرطين على الأقل: أولاً، يجب أن تتضرر جسـدياً ونفسياً بشـكل فائق كما حصل لباتمان؛ وثانيًا، يجب أن تكون لديـك نفـس التجارب والعلاقـات مع العالم مثـل باتمان. وكما سـنرى، فإن الشـخص الوحيد الذي يقترب من استيفاء هذه الشروط هو الجوكر، وحتى هو لم يكن يعرف حقيقةً كيف يكون الشخص باتمان.

كيف هو الحال عندما لا تكون كباتمان

يشـير مصطلح الظاهـرة إلى التمظهر الذاتي للأشـياء الماديـة في تجربتك الواعية الخاصة. لذلك، وأثناء قراءة هذه الجملة، تسـجل حواسـك مجموعة متنوعة من المنبهات: كالعلامات الداكنة على منطقة مضيئة، أو وزن وتركيب معين في يديك، وربما أيضًا رائحة القهوة الطازجة وصوت المطر على النافذة. في حـين أنـه يمكن قياس وزن الكتاب أو أثر القهوة العربية في الهواء بشـكل موضوعي، فإن تجربتك لهذه الظواهر تكون ذاتية، شيء لا يمكنك الوصول إليه إلا من خلالك أنت.

والآن، فـإن التـصرف كباتمان مختلف تمامًا عن معرفـة ما يعنيه أن تكون باتمـان. ففي أحسـن الأحوال، يمكن للمرء أن «يفعـل ما يفعله باتمان» – أن يجلس في سـكينة في كهـف الوطواط، ويبدي إعجابه بجسـد كاتومان المثير،

أو يلاحـق بعض أتبـاع الجوكر في زقاق مظلم ما. وبقـدر ما تعكس أفعالك ما يفعله باتمان، فمع القليل من الممارسـة، سـيمكنك التصرف بشـكل يشابه جـداً كيفيـة تصرف باتمـان - ولكن هذا لا يشـابه معرفة ما يعنـي لباتمان أن يكون باتمان. وحتى لو وصل الأمر لأن تضعك دورياتك الليلية التي تجريها مع مجموعة من أصدقائك وأنتم ترتدون ملابس مقاربة لما يلبسـه باتمان على الصفحات الأولى من الجرائد الرسمية لغوثام.

ومـع ذلـك، فإن تجاربك الاسـتثنائية هي ملكك أنت فقـط، حتى تلك التـي تحدث وأنـت تتخيل نفسـك باتمان وتـؤدي «أعمال باتمـان». ولتعرف حقيقـة تجربـة باتمـان في مثل هـذه الأحـداث - أي معرفة ما يعنيـه أن تكون باتمـان - سـتحتاج إلى معرفة خـبرات باتمان الذاتيـة والمعرفة التـي يبدو بأن باتمان لوحده (على ما يبدو) من يستطيع الوصول إليها.

أننـا نجد أنفسـنا جميعاً محدودين معرفيـاً بنفس هذه الطريقـة فيما يتعلق بالتجارب الشـخصية للكائنات الواعية الأخرى. لذا، ولتوضيح مسـألة قد أصبحت مملة الآن، فعندما يُزعم بأنه لن يمكننا أن نفهم منظور شخص آخر لشيء ما حتى «نقطع ميلاً في حذائه (أي أن نتجسّـد في شخصيته ونتلبّس بها «المترجم»)»، فهذا لا يعني أننا نستطيع أن نعرف ماهية الشعور بهذه التجربة في الواقـع بنفـس الطريقـة التي يشـعرها ذلك الشـخص الآخر، بـل يمكننا فقـط تخيل مـا قد تكون عليه هذه التجربة بالنسـبة له. ومـع ذلك، يمكن أن يـؤدي ذلك في كثير مـن الأحيان إلى تحقيق الفهم المرغـوب فيه، وليس لأننا قـد اختبرنا بالفعـل كيف يكون الأمر عندما نكون ذلك الشـخص، بل لأننا مخلوقـات صاحبة خيال وعطوفة. حيـث بإمكاننا أن نفهم بعضنا الآخر لأن الناس متشـابهون بطرق عديدة: فنحن نشـترك في خبرات وأعضاء جسمانية متشابهة، وما إلى ذلك.

وبهذه الطريقة، وعلى الرغم من أننا لم نتقابل أبدًا، فلديك فرصة معقولة

للحصول على تجربة استثنائية شبيهة بتجربتي عندما، وعلى سبيل المثال، أصيب إبهامي بمطرقة. وأقول «معقولة» ليس لمجرد أنك قد اختبرت أو كنت تتخيل تجربة مثل هذا الشيء، ولكن لأننا نتشارك في ذلك النوع من الخلفية الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية التي تخلق في مخيلتنا ألم ضربة مثل هذه، تلك الصرخة المدوية التي ترافقها، وبعض الإحراج الطفيف جراء ضربك لنفسك بالخطأ. يمكنك أن تتوقع بشكل معقول أني قد أمسك اليد المصابة بقوة وأطلق بعض الكلمات البذيئة، ومرة أخرى ليس لأنك كنت قد آذيت نفسك بنفس الطريقة بالضرورة، ولكن لأن لديك تجارب أخرى مماثلة بما فيه الكفاية لتخيل ردة فعلي في هذا الحادث.

هذا كله يبدو منطقيًا إلى أن تكتشف أنك لا تشبهني بطريقة معينة: ربما يفتقر إبهامك إلى متحسسات الألم - وهي الخلايا العصبية الحسية التي تترجم المنبهات على شكل إشارات كهربائية وترسل هذه المعلومات إلى الجهاز العصبي المركزي - بينما لا يفتقر إبهامي لها. وبدون قدرة مشتركة على الشعور بالألم، فلن يكون لديك أي أسباب لإدعاء أنك تملك فكرة جيدة عما أشعر به جراء تلك الحادثة المفترضة، وحتى لو كنت قد تعلمت أن تحاكي ردود فعلي المتعلقة بالألم مثل القفز صعوداً وهبوطاً في نوبات جنونية، والبكاء، وترديد كلمات نابية.

وباتمان، مثلنا بالضبط، هو رجل عادي، بلا قوى خارقة: حيث لا يملك قوى مهداة من الآلهة الأسطوريين، ولا يملك جسداً فضائيا، ولم يتعرض الى حادث إشعاعي مفيد. ولكن بدلاً من ذلك، فإن جسده يشبه أجسادنا، حيث أن «قوته» هي نتاج تدريب جسدي صارم، وقدرته على تضييق الخناق على المجرمين، وإمتلاكه لما أطلق عليه الجوكر الذي مثّل دوره جاك نيكلسون «تلك الألعاب الرائعة». ومع ذلك، فباتمان ليس مثلنا تماماً.

الوطاويط وتوماس ناغل

على حسب علمي، فإن توماس ناغل (مواليد 1937) ليس بطلاً خارقاً، ولم يتم اتهامه أبداً بأنه باتمان، ولكنه فيلسوف مشهور وكاتب مقالة «كيف سيكون الأمر إن أصبحت وطواطاً؟»[1] في هذه المقالة، يجادل ناغل بأنه حتى الاعتبار التام للشيء المادي الذي يدعى "الدماغ" سيفشل رغم كل شيء في وصف ما نعنيه بكلمة "العقل". ولعل الأهم من ذلك، أن مثل هذا الإختزال لـ"العقل" إلى "الدماغ" لن يكون قادراً على تفسير السمة المركزية للوعي – الشخصية الذاتية لخبرتنا. وكما يقول ناغل: "إن للكائن الحي حالات ذهنية واعية إذا وفقط إذا كان هناك شيء مشابه لأن يكون ذلك الكائن الحي – شيء مشابه لذلك الكائن الحي".[2]

لاستخدام مثال ناغل، لا يمكننا أنا وأنت معرفة ما يعنيه أن تكون وطواطاً. إن خبرات عائلة الوطاويط Chiroptera في العالم تختلف إختلافاً كبيراً عنّا نحن نوع الإنسان العاقل Homo Sapiens: فهو ينام متدليًا من سقف الكهف، ويطارد الحشرات بأجنحة جلدية، ويتنقل في مسارات طيران معقدة عن طريق تحديد الموقع بالصدى.[3] في حين يمكننا أنا وأنت أن نتخيل كيف سيكون الأمر بالنسبة لنا – عندما يتظاهر البشر بأنهم وطاويط – أن يعلقوا رأساً على عقب أو يأكلون الحشرات وهم يطيرون، إلا أن تجاربنا لن تكون متطابقة مع تجارب الوطواط أبداً. حيث تعتمد تجربتنا الذاتية، حتى بنفس الظواهر الفيزيائية التي يواجهها الوطواط، على حواسنا الخاصة وعلى تاريخنا الخاص.

بالنسبة لناغِل، فأن هذا العجز عن التقاط الخبرة الذاتية يعطينا بالضرورة جانباً منقوصاً من الوعي. وفي الحين الذي ركز فيه ناغل على مهاجمة الفرضية القائلة بأن التجربة الذاتية والوعي يمكن فهمهما بشكل كامل على أنهما "مجرد" حدث مادي للدماغ، فأنه ينبغي التأكيد على أنه بالنسبة لمحدد المواقع

بالصــدى، فان وجــوده أو غيابه عند البشر لا يعتبر نقطة حاســمة أو مركزية في نقاشــه هذا. إن تركيز ناغل على قدرة الوطواط على تحديد موقع الأشـياء بواسـطة الصدى، وهو "حاسة" عادية بالنسـبة إلى الوطاويط ولكنه غريب تماماً بالنسـبة لنا، يجعل عجزنا عن "معرفة ما يعنيـه أن يكون المرء وطواطاً" واضحاً تمامًا. ومع ذلك، فما لم نكن مستعدين للاعتراف بأن أي إنسان عاقل بإمكانــه معرفــة ما يعنيه أن يكون إنســاناً عاقلاً آخر، فيجــب أن يكون هناك شيء ما إلى جانب الاختلاف في نوع الأجســام كامن وراء هذه القضية. ومن المؤكد بأن الافتقار إلى الخبرة المشتركة، لا إلى الأجساد المتشابهة، هو المطلوب في هذه المسألة.

لنفــترض بــأن باربــارا غــوردون، المعروفة أيضًــا باســم أوراكل، وهي قرصانــة حاســوبية والعقل اللامــع وراء Birds of Prey (ناهيك عن كونها باتغيرل "المرأة الوطواط" ســابقاً)، لم تبدأ حياتها المهنية كأمينة مكتبة ومحاربة للجريمة، ولكن كعالمة تدرس الفســلجة العصبية للرؤية.[4] حيث إنها تعرف كل مــا يمكن معرفته عن العمليات الفيزيائية التي تتســبب في الإبصار، بدءاً مــن فيزياء الفوتونات إلى الطول الموجــي المرتبط بمصطلح "المارون"، ومن تشريح الشبكية إلى العمليات الكيميائية المعينة التي تشارك في نقل المعلومات البصرية الى الدماغ. ولســبب غريب، فقد أمضت باربرا حياتها كلها في غرفة خالية تماماً من الألوان، وقد عايشــت العالم الموجــود خارج غرفتها فقط من خلال جهاز تلفزيون أبيض وأســود. لذلك، في حين أن باربرا تمتلك أعضاء بصرية متكاملة من القرنية إلى الفص القذالي، إلّا أنها لم تشاهد أبداً حقلًا من الإقحوانات الصفراء أو البرتقال في محلات البقالة أو المنقذين ذوي الأجسام البرونزية على ساحل المحيط.

والآن افــترض أنه وبينما هي نائمة، قمــت بوضع طماطم لامعة ناضجة على منضدة باربارا. وحتى مع معرفتها الكاملة بالعمليات الفيزيائية اللازمة

للرؤية، فعندما ترى الطماطم في الصباح، هل يجب أن نتوقع بأن تكون تجربتها "للحمـرة" مشـابهة للتجربة الخاصة بك أو بي؟ ذلـك لا يبدو محتملاً بالنظر إلى عـدد المـرات الذي لا يحصى من الأماكن، والأزمـان، وألوان "الاحمرار" التي مررنا بها أنا وأنت في الماضي مقارنة بتجربتها الوحيدة هذه. إذا كان هذا هـو الاختلاف بين تجربة باربارا غـوردون للاحمرار وتجربتنا نحن، فيبدو من المعقـول أن نتوقـع بأنك إذا كنـت تعرف ما يعنيه أن تكون باتمان، سـيتطلب منـك ذلـك أن تكون لديك تجارب تكوينية مشـابهة لتجاربه. وبالنظر إلى أن باتمـان والجوكـر قد تحولـوا إلى الكائنات التي هم عليهـا الآن نظراً للظروف النادرة والمرعبة المتشـابهة التي مروا بها، وبالنظر إلى أن كلاً منهم حاول فهم العالم من خلال هذه العدسـة المشـتركة المشـوهة، فأنا أظن بأنه إذا كان هناك أي شـخص غـير باتمان يمكنـه أن يعرف كيف هو الأمـر في أن يكون باتمان، فإن ذلك الشخص سيكون الجوكر.

الحرية والصراع

«عنـد كل فرصة، تظهر الحقيقـة للعلن، حقيقة الحيـاة والموت، لعزلتي ورابطـي مـع العـالم. . .لتفاهة وأهميـة سـيادة كل رجل وجميع الرجـال. . . لنحاول تقدير الغموض الجوهري الذي يحيطنا. يجب علينا أن نسـتمد قوتنا للإسـتمرار بالحياة ودافعنا للإستمرار بالعمل من معرفتنا للظروف الحقيقية لحياتنا».

– سيمون دي بوفوار[5]

والآن لنخرج عن موضوع نقاشنا قليلاً، ونتحول من مناقشة الظواهر والوعي إلى مناقشـة وضع الحرية والهوية، ولكن لسـبب وجيه جدًا. فتماماً مثلـما تختبر أنت وبربـارا غوردون المحرومة من رؤية لـون احمرار الطماطم

بشكل مختلف على الرغم من أن كليكما تمتلكان القدرة على رؤية اللون الأحمر، فإن باتمان والجوكر يجدان حياتهما مبنية على أسس متشابهة، وهو الأمر الذي نتج عن روايات مختلفة جداً أوصلت كل رجل إلى مكانه الحالي في الحياة.

إن كل من هوية باتمان والجوكر الذاتية ومعهما تصوراتهم عن الواجب والحق ترتكز بقوة على الحرية الظرفية، وهو مفهوم طورته سيمون دي بوفوار (1908 – 1986).[6] حيث تشير الحرية الظرفية إلى فكرة أن قدرتنا على التصرف وفهم العالم رهينة دومًا بتجربتنا الحية للعالم. وبعبارة أخرى، فإن هناك ظروفا موضوعية نعيشها، وتوفر هذه الظروف بعض الخيارات أمامنا في الوقت الذي تغلق فيه خيارات أخرى. وهكذا، وبينما من المحتمل أن يعيش باتمان في عهد إنسان نياندرتال في كهف الوطواط، فإنه لن يعرف ركوب الباتموبيل ولن يفهم أي شيء عن الجوكر سوى حاجته لضربه. وبالمثل، فمن الصعب تخيل باتغيرل من عصر الملكة إليزابيث يمكن أن تظهر علانية بدون مشد للخصر وتنورة من ذلك العصر، أو تتاح لها الفرصة لتطوير مهارات قتالية كالتي لباربرا غوردون أو كاساندرا كاين.

ويعني جزء "الحرية" من مفهوم الحرية الظرفية بأن الفرد في وضع يسمح له باستمرار بالقيام بخيارات مجدية تتلاعب بالعالم حوله، وهي خيارات ستحفّز بدورها ظهور خيارات أخرى في وقت لاحق. وبالنظر إلى أننا كائنات اجتماعية بمستقبل مفتوح بهذه الطريقة، فإن الخيار المتخذ من قبل شخص ما قد يغير من الخيارات المتاحة لشخص آخر. لذا فإن أصغر قراراتنا حتى تحمل معها بعض المسؤوليات الأخلاقية.

وعلى سبيل المثال، فإن قرارك في الإنضمام كأحد أتباع البطريق سيعمل على توسيع فرصك المستقبلية من جانب وتقييدها من جانب آخر في الوقت ذاته. حيث ستلتقي بأشخاص وتزور أماكن لم يكن من

المحتمـل أن تصلهـا لو لا خيـارك هذا، بينما سـتضحي في الوقت ذاته بكل فرصـك للإنضـمام إلى أكاديمية الشرطة. كما أنه سـيظهر تأثـير قرارك هذا على عائلتك: فالثروة والقوة التي سـتأتي مع كونك تابعا للبطريق قد تدفع طفلـك للإنضمام إلى أكاديمية برينتوود Brentwood مع تيم درايك Tim Drake وسليلي عوائل عريقة أخرى في غوثام. وبالمثل، فقد لا يتمكن أحد أصحـاب المتاجر المديني للسـيد كوبل بـوت من العزف ثانيـة على الكمان بسبب عنفك ووحشيتك التي ستقود لتحطيم أصابع يديه.

إن القـول بـأن هذه الحرية هـي "ظرفية" هـو اعتراف بأننـا جميعًا قد ولدنـا بالفعل في عالم مليء بالمبـاني والأيديولوجيـات والقصائد والتجارة وأخصائيـي صحة الأسـنان والأسـاطير والبكتيريـا والقبعـات. حيث لم يبـدأ العالم من جديد مـع ولادتنا، بل هو منتج مسـتقل ومعقد من الماضي يجـب أن نتعلم كيفية التنقل خلاله. وعلى هـذا النحو، فهناك حقائق حول وجودنا نحن لا نملك سوى القليل من السيطرة عليها أو لا نملك سيطرة عليها مطلقاً، بدءاً من جنسـنا الذي ولدنا فيه وضعف بصرنا وحساسـيتنا للفراولـة وصـولاً إلى متى وأين ولمن ولدنا. إن من الواضح على الأقل بأن بعض هذه الحالات الطارئة يمكن أن تؤثر على الخيارات المستقبلية المتاحة لنا.

إن إدراك ظرفيـة الحريـة هـو إقرار أيضاً بـأن المسـتقبل لم يُكتب بعد، وكذلك بأننا نترنح على حافات العنف. وبينما نتشـاطر جميعنا الرغبة في أن نعيش حياة إنسـانية قدر الإمكان، فإن القرارات التي يتخذها الأشخاص المرتكـزون عـلى ظـروف مختلفـة لـن تـؤدي بالـضرورة إلى فتـح أو غلـق الخيارات المسـتقبلية نفسـها. وبما أنه لا يمكن أن تتحقق جميع الاحتمالات المستقبلية في وقت واحد، فإننا سنتعارض حتمًا مع بعضنا البعض. وبالتالي فإن العنف هو وجود دائم يترصد بحافّات الحرية الإنسانية.

يوم سيء واحد

«كل ما يحتاجه الأمر هو يوم سيء واحد ليصل أعقل إنسان الى حافة الجنون. . . لقد مررت بيوم سيء، وقد قادك لتكون مجنوناً كأي شخص آخر هنا، أنت فقط لا تعترف بذلك!

عليك أن تستمر بالإدعاء بأن للحياة معنى، وبأن هنالك قصد خلف كل هذه المعاناة!

يا إلهي، إنك تشعرني بالقرف».

- الجوكر The Killing Joke

لقد ولد كل من باتمان والجوكر بسبب العنف، حيث أن كلاً منهما هو نتاج تحول شخص عادي إلى ما هو عليه الآن بعد مروره بـ "يوم سيء واحد". إن العلاقة الغريبة بينهما هي بسبب الجنون الذي يشترك فيه ملاكان للموت مختلفان بما أختبراه من ظروف ضرورية للحرية الإنسانية.

إن قصة باتمان معروفة، حيث شهد بروس واين وهو طفل قتل والديه بدم بارد من قبل أحد صغار السرّاق. وعلى الرغم من تعاونهم معه، يفقد السارق أعصابه ويطلق النار على الزوج. وفي تلك اللحظة، لم يخسر بروس والديه فقط، بل وفهمه الوهمي للعالم أيضاً. إذ يدرك فجأة بأن ليس كل الناس محترمين ولا يهتم الجميع بسعادته؛ وبأن بعض المشاكل لا يمكن حلها من خلال ما تملكه من رصيد ضخم في حساب مصرفي؛ وأن الكراهية التي تحملها داخلك والعنف المتفجر يمكن أن يحرِّراك؛ وأن العالم المضيء لمؤسسة واين مبني على أساس لا تصله الشمس حيث المعاناة والعوز موجودان فيه.

أمّا "اليوم السيء الواحد" للجوكر فهو معروف بشكل أقل: حيث يفشل مهندس كيميائي غير مرموق بتحقيق حلمه بأن يصبح ستاند أب كوميدي. ويفقد زوجته الحامل في حادث سيء الحظ، ليضطر إلى الإشتراك

بسرقـة فاشـلة من صاحـب عمله السـابق، ثم يسـقط داخل حاويـة للمواد الكيميائية السـامة أثناء فراره من الشرطة.[7] هنا كان الجوكر قد خرج مُعمّداً: بشـعر أخضر، وجلد شـاحب، مصاباً بالجنون. وبملاحظة الشـبه مع تجربة باتمـان في الإنهيـار والبعث من جديد، فـأن الجوكر مذهول مـن التزام باتمان بمحاربة الفوضى:

"عندمـا رأيـت ان العـالم ليس سـوى مزحة سـوداوية مريعـة، اصبت لحظتهـا بالجنون! أنا أعترف بذلك! لماذا لم تسـتطع أنت؟ أعني، إنك لسـت بالشـخص الغبي! يجب أن ترى حقيقة الوضع. . . .كل شيء هو مزحة! كل مـا يثمنـه أو يكافح من أجله أي شـخص هو مجرد هراء بشـع! فلماذا لا ترى الجانب المضحك؟ لماذا لا تضحك؟".[8]

بالنسـبة لكل من باتمان والجوكر، اسقط العنف الصورة المتماسكة للعالم دون توفـير بديل؛ إنهما يتشـاركان هـذا الإدراك ويرتبطـان ببعضهم البعض في محاولـة لفهمـه. ومثـل غاصبـي معبـد اليهـود أو زائري أوز، فـكل منهم كان قـد ألقى نظرة خلف سـتار المظاهر، أي إلى مـا هو أبعد من العالم الظاهر "المجـرد". إن إدراك أن مـا نسـميه "العـالم" هـو مجرد مظهر أنشـأته عقولنا مـن خلال البيانات الحسـية المتلقاة، وهـذا هو أيضاً اعتراف بـأن هناك عالما "خارجيـا" لم تصلـه أنظارنا أو نلمسـه. هـذا العالم الآخر الـذي يقبع خلف المظاهـر – والذي يطلـق عليه إيمانويل كانط (1724 – 1804) اسـم العالم القائم في ذاته (العالم النومينالي) noumenal world – هو عالم مرعب.[9] وهـو بمثابة المحـرك الذي تبنى عليه معرفتنا. ومع ذلك، لا يمكننا أن نعرف إلا القليل عنه بصرف النظر عما يمكن استنتاجه من تلك المظاهر الوهمية.

إن هذه التجربة في التحرر من الوهم والحصول على هذه المعرفة السرية تربـط بـين باتمـان والجوكر، على الرغم مـن أن كلاهما غير متأكـد تماماً مما تم الكشـف عنه حول "حقيقة" العالم. وبالرغم من أن لديهما آمالاً مختلفة بشأن

طبيعـة هذا العالم وراء المظاهر، فإنهـم يمتلكون فقط بعضهم البعض للتعبير عـن الإدراك المرعب بأن هذا العالم، عالمنـا من رجال الشرطة واللصوص – صافرات الإنذار والمقابر، غير موجود بالنسبة لهما.

وحتـى مـع الاعتراف بأن هـذا العـالم الظاهري هو احد تلـك المظاهر، فـإن باتمان والجوكر، على الأقل بالنسـبة لهما شـخصياً، يتصرفـان فيما لو كان هذا العالم مهما. لقد أنهى باتمان الكثير من سلاسـل قصصه وهو يعيد الجوكر الى مصحـة آركام، وهـو أمر قد لا يتوقعـه المرء بالنظر إلى عـدد الجرائم التي إرتكبهـا الجوكـر والفـرص العديدة التـي قدمها باتمـان لمدينة غوثـام لتوفير "حل أكثر ديمومة" لعلاج مشكلة الجوكر.[10] ومع كشفه للسيد زاسز، وهو مغتصب وقاتل متسلسل والذي يحتفظ بذكرى كل عملية قتل بوضع علامة على جسده، فإن باتمان يحتاج إلى مواصلة علاقته مع من يحاربهم. ومن خلال صراعه معهم يكتسب إدراكاً بأن هناك شيء منفصل عن العالم الظاهر: "هل تريـد أن تعرف ما هي السـلطة؟ السـلطة الحقيقية؟ إنها ليسـت بالقدرة على إنهـاء حياة، وإنـما بإنقاذها. إنها في البحث في عيني شـخص ما ورؤية شرارة إدراك وفي تلك اللحظة يدركون شيئًا لن ينسوه أبدًا".[11]

يعـترف الجوكر أيضاً بهـذه العلاقة المتبادلة مع باتمـان، العلاقة التي من دونها، سيتوقف كلاهما عن أن يكونا ما هما عليه. وكما يشرح ذلك لباتمان: "لا يمكنك قتلي دون أن تصبح مثلي. ولا أستطيع أن أقتلك دون أن أفقد الشخص الوحيد الذي يستطيع مواكبتي. ألا ترى بأن هذا مثير للسخرية؟!"[12] بالنسبة للجوكر، خلف الواجهة التي ذابت في خزان السـموم الكيميائية، فلا توجد إلا الفـوضى. وفي حـين أن الفوضى ليس لها معنى بالمعنى الحرفي للكلمة، إلا أن الفـوضى هنا محرِرة بالكامل، ففي الفـوضى، لا خوف يكبح جماحك ولا شروط قـد تحد من خياراتـك. ووفقاً لمعالجته في مصحـة آركام، فإن الجوكر "يخلق نفسه كل يوم. إنه يرى نفسه سيداً للفوضى والعالم مسرحاً للسخف".

[13] أمّا بالنسبة لباتمان، فهذا العالم الواقع خلف المظاهر هو عالم منظّم، وإن لم يكن منظماً بالطريقة التي يمكنك قراءتها في كتاب فيزياء مبسط. بل هو نظام أخلاقي علينا أن نصارع ونكافح من اجل ايجاده واقامته من خلال الاعتراف بتأثير خياراتنا وقراراتنا على مستقبل الآخرين المشترك.

كيف يبدو الأمر حين تكون خارجاً من المصحة

ومع ذلك، وبالرغم من جميع الأحداث المشتركة، الجنون، والفوضى، والمآسي، والانتصارات التي حظي بها كل من باتمان والجوكر، إلّا أنهما لم ولن يستطيعا معرفة ما يعنيه أن يكون أحدهما مكان الآخر. إن تجربة باتمان الظاهرية وحريته الظرفية هي ملكه الخاص بالكامل؛ وبالمثل فإن تجربة الجوكر الظاهرية وحريته الظرفية هي ملكه بالكامل أيضاً؛ وكل واحد منهما ليس بقادر على تجربة العالم بأي طريقة أخرى. ومع ذلك، فإن كل من باتمان والجوكر ملتزمان بالمهمة العبثية رغم جديتها والمتمثلة برؤية العالم كما هو حقاً. يبدو أن كلاهما يدرك بأن هذا يتطلب نوعًا من الاختبار، وبالتالي مشاركة الآخر، رغم عجز الآخر التام عن تجربة العالم بنفس الطريقة.

ومع أخذ ذلك في الاعتبار، ضع في اعتبارك النكتة التي يرويها الجوكر لباتمان في نهاية The Killing Joke بينما ينتظرون وصول الشرطة. يقرر نزيلين أنه يجب عليهما الهروب من مصحة المجانين معًا. ثم يتدافعون صعوداً الى سطح المصحة وينظرون إلى العالم المتسع أمامهم تحت ضوء القمر. قفزة واحدة فقط فوق حافة سطح المبنى المجاور للمصحة ويصبحون أحراراً من المصحة منطلقين نحو ذلك العالم. يقفز الأول عبره ثم يلتفت ليرى شريكه مجمداً على الجانب البعيد الآخر. وكما يقولها الجوكر: "صديقه لم يجرؤ على القفز. فكما ترى هو يخشى السقوط". يقف السجناء هناك، الحرية تنتظر في جميع الإتجاهات فقط لو أن الرجل الثاني قفز فوق ما يراه صديقه فجوة

صغيرة، ولكنه ينظر إليه على أنه هاوية قاتلة. يقترح الرجل الأول حلاً:

يقول الرجل الأول: "هيا! أنا أملك مصباحاً يدوياً معي. سأقوم بإضاءة الفجوة بين المبنيين، يمكنك تتبع الضوء للحاق بي".

لكن الرجل الثاني يهز رأسه قائلاً: "هل تظن بأنني مجنون؟ ستقوم بإطفائه حال وصولي لمنتصف الطريق".

وعندما يبدأ المطر بالإنهمار وتظهر أضواء الشرطة من على مسافة مرئية، يضحك كل من الجوكر وباتمان. ثم يتضاعف ضحكهم المكبوت ليتحول إلى قهقهة عالية، لتتغلب عليهما لا منطقية سرهما المشترك. الأول غير قادر على معرفة كيف هو الأمر حين تكون باتمان. والثاني غير قادر على معرفة كيف هو الأمر حين تكون الجوكر.

هوامش الفصل الثالث عشر:

1- توماس ناغل، "ما معنى أن تكون وطواطاً؟" مقابلة فلسفية 83 العدد 4 (أوكتوبر 1974) الصفحات 435-450. تم نسخ المقالة منذ نشرها في العديد من المختارات المعنية بفلسفة العقل، مثل "العقل الأول: الأوهام والتأملات في النفس والروح" تحرير دوغلاس ر. هوفستادر ودانيال دينت (New York: Basic Books 1981).

2- ناغل "ما معنى أن تكون،" الصفحة 436.

3- لا يحدد ناغل أي تفاصيل حول وطواطه أكثر من القدرة على تحديد الموقع باستخدام صدى الأصوات. لكن الجوكر، بعد عثوره على كهف الوطواط، أستخدم الكومبيوتر الموجود هناك لتحديد تصنف باتمان بين عائلة الخفافيش. مقرراً أن "من الواضح أنه من عائلة ذوات وجه الشبح"، ولم يتمكن الجوكر من كبح نوبات الضحك خاصته على أسماء أجناس الخفافيس. (رواية الجحيم لآليكس إيرفن [New York: Del Rey Books 2006]، الصفحة 73).

4- يعتبر هذا السيناريو تبايناً في تجربة فكرية تمت مناقشتها كثيراً طورها الفيلسوف فرانك جاكسون في مجلة Philosophical Quarterly 32 العدد 127 (1982): الصفحات 127-132؛ و"ما لم تعلمه ماري؟" في مجلة الفلسفة 83 العدد 5 (1986): الصفحات 291-295.

5- سيمون دي بوفوار، أخلاقيات الغموض، ترجمة بيرنارد فريتشمان، (Secaucus: Citadel Press 1948).

6- أنظر الجنس الآخر لسيمون دي بوفوار، ترجمة هـ. م. بارشلي (1949; repr. New York: Penguin 1972)، للإطلاع على معالجة بوفوار الكاملة لـ"الحرية الوضعية".

7- هذه النسخة من أصل الجوكر - حيث هنالك الكثير - تظهر كذكرى في The Killing Joke (1988).

8- المرجع السابق.

9- مصطلحات "phenomena" و"noumena" هي مصطلحات فنية أستخدمها

إيمانويل كانط في كتابه "نقد العقل المحض" 1781، ترجمة نورمان كيب سميث (New York: St. Martin ' s Press 1929)، الصفحة 9.

10- راجع مقالة مارك د. وايت في هذا الكتاب للمزيد عن لماذا لم ينهي باتمان حياة الجوكر.

11- "ندوب" في قصة Batman: Black and White المجلد الثاني (1996).

12- سلسلة Batman العدد #663.

13- قصة Arkham Asylum (1989).



الباب الخامس

أن تكون الوطواط: تأملات من الوجودية والطاوية

14

آلفريد، فارس ظلام الإيمان: باتمان وكيركغارد

بقلم: كريستوفر م. دروبان

القديس

آلفريد بينيورث رجل بشخصية استثنائية. وبصفته خادمًا للشهير بروس واين، فهو يدير بمفرده جميع شؤون بروس الداخلية. هو كذلك المؤتمن على أسرار بروس واين، وربما يقترب من مكانة الأب بالنسبة له. ومنذ أن رأى الطفل بروس والديه مقتولين أمام عينيه، كان آلفريد موجوداً هناك لرعايته. وكان آلفريد هو الشاهد الوحيد على الكوابيس المروعة التي تطارد بروس واين، وعلى شخصية باتمان التي ولدت من خلالها.

وبناءً على ذلك، يحمل آلفريد مجموعة أخرى من الواجبات توازي

عملـه كمدبـر للمنزل. فعلى مسـتوى مختلف جداً، علينـا أن ننظر في الدور الـذي يلعبه آلفريد مـع علمه بأن بروس واين هو أيضـاً باتمان، لأن آلفريد هـو الذي يعـدّل زيه، وهو من يجلـس خلف شـبكاته المعلوماتية، وهو من يجهـز أدوات باتمان العديـدة قبل كل مرة يخرج فيها لقتـال أعدائه. وعندما يكـون «باتمان» في الميدان، فهو من ينتظر طوال الليل لأجله، ويراقب بصبر كامـيرات وأجهـزة الكمبيوتر الخاصة بباتمان، حيث أنه مسـتعد لمسـاعدته بـأي طريقـة ممكنة. وعلاوة على ذلك، يقوم آلفريد شـخصياً بحراسـة أمن كهـف الوطواط والقصر الموجود فوقه، ولو عنى ذلك أن يصارع المتطفلين ويطرحهم أرضاً.[1]

يقـوم آلفريد بمهامه بنشـاط جسـدي وروحي مذهلـين. إن إخلاصه لواين يكشـف عن إيمانه بواجب أعلى، وهو التزام أخلاقي بخدمة شخص آخـر بتكريس أفضل قدراتـه من أجله. إن ذلك الأمر يغـذي روحه؛ فبعد كل شيء، كيـف يمكـن أن يحقـق الكثير في وقت قصـير، متجاهلاً صحته، وأمنه، وتحقيقه لمكاسـب شخصية؟ كان آلفريد على استعداد لفقدان عقله، وحتـى المـوت مـن أجل باتمـان.[2] حيث يقـول في مـرة بأنه قد تـم اختطافه سـبع وعشرون مـرة أثناء فترة خدمته! وبعدم كسـب آلفريـد لأي قدر من شـهرة بروس واين أو باتمان، فهو لا يفعل ذلك من أجل الشـهرة بالتأكيد. بالأحـرى، فـإن تواضعه هو شيء مدهش بالنسـبة لنا، فعـلى الرغم من أن آلفريد يعرف بالتأكيد الدور الحيوي الذي يلعبه في مهمات باتمان، إلا أنه لا يبحـث عن الثناء. وبدلاً من ذلك، فهو يبقـى متواضعاً لدرجة أنه في نفس اليـوم الذي قـام فيه بتغيير إطـارات الباتموبيل، ونظم الأمـن في نظام قصر واين، وتطوير حزام أدوات باتمان، قام بتنظيف المراحيض بسـعادة بعدها، كما لو لم يكن هناك فرق بين تلك المهام.[4]

خلال كل ذلك، اظهر آلفريد مستوى نادرا من الالتزام والإيمان الذي

يذكرنا بالأبطال الأسطوريين: الفرسان الطوافين، أو الشهداء المجاهدين، أو حتى القديسين. ومع ذلك، لا يوجد ما هو وهمي أو مثالي حول مهمته، ولا نفكر به أبداً ولا نرى فيه أبداً تابعا ساذجا لطائفة الوطواط. فآلفريد شديد الثقة بنفسه ليكون هذا النوع من الرجال. في الحقيقة، هو يقضي معظم وقته في توبيخ بروس بسبب تهوره، مبينًا أن اهتمامه الوحيد هو رفاهية سيده. وفي حين أن آلفريد قلق بشكل واضح من أساليب باتمان، إلا أن إخلاصه له يكشف عن أنه يؤمن في نهاية المطاف بقناعة باتمان بأن العدالة يمكن أن تتحقق بشكل عملي، وأن السلام يمكن أن يعم غوثام يوماً ما.

في هذا الفصل، سيساعدنا الفيلسوف واللاهوتي الدانماركي العظيم سورين كيركغارد (1813 - 1855) في فهم ولاء آلفريد لباتمان. وسنركز على وجه الخصوص على عمل كيركغارد "الخوف والرعشة"، والذي يقارن فيه بين أمرين أخلاقيين مختلفين تمامًا. فمن ناحية، هناك أشخاص مثل باتمان، والذين يناصرون العدالة المطلقة كمثلهم الأخلاقي، بينما من جهة أخرى، هناك أشخاص مثل آلفريد، والذين يناصرون الحب الشخصي، والتفاني، والإخلاص كمثلهم الأخلاقي الأعلى. وعلى الرغم من أن النوعين من الأخلاقيين نبيلان بطريقتهما الخاصة، إلا أننا في النهاية سنرى أن عدالة آلفريد أعلى، لأنه، وكما يشير كيركغارد: "إن الإيمان معجزة، ومع ذلك فلا يستثنى أي إنسان منه؛ ولذلك فإن ما يوحّد كل الحياة البشرية هو الشغف، والإيمان هو شغف".[5] وفي حين أن البشرية قد لا تدرك أبدًا العدالة المطلقة، إلّا أننا جميعًا قادرون على أن نكون مخلصين لبعضنا البعض. وعليه، فإن آلفريد، مثله مثل كيركغارد قبله، يدرك أن السلام يبدأ على أساس فردي وأن العدالة لن تسود إلا عندما نتعامل مع بعضنا البعض باحترام.

بالنسبة لباتمان، فالعدالة هي أولاً وقبل كل شيء سياسية اجتماعية. حيث يتم توفير العدالة عندما تكون الحياة والحرية محميتين، وتحديداً من خلال القوانين والمؤسسات القانونية التي تأسست باسم العدالة. وتحدد هذه الهياكل حدودًا واضحة لسلوك الناس وتوقفهم إذا تجاوزوا هذه الحدود. وبناءً على ذلك، يعمل باتمان يداً بيد مع الشرطة ونظام العدالة، وحماة القانون ونظام المحلفين، لأنهم في نهاية المطاف هم المسؤولون عن الدفاع عن عدالته. ومع ذلك، فإن باتمان هو أول من سيخرق القانون إذا رأى بأنه غير عادل، وأول من سيعمل ضد الشرطة إذا تجاوزت حدود أي من القوانين أو العدالة التي تحميها. يدرك باتمان بأن العدالة شيء شديد الصعوبة بحيث لا يمكن لأي نظام قانوني أن يوفره تمامًا. فهناك دائمًا حالات تتجاوز القوانين المجردة الموضوعة، لحظات تكون فيها القوانين إمّا متسامحة جداً أو ضيقة جدًا. فعلى سبيل المثال، قد يجادل قليل من الناس بأن سرقة الطعام لإطعام عائلة تتضور جوعًا أو تجاوز إشارة المرور هو أمر لا يستحق الشجب من الناحية الأخلاقية. ومع ذلك فهي غير قانونية، وخاضعة للمحاسبة القانونية الكاملة.

وبالنظر إلى أن القانون يستمد قوته من العدالة، فإن التزام باتمان الأخلاقي ينتمي في المقام الأول إلى تلك العدالة ذاتها. حيث يعرف باتمان (مثل أي محلف أو قاض أو ضابط شرطة) أن كل جريمة تنطوي على متغيرات لا يمكن تفسيرها من خلال قوانيننا المجردة، وأنه يجب تفسير القانون من أجل الحفاظ على تفويضه العادل. وعندما يفشل القانون في توفير العدالة، كما هو الحال في بعض الأحيان، يضطر باتمان إلى تجاوزه من أجل استعادة التوازن بين العدالة والقانون والجريمة والعقاب.

ومثل باتمان، يؤمن آلفريد أيضًا بالإنموذج الواقعي وغير التجريدي

مـن العدالـة. بالنسـبة إلى آلفريـد، فإن العدالة ليسـت مسـألة تتعلـق بالبنية الاجتماعية، ولكنها مسـألة شـخصية تتعلق بمعاملة النـاس باحترام ولطف ومحبـة. وتعكس تصرفـات آلفريد اعتقـاده الجوهري بأن الناس مسـؤولون عـن بعضهـم البعـض، وأن العدالة تعمّ عندمـا يخدم المرء الآخرين بأفضل مـا في مقدرته. ولكـن آلفريد ينظر أيضاً إلى العدالـة كواجب، حيث يفي هو بوعوده، ويعتني بأولئك المسؤولين عنه، ويقدر العمل الذي كان قد اختاره. وهكـذا، فعندما وافق آلفريد على خدمة أسرة واين، كان إلتزامه ذلك بمثابة قسم دموي، وهو التزام دائم لا يمكن كسره إلا بفصله عن العمل أو بموته.

وعلى الرغم من أنه يمكن القول بأن الفرق بين باتمان وآلفريد هو الفرق بـين العدالـة الاجتماعية والعدالة الشـخصية، إلا أن هذا من شـأنه أن يخطئ الهـدف تمامًا. ففي حـين يبين لنا باتمان العدالة كقانون وسـلام ومؤسسـات عادلـة، فـإن آلفريد يُظهر لنـا عدالة أكثر رفعـة بكثير، وهـي العدالة كمحبة وإخلاص. وهذا النوع من العدالة غير منصف بطبيعته، لأنه لا يوجد ضمان عـلى الإطلاق بمبادلة الفعل الطيب. في الواقع، وبالنسـبة لآلفريد، فنادراً ما كان هـذا غرضـه من معاملته. فعلى الرغم من أن بـروس واين يعامل آلفريد باحـترام شـديد، فإنـه لم يعامل آلفريـد أبداً بـذات الطريقة التـي كان آلفريد يعامله بها. بل على العكس من ذلك، فقد كان آلفريد متقبلاً بأن حياته ليست سـوى وسيلة لخدمة أهداف واين، وأن عدالته كانت خاضعة لمهمة باتمان في فرض النظام الاجتماعي.

عبثية كل شيء

وعلى الرغم من هذه المفارقة، يجب على آلفريد أن يعطي نفسـه وعدالته لباتمـان طواعية حتى يمكن تحقيق عدالته. إن هذا الوضع عبثي تماماً! فكثيراً ما يشـعر آلفريد بأن عدالة باتمان هي عدالة مضللة، ولكن لكي يقوم بتعليم

الشـاب بروس واين كيفية توجيهها بشكل إيجابي، يجب أن يتبع آلفريد أوامر واين حتى لا يتخلى عنه هذا التلميذ شديد العناد بشكل تام. في الواقع، وعلى الرغم مـن ذلك، فإن آلفريـد مُقاد من وايـن ظاهرياً فقط. أمّـا ضمنياً، فإنه لا يمثـل البوصلـة الأخلاقية لواين فقط، بل ويقوم بحمايتـه أيضًا، وبتغذيته وتحضير ملابسه ورعايته كما لو كان طفلاً صغيراً.

وعـلى الرغم من عبثية هذا الوضـع، إلا أن آلفريد لا يزال يحتفظ بإيمانه بـبروس، مـع العلم أن تعليمه لواين سـيكون عملية مسـتمرة مـدى الحياة. وبصفته معلمه، فآلفريد يمتلك حكمة فائقة لا تأتي إلا مع التقدم في السـن، ولذا فإن حكمه دائماً ما يكون متقدماً على واين، حيث يوجه متدربه الشـاب نحو السـلام الداخلي. وبغض النظر عـن الطريقة التي يقابل بها بروس محبته ودعمه له، فإن آلفريد كان يعطيه كل ذلك دون قيد أو شرط، ولم يشـك ولو للحظـة واحـدة بأنه غير قادر على مسـاعدته عـلى تهدئة شـياطينه الداخلية. فالإيـمان بالرغـم من ضعـف الاحتمالات والإيـمان وسـط اللامعقول، هي الحالة الوجودية لآلفريد.

لقد حاول العديد من الفلاسـفة أن يصفـوا «وضعنا الوجودي». وكان كيركغارد هو من لاحظ أنه منذ اللحظة التي نولد فيها، فـ«الإنسـان لا يمثل ذاتاً بعد»:[6] إذ أن كل منا يناضل من أجل اكتشـاف ماهيته وعلاقته مع العالم حولـه. وبناءً عـلى هذه الفكرة، فقـد لاحظ هايدغـر (1889 - 1976) أن وضعنـا الوجودي هو بالتالي مسـألة "وجود في العـالم"، والتي هي "كما هي عليـه".[7] وبغـض النظر عما إذا كنّا نولـد في حياة من الامتيـازات والرفاهية، أو حيـاة يهيمـن عليها الألم والبـؤس، فنحن جميعًا قد تـم "إلقاؤنا" إلى العالم ويجب أن نحصل منه على ما نستطيع. ويشكل هذا "الإلقاء" حالة دائمة من القلق بالنسـبة لنا، فنحن نحاول تعريف أنفسنا من بيئتنا ومن كتلة الآخرين المحيطـين بنا بوضوح. وهذا هو ما أسـماه كيركغـارد "المرض حتى الموت"،

وهـو مصطلـح اسـتعاره من إنجيـل يوحنـا 11 : 4. نحن "نشـعر باليأس" مـن المفارقة السـخيفة المتمثلة في محاولة تشـكيل هوية فريدة وسـط الأماكن والتواريـخ التـي كانـت موجـودة قبلنا، ورغـماً عـن الآراء والهويـات التي يفرضهـا علينـا الآخرون.[8] ومع ذلك، فـإن اللحظة التي نُعرف فيها أنفسـنا لأجل الآخرين هي اللحظة التي نستسلم فيها لتاريخهم وتقاليدهم، من دون أن نصل أبداً الى شخصية خاصة بنا. وهكذا فإن، "الفرد المستمر بوجوده هو مستمر بعملية التشكّل"، كما يقول كريكغارد.[9]

لقـد قـام جـان بـول سـارتر (1905–1980) بتفسـير هـذه الفكرة بإيجابيـة. فكوننا نولد بدون هويـة، يمنحنا حرية الاختيار في أن نصبح مهما كان ما نرغب ومن نريد أن نكونه حيث يقول: "أولاً وقبل كل شيء، يوجد الإنسان، يتحول، ليظهر الى الصورة، وبعد ذلك فقط، يعرف نفسه. إذا كان الإنسـان، كإدراك وجـودي لماهيتـه، غير قابل للتعريـف، فذلك لأنه ومنذ البداية لا يمثّل شيئاً، ثم فقط بعد ذلك سيصبح شيئاً، وهو نفسه سيصنع ما سـيكونه".[10] إن "المرض" أو "اليأس" في الحياة ينشـأ من حقيقة أننا جميعاً "محكـوم علينا بأن نكـون أحراراً".[1] ومـع ذلك، فكوننا أحراراً سـيجعلنا نتحمل المسـؤولية الكاملة لاختيار المسـار الأخلاقي الذي سيوجه حياتنا، وهـو خيار ينطوي دائماً على درجة معينة من العبثية. فعلى سـبيل المثال، من العبـث أننا لن نعـرف أبداً التأثير الكامل لقراراتنا الأخلاقية، وكم هو كثير أو قليـل تأثيرها على الآخرين. ومن العبـث أن يتغير وجودنا أثناء خوضنا للحيـاة، وحيث أننا نواجه باسـتمرار قرارات أخلاقيـة جديدة، في الوقت الذي يلاحقنا فيه أولئك الذين صنعناهم في الماضي. ومن العبث أن نموت يوماً ما وتذهب جميع قراراتنا الأخلاقية سـدى. ومن العبث أننا نعيش مع الإيمان بأن حياتنا لها معنى، دون أن نعرف ذلك المعنى في نهاية المطاف.

ومثل آلفريد، يتصارع بروس واين مع مأزقه الوجودي العبثي. فبادئ

ذي بدء، تخيل كيف شعر الطفل بروس بينما قتل والداه أمامه من قبل جو شيل. وبينما كان والداه ينزفان حتى الموت عند قدميه، يمكننا أن نتخيل مفهوم الطفل للعالم وهو يتحطم. ومن بعد ذلك، سيعيش حياة يبدو أنها محكومة بالأسى. إننا نتساءل كيف يمكن لشخص تعرض لصدمة نفسية أن يجد في نفسه الدافع لتكريس حياته سعياً لتحقيق العدالة للآخرين، وهي العدالة التي لم يمكنه أبداً أن يحصل عليها لنفسه. حين يقابل شيل أخيراً ويحصل على فرصة لقتله، فأنه يشفق على الرجل بدلاً من ذلك، مدركاً بأن شيل مدمن مثير للشفقة، وبأن حياته بأكملها ملعونة.[12] يجب أن يواجه باتمان حقيقة أن قتل شيل لن يشفيه من ماضيه، ولن يحقق نوع العدالة التي يبحث عنها. وهذا الإدراك يصبح أكثر عبثية عندما يضطر باتمان للتحالف مع شيل من أجل إيقاف الحصّاد The Reaper، حيث ومن دون قصد جعل من شيل أداة لنفس العدالة التي يسعى باتمان لها.[13] وعلاوة على ذلك، فقد تكون والدة شيل، السيدة شيلتون، قد ساعدت حتى في تربية بروس واين، مما يتركنا نتساءل ما إذا كانت رعاية بروس قد تسببت بإهمالها في تربية ابنها، وإذا ما كان ذلك من الممكن أن يكون ما أدى به الى حياة الجريمة.[14] وبغض النظر عن كل هذه التقلبات، فإن باتمان يسعى نحو العدالة، ويحاول يائساً تحقيق بعض الخير في حياته المأساوية، لكي لا تذهب وفاة والديه عبثًا.

العبثية، السخرية، والإيمان

إن العبثية والسخرية التي يواجهها كل من آلفريد وباتمان، والطريقة التي يستخدمان بها إيمانهما الشخصي ومعتقداتهما للتغلب عليها (أي العبثية والسخرية)، تذكرنا بالشخصية التوراتية إبراهيم، الذي استخدمه كيركغارد في الماضي كنموذج فلسفي لرجل الإيمان المثالي. فكما تقول القصة، كان

إبراهيم وزوجته سارة يحاولان ولسنين طويلة أن ينجبا طفلاً، بحيث يكون وريثاً لاسم العائلة وثروتها. ومع اقترابهم من سن الشيخوخة، بدا من المستحيل أن تحمل سارة طفلاً. ومع ذلك، يخبرنا الكتاب المقدس أنه كمكافأة على تمسكه بعهده للرب، ولعبادته له وحده، قام بمباركة إبراهيم وسارة أخيراً بابنهما إسحاق.

فبعد سنوات عديدة من المحاولة، كان الزوجان مذهولين من هذه الهدية في الحياة، وأحبا إسحاق حباً جماً. ومع ذلك، ودون علم إبراهيم، كان الرب يخبئ له إختبارا آخر لإيمانه. ففي أحد الأيام أوحى الى إبراهيم قائلاً: «خذ ابنك إسحاق، وحيدك الذي تحبه، واذهب إلى أرض موريا. وأصعده هناك مُحرَقَةً على أحد الجبال الذي أقول لك» (التكوين 22: 2). فدهش إبراهيم، لأن الرب كان يطلب منه التضحية بالهبة التي منحها له، ابنه الوحيد، الذي أحبه أكثر من أي شخص آخر على الأرض. وعلى الرغم من عبثية الطلب، فقد خضع إبراهيم لإختبار الرب.

يعلق كيركغارد على هذه اللحظة من حياة إبراهيم قائلاً: «لقد أعتقد بما يملك من إيمان بعبثية هذا الطلب، إذ لم تكن هناك أي مساحة لحسابات بشرية، في الواقع، كانت العبثية التي يطلبها الرب منه هي الاختبار المهم التالي له. ثم تسلق الجبل، وحتى اللحظة التي لمعت فيها السكين. . . بقي مؤمناً بأن الرب ليس بحاجة الى إسحاق».[15] عندما أخبرنا كيركغارد أنه من خلال "الفضيلة العبثية" التي آمن بها إبراهيم، فإنه يعني أن إبراهيم كان قادراً على الوثوق بالرب لأن ما طُلب منه أن يفعله كان متعذراً على الفهم. حيث إنه لم يجد سبباً لإعطاء الرب مثل هذه المهمة المستحيلة له؛ وبدلاً من أن ينثني عن فعل ذلك، فقد جعله ذلك يعتقد بضرورتها أكثر. وبدلاً من التكهن بدوافع الرب، فقد كان إبراهيم يثق بالرب بدلاً من ذلك بكل بساطة، لأن الرب لم يخذله أبداً ولم يخن طاعته العمياء أبداً.

ومثلما سلّم إبراهيم إرادته تماماً للمهمة الرهيبة التي طلبها الرب منه، فباتمان، أيضاً، يؤمن إيماناً مطلقاً بالعبث.[16] كان بإمكان ألم فقدان والديه أن يدمره، لأن "الحزن يمكن أن يشوه عقل الإنسان"، ومع ذلك، ومثل إبراهيم، استطاع ايجاد "قوة الإرادة القادرة على اخضاعه ومنعه من التصرف بما لا تحمد عقباه، فأنقذت عقله وإن بقي يتسم بقليل من الغرابة".[17] من الناحية النفسية، يعاني بروس واين من العصبية والندوب النفسية، على الرغم من أنه يمتص صدمته ويعيد تشكيلها. فتتحول إضطراباته العصبية إلى سلاح، حيث يستخدم ما كان سيهزم إرادته كوسيلة لدفعها إلى الأمام. ومن خلال تقبله لمخاوفه واتخاذها كوقود له، فإن باتمان ينقلها من قلبه إلى قلوب أعدائه. وعليه، يجب أن ننظر إلى بدلته، وسيارته، وإشارة الوطواط الضوئية، وغيرها كإبتكارات فنية وعلاجية، يقوم بروس واين بواسطتها بتحويل مخاوفه الداخلية إلى أشياء خارجية، حتى يتمكن أولئك المعادين للعدالة من رؤية الإرهاب الذي ينشرونه هم بدورهم بحق، مما يجعل هؤلاء الأشرار يعانون نفس الصدمة العنيفة التي يحاولون تسليطها على الآخرين.

وبإظهار وتنظيم ألمه بهذه الطريقة، يستطيع بروس واين أن يتصرف بثقة عالية بالنفس. وفي مواجهة العبثية، فهو يسلّم نفسه لقناعته بعدالة مطلقة أعلى. ويخبرنا كيركغارد بأن "التسليم يقوم مقام الإيمان"[18]، لأن الشخص عندما يسلّم نفسه إلى ما هو عادل بشكل مطلق، فإن تلك العدالة ستصبح جوهر وجوده ذاته، وأرضية لإيمانه. وسيشعر حينها بأن لحياته معنى، وهو ينظر إلى ما هو أبعد من آلامه ومعاناته نحو تخفيف آلام ومعاناة الآخرين. يستعيد بروس واين ثقته بنفسه في اللحظة التي يكرس نفسه فيها لمساعدة الآخرين، مدركاً بأنه لو كان الناس أكثر اهتماماً بحماية العدالة وتقوية سلطتها، فربما ما كانت مأساة موت والديه لتحدث.

وبمجرد أن يكتسب الناس مثل هذه الثقة بمعنى حياتهم، فإنهم سيتحررون الى حد ما. فلن يعودوا يكتفون بالمشاركة السلبية في العالم؛ وبدلاً من ذلك فإنهم سيسعون إلى السيطرة على حياتهم، واستخدامها كوسيلة لهدف أسمى. وبهذه الطريقة، يقول كيركغارد إن هذه النفوس الواثقة هي أشبه بالفرسان، لا تتزعزع في مهمتها ومكرسة تماماً لقضيتها العادلة. وباتمان هو احد "فرسان التسليم اللامحدود" هؤلاء، فقد كرس حياته لنشر العدالة المطلقة. اتزانه يكشف عن مهمته من دعوته بـ: "يمكن لفرسان التسليم اللامحدود أن يُميزوا بسهولة: فمشيتهم هادئة وواثقة".[19] وبعد العثور على سبب أسمى للحياة، ينسل هؤلاء الفرسان نحوها مثل الوطاويط في الليل محلقين من سقف إلى آخر، يطوفون فيها على نحو أعمى، ولكن دون خوف أيضاً، لأنهم لا يخافون من الموت باسم ما هو مجيد. وما حياتهم الآن إلّا وسيلة لغاية مطلقة، غاية تفوق كل المخاوف الأخرى، بما فيها مخافة الحفاظ على الذات.

آلفريد، فارس الإيمان

في المقابل، فإن آلفريد بينيورث هو فارس من سلالة مختلفة. فهو لم يكرس حياته لأجل فضيلة مثالية مطلقة، بل لأجل هدف متواضع. هو لا يسعى لتحويل المستحيل إلى حقيقة، بل للحفاظ على رجل واحد فقط: بروس واين. لماذا؟ لأنه بذلك يخدم غرضين. أولاً، طالما تم الحفاظ على بروس واين وباتمان، فقد تم الحفاظ كذلك على عدالتهما. وهكذا يحقق آلفريد ذات العدالة التي يبتغيها باتمان، ولكنه يفعل ذلك بشكل غير مباشر. وثانياً، فهو يتخطى العدالة هذه بإدراك الحب تلقائياً في ذات الوقت، مما يعني عدالة محسوسة في لحظتها. وفي حين أن العدالة المطلقة لباتمان لا تكتمل أبداً، حيث دائماً ما يطرأ شيء ما يبسطها أو يقوضها، فإن عدالة المحبة لآلفريد تكون

دائـماً في متنـاول اليـد، وتظهر حقيقيـةً في الوقت ذاته، دون إنتظـار آثارها في المسـتقبل. إن العدالة بوصفها حباً تستوفي نفسها في اللحظة ذاتها التي تُصنع فيهـا: كالابتسـامة التي تلي لمسـةً؛ أو الشـعور الذي يبعث الراحـة في النفس بمعرفة أن هناك شـخصاً آخر موجوداً بجانبك؛ أو الثقة التي تأتي من وجود أشـخاص من حولك يمكنك الوثوق بهم. وتبعاً لذلك، يرى آلفريد العدالة في كل ما يفعله: كيف يمكنه تخفيف ألم باتمان مع القليل من الرعاية الطبية؟، أو كيـف يمكنه تهدئة روح باتمـان المعذبة بكلمات لطيفة قليلة وسـاندويتش حضره بنفسـه؛ أو في واحدة من ملاحظاته الذكية، والتي تسـاعد على تهدئة باتمان وتذكره بالسيطرة على ميله لرد الفعل المبالغ فيه؟.

إن المفارقـة في هـذه القيم الأخلاقيـة العليا هو أنه لو تـم تناولها بصورة سـطحية لبدت جـد عادية وتافهة. ففي حين أن فرسـان التسـليم اللامحدود يبدون شـديدي الثقة بأنفسـهم، «فأن أولئك الذين يحملـون جوهرة الإيمان من ناحية أخرى غالباً ما يكون مظهرهم مضللاً، فمظهرهم الخارجي يشـبه بصـورة لافتـة للنظر ذاك الـذي يحتقره بشـدة كل من أولئك ذوي التسـليم اللامحدود وأصحاب الإيمان العميق، أولئك هم الفلستيين[1]. ومن الغريب أن فرسـان الإيمان لا يبدون أي علامة على عزيمتهم الأخلاقية، ولا يعبرون عن أنفسـهم بالطريقة الصاخبة التي يسـتخدمها فارس التسـليم اللامحدود. وبدلاً من ذلك، فإنهم يبدون ويتصرفون مثل الناس العاديين وغير المستنيرين – الفلستيين. ويصف كيركغارد الفارس النموذجي للإيمان قائلاً:

"في اللحظـة التي وضعت فيها عيني عليـه صرفته عني فوراً، تراجعت الى الوراء، وشبكت يدي مع بعضهما قائلاً بصوت نصف جهوري: "يا إلهي، هـل هذا هو الرجل؟ هل هـذا هو حقاً؟ لماذا يبدو وكأنـه جامع ضرائب!".

(١) الفلستية: هي فئة من الناس الجهلاء الذين يبدون ازدراءً للفن و الجمال و الثقافة و الرقي و لا يهتمون بمظهرهم الخارجي. [المترجم]

كنت أتفحص شخصيته من رأسه حتى أخمص قدميه لمعرفة ما إذا كان هنالك صدع أو عيب فيما يدعيه. لا! فقد كان صلباً في كل جزء منه. ومشيته؟ لقد كانت مفعمة بالحيوية، وخطاه واسعة بشكل واثق؛ لم يكن يبدو كأحد سكان المدينة الذين يرتدون ملابس أنيقة ويمشون متبخترين، فهو ينتمي إلى العالم وترابه بشكل كامل، ولا يوجد فلستي أكثر منه. لا يستطيع المرء أن يكتشف شيئاً عن هذه الطبيعة المنعزلة والمتفوقة كما يفعل حين يرى فارس اللامحدود. إنه يستمتع بكل شيء، وكلما رآه شخص ما سيشاركه بجزء معين من متعته، حيث يفعل ذلك بالمثابرة التي هي علامة الإنسان الدنيوي الذي تُمتص روحه في مثل هذه الأشياء. إنه ميال إلى عمله. لذا، فعندما ينظر المرء إليه قد يفترض أحد أنه كان كاتبًا فقد روحه في نظام معقد من حفظ الكتب، لذا فهو دقيق. يأخذ عطلة في يوم الأحد، ويذهب إلى الكنيسة".[20]

إن فارس الإيمان يشبه جامع ضرائب، أو كاتباً، أو في حالة باتمان خادماً، يرتدي ملابس بسيطة مثل أي أحد، ويستمر بجهاده اليومي. يرتدي ملابس محافظة، ولكنها أنيقة، سلوكه لطيف، ومنظم جداً، تمامًا مثل رجل كريكغارد المؤمن.

في المقابل، فإن فرسان التسليم اللامحدود مدهشون، فدرعهم مطابقة لثقتهم بنفسهم، وأعمالهم تعبر عن براعة لا محدودة. إن زي باتمان وأدواته تعلن عن حضوره البطولي بقدر ما تعلن عن العدالة المطلقة التي يمثلها، مملكة سلام ما أخيرة على الأرض. وفي حين أن أعماله ليست أقل من مذهلة، وملحمية بكل أبعادها، لكن كم سيبدو فرسان الإيمان هزيلين في ظل كيان عظيم مثل هذا! فلا شيء مميز في ملابسهم، أو أعمالهم الروتينية.

غير أن الاختلاف الحقيقي بين هذين الاثنين لا علاقة له بالاهتمام الذي يسلطونه على أنفسهم. ففي حين أن فرسان التسليم اللامحدود ينتظرون دائمًا بعض الحالات المثالية في المستقبل، فإن فرسان الإيمان قد وجدوها

ويعيشـونها في الزمن الحاضر. فخلودهم ليس مستقبلياً، بل هو موجود هنا، الآن، حيث أنهم يدركون أنهم في محبة وخدمة الآخرين يمارسون نوع الخدمة التي سـتدعم الإنسانية بلا حدود. وبالنسـبة لهم، يجب أن يكون السلام على الأرض مرافقاً لكل حركة وكل عمل. ويبدأ ذلك بالالتزام مع شخص آخر وبمساعدة ذلك الشخص بكل طريقة ممكنة.

يعرف آلفريد أنه إذا تعاملنا جميعنا مع الآخرين بهذه الطريقة فلن تكون هناك حاجة إلى باتمان، أو أي نوع من العدالة القسرية لهذه المسـألة. ولذا فهو بمثابـة نموذج لباتمان، مثل حكيم ما يتبع بروس واين أينما ذهب، ولو لمجرد تذكـيره بالوجـه الحقيقي للعدالـة في اللحظـة الحالية، وليـس بالعدالة ذات النتائـج المسـتقبلية. وهذا هو السـبب في أن عزلة آلفريد لا تشـعره بالضيق، حيث أنه "يفرح بكل شيء". [21] فكل فعل بسـيط يقوم به لبروس واين يعزز مـن إيمانـه، لأنه لا يسـاعده فقط على البقـاء، ولكنه أيضاً يلهـم واين ببراعة بتقديم نفسه كمثال جيد.

ومثلـه مثـل فارس كيركغـارد المؤمن، "[هو] ليس أحمقـاً"، [22] كي يختار مهنتـه ليخدم رجلاً أضل الطريق عـلى الرغم من كونه رجلا جيدا. فإذا كان يوجـد هناك أي أحمق فهو باتمان، حيث يطارد المجرمين بتهور الى الحد الذي يهـدد حياته بالقتل. من ناحيـة أخرى، فإن آلفريد واقعي حـول نوع العدالة التي يمكن له أن يحققها في حياته. وكما يكتب كيركغارد:

"إن الحمقى والشـبان يثرثرون بإمكانية الحصول على كل شيء بالنسـبة للرجـال. وهـذا، مع ذلك، هو خطأ كبـير. فمن الناحيـة الروحية، كل شيء ممكـن، ولكـن في هذا العـالم المتناهي هنـاك الكثير مما هو غـير ممكن. غير أن الفـارس يجعل من هذا المسـتحيل ممكنـاً من خلال التعبير عنـه روحياً، لكنه يعبر عنه روحياً بالتنازل عن مطالبته به". [23]

وعـلى عكس باتمان، فإن آلفريد لا يبحث بحماقة عن عدالة ما للجميع،

ولكنـه ينشـد فقط العدالة للشـخص الذي يهتـم به، وهو بـروس واين. هو يتخـلى عن المطالبة بالعدالة الجلية التي ألزم بها باتمان نفسـه، لمعرفته بانه غير قادر على مكافحة الجرائم مثل باتمان. وبدلاً من محاربة المجرمين في الشـارع، فقـد اختـار أن يقاتل طغيان الـروح التي جعلت بروس وايـن منهك النفس للغاية، وحطمت إيمانه بالإنسانية.

ومـن أجـل تحقيـق هـذه الغاية، يقـدر آلفريـد حياتـه كلهـا وإيمانه غير المحـدود وشرفـه الآتي من نذره هذا. ولا يـزال آلفريد فارسـاً لأنه لا يتخلى أبداً عن التزامه بمساعدة باتمان. فيما لو قام بذلك، فإنه سيتخلى عن الواجب الأخلاقي لصالح الإحتمالية الأخلاقية moral speculation. لقد أصبحت حيـاة باتمان منذ ذلك الحين وسـيلة لسـعادة آلفريد، بدلاً مـن أن تكون غاية في حـد ذاتهـا. وبخدمة باتمـان دون قيـد أو شرط، فـإن آلفريـد يتجنب هذا التناقـض الأخلاقي. وببقائه مخلصاً لباتمان، فإن آلفريد يبقى مخلصاً لنفسـه، ولليمين السـابق الذي قطعه لأداء واجبـه، وإلى معتقداته الأخلاقية. وهذا، كـما يخبرنا كيركغارد، في النهاية هو "الحـب".[24] فمن خلال التضحية بحياته من أجل تحسـين حياة بـروس واين، يثبت آلفريد أنه يحـب حقاً بروس واين بطريقـة رائعة خالية من الأنانية. هذا هو نـوع الحب الذي "يفترض تواجده في شـخصية دينية"، عقيدة للحب، حيث أنه يهتم بأخلاص ببروس من كل قلبه، ولأجله يبذل كل جهده.[25]

المفارقة والسلام

لم يتوقـف آلفريـد لثانية واحدة عـن تذكر الالتزام الذي قطعه للشـاب بـروس وايـن في الليلـة التي تـوفي فيهـا والـداه، ولا كيف أقسـم سراً هناك للوقـوف بجانـب صبي حتى يصبح شـخصاً كاملاً مرة أخـرى. هذا اليمين وهذه الذكرى تتسـبب بألم مسـتمر لآلفريد، لأنه هو الذي يجب أن يقف إلى

جانب باتمان ويشاهده يناضل من أجل تحقيق ما يؤمن به، وهو إيمان لا يزال باتمان جاهلاً به بسبب تسليمه الكامل لنفسه للعدالة المطلقة والمثالية (وبالتالي المستحيلة). إن ألم آلفريد يشبه ألم الأب الذي يراقب نمو طفله، ورؤية سذاجة ومثالية الشباب آملاً بأنه في يوم ما ستصبح تلك النظرة للحياة اكثر واقعية. وبنفس الحب والعاطفة التي سيعطيها الأب، يحاول آلفريد دون كلل تعليم بروس واين العدالة كمحبة، آملاً لما هو أبعد من الأمل نفسه في أن يقود ذلك عمله الإيماني يوماً ما.

في النهاية، فإن قصة باتمان وآلفريد، مثلها مثل قصة إبراهيم وأخلاق كيركغارد، تشبه صراعاتنا الداخلية لإيجاد هدف ومعنى في الحياة. إنها قصة كفاح ضد الاحتمالات المستحيلة، والإيمان على الرغم من المعاناة والمآسي، الإيمان الكامل بأن حياتنا يمكن أن تحدث فرقاً حقيقياً في العالم. يجب أن نطمح إلى أن نصبح «فرسانا للإيمان»، والذين يقترب إخلاصهم المتفاني إلى التديّن، حيث يقودنا ذلك إلى أخلاق الأمل والبهجة: «الإيمان بالتالي ليس عاطفة جمالية، بل شيء أعلى من ذلك بكثير، لأنه يستلزم التسليم كإفتراض مسبق تحديداً؛ إنه ليس غريزة لحظية للقلب، بل هو مفارقة للحياة والوجود».[26]

إن مفارقة إبراهيم هي لوالد شديد الإيثار، يحب ابنه على الرغم من معرفته بأن ابنه قد يكون مصمماً للمعاناة من قوى لن يستطيع أبداً حمايته منها. أمّا مفارقة باتمان فهي أنه سلّم حياته لصالح عدالة غير عملية، هي عدالة مثالية تماماً، بحيث لا يمكن لأي شخص أن يقوم بها بمفرده على الإطلاق، في حين أن مفارقة آلفريد هي مفارقة الإيمان الملموس، حيث محبته وإيمانه ببروس واين على الرغم من أخطائه، على أمل أن يوماً ما سينعم كلاهما بالسلام، وأن باتمان سيحقق العدالة التي يسعى إليها.

هوامش الفصل الرابع عشر:

1- أنظر Batman العدد #16 (أبريل-مايو 1943)، وهو العدد الذي يظهر فيه آلفريد أيضاً للمرة الأولى.

2- ينقذ آلفريد كل من باتمان وروبن بدفعهما بعيداً عن صخرة ساقطة في Detective Comics العدد #328 (يوليو 1964)، ويتم إحياؤه من قبل عالم مجنون في العدد #356 من نفس السلسلة (أوكتوبر 1966).

3- أنظر Batman: Gotham Adventures العدد #16 (سبتمبر، 1999).

4- أقرأ المقابلة مع بات تزو في الفصل 20 من هذا الكتاب للمزيد عن تواضع آلفريد.

5- سورين كريكغارد، الخوف والإرتعاش والمرض حتى الموت (Princeton NJ: Princeton Univ. Press 1970)، الصفحة 77.

6- نفس المرجع، الصفحة 146.

7- مارتن هيدغر، الكينونة والزمن (San Francisco: HarperSanFrancisco 1962)، الصفحة 84.

8- كريكيغارد، الخوف والإرتعاش، الصفحة 146.

9- سورين كريكيغارد، Concluding Unscientific Postscript (Princeton NJ: Princeton Univ. Press 1941)، الصفحة 176.

10- جان بول سارتر، الوجودية (New York: Philosophical Library 1947)، الصفحة 18.

11- جان بول سارتر، الوجود والعدم (New York: Gramercy Books 1956)، الصفحة 439.

12- قصة The Drak Knight Returns (1986).

13- قصة Batman: Year Two (1987).

14- العدد #1 من The Untold Legend of the Batman (يوليو 1980).

15- كريكيغارد، الخوف والقشعريرة، الصفحة 47.

16- المرجع السابق.

17- المرجع السابق.

18- المرجع السابق، الصفحة 46.

19- المرجع السابق، الصفحة 49.

20- المرجع السابق، الصفحات 48-49.

21- المرجع السابق، الصفحة 49.

22- المرجع السابق، الصفحة 52.

23- المرجع السابق، الصفحة 47.

24- المرجع السابق.

25- المرجع السابق، الصفحة 54.

26- المرجع السابق، الصفحة 58.

15

الليالي المظلمة ودعوة الضمير

بقلم: جيسون ج. هاورد

هل يملك باتمان ضميراً؟

قليلـة هي الأشـياء التي حافظت على نفس مسـتوى جاذبيتها و تأثيرها علـيَّ منـذ أن كنـت مراهقـاً و حتى اليـوم، مثلما يفعـل باتمان. فهـو دراكولا الحديـث، لطيف، فـارس ظلام، وروح انتقام، إنه شـخص سـتجده عاجلاً في قصـة تراجيديـة يونانية بـدلاً من إيجاده في قصة مصـورة. إن طريقة باتمان هـي ترويـع أعدائه إلى حد الجنـون، وبترويعهم فأنه يجبرهـم على مواجهة ما أصبحوا عليه. بالنسـبة لي، كان السـؤال المركزي دوماً هو أن باتمان يستخدم نفس تكتيكات الترهيب و الخدع المسـتخدمة مـن قبل اعدائه، إضافة لكونه شـخصا معطوبـا داخليـاً، فكيـف ينجح في المحافظـة ويظل البطـل دون أن يتحول إلى الشرير. إن سـعيه لتطهير غوثام من الجريمة والانتقام لموت أبويه يتـم على أسـاس المعـادل الأخلاقي لحـد الشـفرة. (لمعرفة مدى الحـدة التي يمكـن لهـذه الحافة أن تحقق بها في قصـة فرانك ميلـر "The Dark Knight Returns"، 1986). ما الذي يمكّن باتمان من السير على هذه الحافة، والنظر

في هاوية أرواح الرجال، والاستمرار في ذلك؟ وأفضل طريقة للإجابة على هذا السؤال هي بمعرفة ما إذا كان لدى باتمان ضمير.

إن مشكلة الضمير - من أين يأتي، وكيف يبرر السلوك الأخلاقي، وما إذا كان موجودًا - قد نوقشت في الفلسفة الأخلاقية لأكثر من ألفي عام. ولكي نقدر كيف يلائم باتمان هذه المناقشة، فإننا سنحتاج إلى تجاوز الخط المعتاد للتعليل الأخلاقي، والذي سيركز على نبل نواياه وسلطته الأخلاقية باعتباره "بطلًا خارقًا". وهذه الأسئلة تبرز بالتأكيد تعقيد سلوك باتمان، ولكنها ذات فائدة محدودة في توضيح الأصل الضمني وشرعية الضمير كشكل من أشكال التحفيز. بدلاً من ذلك، سنحتاج للتفكير بتلك الأسئلة على خلفية نضال باتمان لعيش "تجربة وجود حقيقية". وكما أن معظم خياراتنا الأخلاقية مصممة، على الأقل جزئياً، على من نكون كأفراد، فإن خيارات باتمان تنبع أيضاً من صراعه الوجودي الأعمق ليعيش حياة أصيلة. ولأن باتمان يدرك مدى تعقيد حياته المزدوجة والطابع المشكوك فيه لخياراته الشخصية، فإن حياته عبارة عن صراع وجودي. الكيفية التي يكافح بها مع هذه المسائل لا يمكن أن يفسر فقط الفرق بين الضمير الأصيل وغير الأصيل، بل يمكن أن يساعد أيضًا في تفسير جاذبيته المستمرة باعتباره بطلًا خارقًا.

الضمير والسلطة

أن فكرة عيش حياة أصيلة، كذلك فكرة وجود ضمير حقيقي، هو موضوع ظهر مع محاكمة واعدام سقراط (470 - 399 قبل الميلاد). ولكن مع وجودية القرن العشرين تم تعريف الأصالة بمجدها الكامل. فالوجودية هي مدرسة بارزة في الفلسفة تؤكد على غموض وعبثية الوجود الإنساني. وهي تركز اهتمامها على الغربة التي تتخلل الكثير من الحياة اليومية، بينما

ترفض إلى حد كبير أي تفسير عالمي صريح للسلوك البشري، سواء كان دينيًا أم اقتصاديًا أم سياسيًا أم أخلاقيًا.

وقد يبدو غريباً أن تلجأ لباتمان للحصول على بعض الوضوح حول معنى الضمير الحقيقي. حيث من المؤكد بأن الرجل الذي يختبئ وراء قناع في الليل يبدو غير أصيل على أقل تقدير! ولكن إذا فهمنا المصطلح بمعناه الوجودي كما طوره مارتن هيدغر (1889 - 1976)، فإن مفهوم الأصالة مناسب تمامًا. إن القول بأن شخصا ما أصيل يعني شيئين على الأقل: أولاً، إنه صادق مع نفسه حول ما هو ليس في حدود سيطرته، وخاصة عندما يتعلق الأمر بحتمية الموت. وثانياً، يتحمل المسؤولية الكاملة عن اتجاه حياته ومحاولة جعل معنى وهدف ما يقوم به واضحاً جلياً. وقد تمكن «باتمان» من الارتقاء إلى هذه المعايير على الرغم من التحديات العاطفية والنفسية والجسدية.

إن الناس يناشدون ضمائرهم بإستمرار. سواء كان مارتن لوثر كينغ أم أسامة بن لادن، إذ ان هناك اعتقاداً شائعاً بأنه في مكان ما من اعماقنا، ولو فقط منحنا انفسنا وقتاً للاستماع، فسنكتشف بوصلة أخلاقية لا تخطئ. إن هذه النظرة السائدة تؤيد شكلاً «استبدادياً» أو «جوهرياً» للضمير، حيث أن واجبنا الأخلاقي الأكثر أهمية هو اتباع قناعاتنا الأخلاقية. لقد كان هناك العديد من الفلاسفة المناصرين لهذا الرأي، وأبرزهم هو جان جاك روسو (1712-1778) في كتابه إيميل أو في التربية On Education[1]. إذا كانت النظرة الفطرية للضمير هي التي اعتنقها باتمان، حيث يتألف الخير الأخلاقي من الاستماع إلى قلب المرء، فلن يكون هناك الكثير الذي يمكن تعلمه منه. بيد أن باتمان ليس سوبرمان، وكخبير في علم النفس الجنائي، فهو أكثر خبرة من أن يتبنى مثل هذه النظرة الساذجة للسلوك الأخلاقي. هذا لا يعني أن باتمان ليس لديه أي موقف أخلاقي، لكن موقفه الأخلاقي هذا لا يستند

على "معرفة قبلية" (خالدة وعالمية) للحس الأخلاقي. وبدلاً من ذلك، ينبع موقف باتمان الأخلاقي من تقدير تعقيد السلوك البشري والأشكال المتطرفة التي يمكن أن يتخذها مثل هذا السلوك.

بالنسبة لهيدغر، بالإضافة إلى المفكرين الوجوديين الآخرين مثل جان بول سارتر (1905 - 1980) وألبير كامو (1913 - 1960)، فإن الحياة هي ما تصنعه أنت منها.[2] فكل واحد منا كأفراد يحدد معنى وجوده من خلال الخيارات والمواقف التي يتخذها. ولا يمكننا تجنب هذا العبء إذا أردنا تقدير حقيقة حرية الإنسان وعلاقتها بالنزاهة الأخلاقية. ولكن كيف يرتبط هذا النضال من أجل الأصالة بباتمان؟

لقد كان الشاب بروس واين فاقداً للأمل والثقة بنفسه قبل أن يكتشف رمز الوطواط، ليسافر حول العالم ويطور مهاراته في التحقيق البوليسي لما هو أكثر من مجرد دوافع انتقامية في عقله. ولكن إذا كان رمز الوطواط أكثر من مجرد اختراع للتغلب على الحزن على وفاة والديه، فما الذي كان الوطواط يعد به بروس الشاب مما لم يكن يملكه بالفعل؟ تكمل شخصية باتمان هوية بروس واين من خلال غرسها شعورًا جديدًا بالضمير الأصيل، لا يغمره الانتقام، وغير مثقل بتوقعات الآخرين، ولا مرتكزًا على أي رؤية أخلاقية شاملة، بل يتحدث عن تحقيق الحرية والإمكانات البشرية. (أعتقد أن هذا يكفي، أليس كذلك؟).

الأموال، الحمامات الساخنة، وقرارات الحياة الصعبة

أحد المفاهيم الأساسية لفلسفة هيدغر، والتي تطورت في كتابه «الكينونة والزمن Being and Time" (1927)، هو مفهوم "الضعف". وفقاً لهيدغر، فمن المحتم أن نأخذ في الاعتبار اهتمامات وتوقعات الآخرين.

لكن حـين يحدث هذا، فأننا غالباً ما نسـتغرق بهذه الانشـغالات والمخاوف لدرجة فقدان انفسنا في خضم آراء ونمط حياة الأغلبية. وينطبق هذا بشكل خاص عندما يتعلق الأمر بآراء الآخرين بشـأن المسـائل الأخلاقية. وفي هذه الحالـة من "الضعف"، كما يسـميها هيدغـر، أن نتخلى عن إمكاناتنا الأصيلة في أن نكون أنفسنا، لأن الآخرين قد قرروا معنى كينونتنا، ولذا فإننا ببساطة نمثل المكتوب لنا في الحياة.

بالنسـبة لهيدغر، كما هو الحال بالنسـبة لمعظم الوجوديين الآخرين، فإن الحيـاة البشريـة منفتحة باسـتمرار على إعـادة التأويل. وللتأكيـد على الطابع التفسـيري للوجود الإنسـاني يوظف هيدغر الكلمة الألمانية دازين Dasein عند مناقشـة البشر. عند استخدام هذا المصطلح، يسترعي هيدغر انتباهنا إلى الطريقة الفريدة التي يدرك بها البشر "كينونتهم" (Sein) كموجودات دائمة "هنـاك" (da) في مـكان محدد، ومنشـغلين بعمل ما. تحديـداً لأن دازين (أو الكائنـات البشرية) تمتلك قدرة الإدراك، ليس لمجرد المشـاريع العملية (مثل بناء الجسـور وكسـب المال) بل كذلك ادراك معنى ان نوجد هو ما يجعل أمر الضمير ممكناً.

ولأننـا دازيـن، فأن معنى كينونتنا لم يحسـم وغير ثابـت. إلا أن المجتمع يعمل على إفتراض أن الكينونة قد حُسـم أمرهـا، وأن الغرض من الحياة هو أن يكـون الإنسـان طبيبًا، أو يكسـب الكثير من المال، أو تكـون لديه عائلة، أو مجموعـة أخرى من الكليشـيهات. وكـما يشرح هيدغـر: "ان ذات دازين اليوميـة هـي في الحقيقة ذات الآخريـن - والتي تختلف عـن الذات الأصيلة - أي عـن الـذات التي ترسـخت بطريقتها الخاصـة.»[3] أنت ربـما على دراية بـــ"ذات الآخرين they – self" مـن خلال عدد من الحكم التقليدية مثل: "يقولـون بأنـه لا يجب عليـك ارتداء الأبيـض بعد عيد العـمال" و"يقولون أنـه لا يجـب أن تسبح إلّا ما بعـد مرور عشريـن دقيقة بعد تنـاول الطعام".

وعندما نتّبع "ذات الآخرين"، فنحن لا نفكر أو نتصرف لأجل أنفسنا. بدلاً من ذلك، فأننا نكتفي بالموافقة وقبول ما يقوله لنا "آخرون" المجتمع المجهولون. ومن العديد من النواحي فإن حياة الشاب بروس واين هي مثال لتجربة الإنهيار والصعوبة التي يمكن أن يواجهها المرء في تأكيد هويته الخاصة الفريدة. (نحن نبحث جميعاً عن نماذج يحتذى بها، وموت والدي بروس كان من شأنه أن يجعل هذا البحث مؤلماً ومربكاً بشكل خاص، على الرغم من أن آلفريد كان قد قدم بديلاً ممتازاً له).

غير أن حياة بروس واين ما كانت لتكون سيئة للغاية، أليس كذلك؟ فبوسامته اللافتة والثروة الهائلة التي حظي بها، كان بإمكانه صنع أسم لنفسه بطرق لا تعد ولا تحصى. والمفارقة هي أنه لو كان هدفه الوحيد في الحياة هو القيام بشيء يعتبره والداه نبيلاً، لكان من الأفضل له أن يكون مجرد بروس واين، ويدير شركة Wayne Enterprises كمؤسسة خيرية. [4] لكن بغض النظر عن مدى الخير الذي كان يمكن لبروس واين تقديمه، فإن حياته لن تكون حرة، لأن اختيار إدارة شركة Wayne Enterprises لم يكن خياره الحقيقي الأصيل. وعلاوة على ذلك، فإن وفاة والديه كانت من الممكن أن تصبح مجرد حدث عابر، وبروس مجرد مدير تنفيذي آخر مجهول. وبدلاً من الاستسلام لعالم "الآخرين" وأحكامه وتوقعاته، فقد قرر بروس واين النضال ضد هذا العالم لاستيعاب آلام ضميره. وبذلك، لم يواجه بروس معنى وجوده فحسب، بل وأيضاً المعنى الأعمق لوفاة والديه.

رؤية الأشياء بوضوح بعيني وطواط أفضل

إن الحكمة التقليدية بين محبي باتمان هي أن الموت المأساوي لوالديه قد حوّل بروس واين إلى باتمان. أمّا بالنسبة لهيدغر وسارتر وكامو، فإن كل التحولات والتغييرات ذات المغزى في حياة الناس تأتي من إدراك تأويلنا

للوجـود. إن معنـى الحيـاة والموت لا يتم حسـمه والبت فيه بصـورة نهائية، مثـل بعض المعادلات التي يمكن ببسـاطة حفظها وترديدهـا كالببغاء. ففي قضية باتمان، وعلى الرغم من عدم وجود شك في أن قتل والديه كان العامل المحفـز للتغيير، فـإن فعل تأويل معنى موتهم هو مـا كان قد بدأ هذا التحول الوجـودي من بـروس واين إلى باتمـان. وبتتبع رؤية هيدغر في هذه المسـألة، يمكننا القول أنه من خلال «الرغبة في الحصول على ضمير»، يتم اكتساب أي فكرة جوهرية عن معنى الكينونة.[5] هذا المزيج الفريد من الرغبة في الحصول على ضمير بينما يواجه المعنى الكامل لوفاة والديه هو الذي بدأ عملية تحويله من شاب متعطش للدماء إلى مكافح للجريمة.

ولكن ماذا يعني أن يرغب بإمتلاك ضمير؟ وفقاً لهيدغر، فإن الكثير مما يعتبر سلوكاً بشرياً ناتج عن تضليل الذات، سواء عن قصد أم غير قصد. إذ يهرب الناس باسـتمرار من إمكانياتهم الخاصة، وماضيهم، وحتمية موتهم، نحو ما هو مألوف ومريح. وحالة الفرار هذه هي السـمة المميزة للسـقوط. نحن نريد أن يكون الوجود شيئاً راسخاً ومكتوباً، وأن نعرف أنه ليس لدينا خيار حقيقي في إخفاقاتنا أو مصائبنا، وأن الحياة لها غرض واضح لا نحتاج إلّا للعثور عليه. ونتيجة لذلك، فإن الكثير من الحيوات الاجتماعية ينتهي بها المطاف لأن تصبح سلسـلة مفصلة من الالهاءات هدفها تشتيتنا عن التفكير بواقـع فنائنا. وكما يرى هيدغر، فلا يمكننا أن نرغب مطلقاً في الحصول على ضمـير طالمـا وافقنا وتقبلنا فكـرة العيش في عالم تمّ فيه تسـوية كل ما يخص الحيـاة، والمـوت فيه حدث غامض وبعيد، وحينئذ فـأن الغاية الوحيدة التي يمكن أن يسعى إليها الضمير في ظل هذه الظروف هي الرقابة على فردانيتنا.

إن الرأي الشـائع عن الضمير الذي يجسده غضب الشاب بروس واين وشعوره بالذنب ليس هو الضمير "الأصيل"، بل هو استيعاب للتفاعلات والتوقعـات المألوفـة. وهـذا التقمص، عـلى الرغم مـن كونه تعبيرا شـائعا

للضمـير، ينتهي به المطاف إلى فرض الطريقة التي يجب أن نتصرف ونشعر بهـا، مما يجعـل أي قرار أو تصور توصلنـا له فيما يخص معنـى الكينونة زائداً عـن الحاجة. قد يكـون من الصعـب إمكانيـة التمييز بين هاتـين الطريقتين لتجارب الضمير الأصيلة وغير الأصيلة. فمن ناحية، لدينا شعور بالضمير الأصيـل الذي يؤكد الفردية، بينما من ناحية أخرى، فلدينا شـعور بالضمير غـير الأصيـل الذي ينكر أي دور للبصيرة الشـخصية والإبـداع. وما يجعل شـخصية باتمـان مثـيرة للاهتمام لهذا الحد هـو أنه على الرغم مـن كونه بطلًا خارقًا، إلا أنه يوضح التمييز بين هذين الإحساسـين للضمير بطريقة مفيدة جدًا.

في Batman: Year One (1987) يظهـر جليـاً أنـه عـلى الرغـم مـن سـنوات التدريب الطويلة، فقد فشل بروس واين كمقاتل للجريمة إلى حد كبير دون شخص باتمان لتوجيهه. لكن السؤال المثير هنا هو: لماذا؟ إن الأمر ليس كما لو أن تدريباته قد تحسـنت بشـكل كبير بمجرد أن ارتدى الزي، أو أن هويتـه يمكن أن تكون مخفية بما فيه الكفايـة فقط من خلال قناع وعباءة. وكما يقول بنفسـه، معلقاً على الأشـهر القليلة الأولى له كمحارب للجريمة: "لدي الوسـائل والمهارة ولكن ليس الأسـلوب. . . لا، هذا ليس صحيحاً. لدي مئات من الأسـاليب، ولكن شـيئاً ما مفقوداً. شيء ما غير صحيح. لا بد لي من الانتظار". من المؤكد هنا أن بروس لا ينتظر شخصا ما أو شيئا ما بالمعنى المعتاد، ولا يتوقع أن يحدث شيء ما، فما الذي ينتظره هو بالضبط؟.

كما يشرح هيدغر، فـ"الضمير يستدعي ذات الدايزن من ضياعها وسط الآخريـن".[6] لا يتـم التعبـير عن هذا "الاسـتدعاء" بالكلـمات، أو الأوامر الأخلاقيـة، فلو كان الأمر كذلك، فإن الضمير سـيكون مجـرد حافز إضافي للوفـاء بتوقعـات الآخريـن. عـلى النقيض من ذلـك، فإن الضمير يُكسِـب للناس فرادة عن طريق سـحبهم بعيداً عن عالم الآخرين بجعلهم يواجهون

إمكاناتهـم الفريـدة. إن النقطة الحاسـمة هنا هي أن تجربـة الضمير الأصيل نابعة من التفرد الشـديد، حيث ندرك أنه في نهاية المطاف لا يمكن لأحد أن يشـارك في حـدث موتنا، ولا أن يمنعـه. وكما يجب أن نلتـزم بحتمية موتنا، يجب أن نتحمل المسؤولية المباشرة عن "معنى" حياتنا أيضاً.

في تلـك الليلة المصيرية عندما طار وطـواط وحيد إلى غرفة واين، مجيباً عـن بحـث بروس واين عن هوية جديدة، كان قد حظي بما يسـميه هيدغر: "لحظـة تجـلي". هـذه اللحظة مـن التجلّي مميزة مـن حيث أنها ليسـت تعبيرًا عـن أوامـر دينيـة، أو هـدف أخلاقي بسـيط. ولا هي الحل لجميع مشـاكل الحيـاة. ولكن بدلاً من ذلك، فإننا في لحظة التجلّي هذه نواجه المعنى الكامل للضمير، الذي "يدعونا للوصول إلى موضع" من خلال الكشف عن أعمق لغز في وجودنا، مما يكشف لنا أن مسألة من نكون ومن نحن هي دوماً شيء "خاص" بكل واحد منا.[7]

ومـن خلال اتخـاذه لرمز الوطواط، يكشـف بروس عـن قلقه ويواجه مهمتـه الفريـدة. كما هـو مقـترح في Legends of the Dark Knight # 1 (نوفمـبر 1989)، فـإن الوطواط يُعـرَف كطوطم بروس وايـن، ومع ذلك فنحـن نفـوّت الأهميـة الكاملـة لهذا الطوطـم إذا مـا أختزلنـاه بمحتوى أو برسـالة محددين. وهذا من شـأنه أن يقلل من اكتشاف بروس واين لما يخص "الضمـير العـام". إن تعريف الوطواط كطوطم لبروس واين يكشـف عن ضميره الأصيل في لحظة التجلّي، والتي يواجه فيها بروس قوة الإمكانيات. فكـر في الوصف التالي من "الرجل الذي يسـقط"، والذي يعلق على إدراك بـروس للوطواط كرمـزه الشـخصي: "كان يعلم. ففي تلـك اللحظة، فهم الطريـق الذي كان عليه أن يسـلكه كل تلك السـنوات، مـا كان ممكنًا له، ما كان يجـب أن يكـون عليه. للحظة، تذوق بهدوء عواطـف جديدة. للحظة، كان سعيدًا".[8]

الشعور بالذنب (أو"كيف تحارب القلق")

إن وجود باتمان هو محاولة مستمرة لتحديد وإعادة تأكيد معنى تمرده. فبدلاً مـن إنكار جنون فقدانه لوالديه وجهوده غير المجدية لإحباط الجريمة في غوثام، يؤكد باتمان عبثية مأزقه كمنفذه الوحيد. فلو نظرنا للصورة بشكل عام وشامل، فـإن مهنة باتمـان كمحارب للجريمة بالتأكيد موضع شـك. فمعـدل الجريمة في غوثـام لا ينخفـض أبـداً، وكل شرير رئيسي ينجـح باتمان في إلقـاء القبض عليه ينتهـي به الأمر بالهروب. وعلاوة على ذلك، وكـما تظهر الإصدارات الأولى من مسلسـل Legends of the Dark Knight، فـإن مآثـر باتمـان تسـببت بظهـور "محـاربي الجريمة" المقلدين الذين يتسـببون بالفوضى لعامة الناس.[9] والأهم من ذلـك، فـإن وجود باتمـان في غوثام يعمل كمنـارة لتوجيه كل طائـش ومجنون في المنطقـة. إن القواعـد الأخلاقية الصريحـة الوحيدة التي يتبعهـا باتمان هي رفضه لإراقـة دمـاء الأبرياء ونذره بعدم سـلب حياة الآخرين عمـداً، ولكن حتى هذه المواقـف قـد تعرضـت للتهديد في بضـع مناسـبات. ولكـن إذا كان صحيحًا أن نجاح باتمان كمحارب للجريمة هو أمر مشـكوك فيه نظرًا للأضرار الجانبية التي يخلقهـا وجـوده، فأي نوع من التوجيه أو الحكمة يتـم الحصول عليها من إمتلاك ضمير أصيل؟.

إن كينونـة باتمان تعنـي تحرره وتعذيبه في الوقت ذاتـه، والطريقة التي يؤكد من خلالها كلا الأمرين مع الاعتراف بلا جدوى مهمته هو ما يبقيه أمينًا وصادقًا في سـعيه. وعلى عكس العديد من الأبطال الآخرين، ليس لدى باتمان أي أوهام حـول الطبيعـة المريبة لما يفعلـه.[10] في الإصدارات المبكرة مـن Legends of the Dark Knight، فإنـه يفكـر مـراراً وتكـراراً في التقاعد. وما هـو أكثر من ذلك، فإنـه في The Dark Knight Returns، وبعـد 10 سـنوات مـن التقاعـد فـأن نداءات شخصيته الأصدق، باتمان، هي التي تنتشله من حالة "الإنهيار" كمدمن للكحـول. وكـما يوضـح هيدغر، فإن نـداءات الضمـير الأصيل "يشـكل ولاء

الكينونة لذاتها".[11] غير أن هذه الذات الأصيلة ليست شخصًا أو صوتًا خالداً في أعماقنا، كما هو الرأي الشائع عن الضمير، بل هي الرغبة الحازمة في التمييز بين ما هو سطحي وعرضي في الحياة وبين ما هو محتوم وواقع. ويمكن رؤية هذا الكفاح لاكتشاف أعمق التزاماتنا ودوافعنا بالطريقة التي يتعامل بها بروس واين مع حقيقة وفاة والديه.

فتحوله لباتمان يحدث حين يواجه بروس ضميره المذنب لوفاة والديه من خلال إدراك معنى ذنبه بطريقة مختلفة، وهو ما يدعّي هيدغر بأنه يميز "لحظة التجلي" كشكل من أشكال الصحوة. ويظهر ذنب بروس الشخصي، الخانق والمربك، على مستوى أساسي من الكينونة باعتباره ذنب الكينونة. فالقضية هنا ليست نوعاً من "المديونية" أو "الواجب" في المقام الأول، بل هي شعور المرء بـ"تفاهته" وسلبيته.[12] وهذا يعني اقرار المرء بتأثير الهشاشة التي تحدّ من إمكانيات الحياة وتدرك في الوقت ذاته بأن هذه الهشاشة تحمل داخلها القدرة لتغيير الحياة. فيتحول الشعور بالذنب من لوم بسيط للنفس إلى إدراك أن الجميع مذنبون إلى المدى الذي يتعين علينا جميعاً أن نتخذ موقفاً فيه حول من نحن وكيف ينبغي لنا أن نعيش.

وفي اختياره لتحرير نفسه من رد الفعل المعتاد على مأساته، تلك الغضبة العمياء وذلك الانتقام، يرى بروس حادث مقتل والديه كدعوة للثورة ضد حياة مليئة بالإستغلال والإستسلام والسخرية. وبذلك يستعيد بروس مأساة لا معنى لها من خلال مواجهة العنف الخالي من المعنى ذاته. ومع تجربة هذا الشعور بالذنب الذي أدانه ليكون بمثابة استدعاء له ليكون نفسه، وهكذا يصبح باتمان الضمير الأصيل لبروس واين. لقد مكّن اتخاذ شخصية فارس الظلام بروس من مواجهة عبثية وفاة والديه من خلال الكشف عن طريقة أخرى للشعور بالذنب، من خلال تقبّله لإمكانية فنائه. أن قبوله لذلك وما يعنيه لشرعية خياراته هو ما يمنح باتمان الشجاعة لرؤية حتمية موته كتحدٍ في "أن يكون".

إن باتمــان مســتعد للمــوت. فقد تصالح مــع حتمية المــوت، ولكن هذا وحــده لا يجعلــه أصيــلاً؛ فالكثير من الناس على اســتعداد للمــوت من أجل قضيــة ما. إذاً، ما الذي يمكــن أن يعلِّمنا إيّاه باتمان عن الأصالة، وهو «مجرد» شخصية قصص مصورة خيالي؟ إن إحدى النقاط الحاسمة التي يجب أخذها في الحســبان هي أن اختيار باتمان للمجازفة بحريته في ســبيل قضية مستحيلة هو ليس هروبًا من واقع العالم، بل هو تأكيد له. حيث لا يســعى باتمان إلى أن يحـوّل الناس لتبني قضيته، ولا يحســد أولئك الذين يختــارون محاربة الجريمة بطرق أخرى أكثر تقليدية. وبالمثل، فأن مهمته لن تكتمل، ولا نهاية مناســبة لها، ولا خلاص، فقط إعادة تقييم مستمرة لخياراته الخاصة. وبقبول خياراته في الحيــاة كمصيــره المحتوم، يظهر باتمان كشــخص قد قبل العــالم على ما هو عليه، بكل عبثيته ومآسيه، مع أنه يبقى متسامحاً ومتعاطفاً مع الجميع باستثناء أولئك الذين تنتهي أعمالهم بعنف لا معنى له.[13]

لا يعــارض باتمان إنقضاض العنف الخالي من أي معنى اســتناداً لقانون أخلاقي واضح أو عقيدة دينية، بل من ادراكه الحازم بحريته في قبول الموت، والذي يمثل الضمير الأصيل. هذه الحرية لقبول الحياة بكل غموضها المحير، وتقرير كيفية التعامل معها بنفســه، هو ما يجعل باتمان من هو، وليس زيه. إذ يعيــش باتمــان بقراره في "أن يكــون"، معترفاً بواقع قلقه بينــما يتنبأ باللاشيء الذي يطارد كل واحد منا:

"يســمح التوقع لدازين بأن يفهم أن إمكانية الكينونة في معناها الأقصى هــي مشــكلة، يجب أن تعالج من قبــل الدازين وحــده. . . يمكن أن يكون دازين نفسه أصيلاً إذا إستطاع فقط جعل هذا ممكنًا من تلقاء نفسه.

عندمــا يصبح المرء، عن طريق الحدس، متحرراً من موته، ومتحرراً من ضياعــه في تلك الاحتمالات التي قد تندفع إليه دون إرادة منه؛ فســيتم تحرير

المرء بطريقة تسمح له للمرة الأولى بالاختيار بين الاحتمالات الواقعية التي تنتظره". [14]

إن "الحرية تجاه الموت"، كما يسميها هيدغر، هي السمة المميزة للضمير الأصيل. إن قول أن أي شخص حر في توقع موته لا يعني رغبته في الموت، كما أنه لا يعني ولعاً مرضيًا بـ"النهاية". إنها الإدراك المتغلغل بأن نقطة الكينونة هي شيء يجب على كل واحد منا أن يتعامل معها كفرد من خلال إعادة التأكيد باستمرار على معنى فنائه. وهذا الموقف من الأصالة هو الذي يضمن أن تكون حياتنا شفافة قدر الإمكان من حيث أنفسنا، مما يحررنا من "أوهام 'الآخر' وهوسهم بالألفة والهدوء والإلهاء". [15] إن هذا ليس سهلاً. فهو يتطلب أن نعترف بضعفنا، إلى جانب رفض أي نوع من الإيمان بحتمية القدر أو التهرب من الواقع، وأن قبول "أن نكون" هو أن نكون قلقين بشأن من نحن.

لو افترضنا بأن الناس "يولدون" ببساطة بضمير، بدلاً من أن يكافحوا من أجل الحصول على واحد، كما يوضح هيدغر، فلا يوجد مجال للناس لممارسة حريتهم في اتخاذ قراراتهم الخاصة في الحياة. وهذا لا يعني أن وجود ضمير أصيل يستلزم التخلي عن الأخلاق. بل على العكس من ذلك، فإنه يمنع الأخلاق من أن تصبح نوعًا آخر من الخضوع، حيث يتم تبادل ممارسة الحكم الأخلاقي الحر والعفوي من أجل الالتزام والتعصب الأعمى.

بالطبع، فإن باتمان ليس هو المثال الوحيد للضمير الأصيل، ولكنه بالتأكيد مثال تعليمي. وعلاوة على ذلك، فما يجعله تعليميًا للغاية هو التعقيد الوجودي لهويته، وليس مجرد حقيقة كونه بطلا خارقا. إنه استعداده للتأقلم مع ماضيه، ورفضه لجميع الأعذار الواضحة، وشغفه للتعامل مع الواقع بشروطه الخاصة الذي يميز باتمان عن المتعصب الأخلاقي، والذي يجعل من نوعه البطولي ذا أهمية كبيرة. وكما يقول باتمان نفسه: "إنك تتصرف بما تمتلكه

مـن إمكانيـات. . . .مـا أكونه، هو ما أخترتـه لنفسي. لا أعرف مـا إذا كنت سعيدًا، ولكني راضٍ". [16]

الإستنتاجات والعباءات والأقنعة

إن خيـار عيش حيـاة أصيلة يعود معه ببعض الليالي المظلمة، ولكن هذا هو الثمن الذي يتعين علينا دفعه لعيش حياة خالية من الأوهام. قبول باتمان لهـذا يعـزز بطولته. حيث يعتمد عـلى إرادته في الحصول عـلى ضمير أصيل، وليـس على قـوة خارقـة. وبالتـالي، فإن الغـرض من العبـاءة والقنـاع ليس لإخفـاء مـن هو. ولكنها، بـدلاً من ذلك، تقف شـاهداً على الخيـارات التي اتخذهـا والرجـل الذي أصبحه. وعـلى الرغم من أنه لا يمكننـا محاكاة باتمان حرفيًـا والمخاطـر التـي يتحملها - فهو بعـد كل شيء، بطـل خيالي لقصص مصـورة - إلّا أن معاركـه الداخلية ليسـت غريبة على أي منـا بأي حال. إنه شخص يكافح لتأكيد ثقل خياراته وعيش وجود حقيقي. في عالم يتفشى فيه الخضوع اللاواعي، والجهل هو القانون اليومي، والخوف هو أكبر طواغيتنا، فإن دعوة باتمان إلى الضمير هي مثال على كيفية أن اسـتعدادنا لمواجهة معنى كينونتنا الخاصة يمكن أن يكون أيضًا الطريق لتحررنا الشخصي. [17]

هوامش الفصل الخامس عشر:

1- جان جاك روسو، حول التعليم (1762)، ترجمة آلان بلوم (London: Penguin Books Ltd. 1991). ومن الأمثلة البارزة الأخرى هما: القديس توما الأكويني (1225-1274) والأسقف بتلر (1692-1752).

2- مقدمة جيدة لسارتر هي الوجودية الإنسانية (New Haven CT: Yale Univ. Press 2007)، بينما المقدمة الجيدة لكامو هو أسطورة سيزيف ومقالات أخرى (New York: Vintage 1991).

3- مارتن هيدغر، الكينونة والزمن، ترجمة جون ماكواري وإدوارد روبنسون (New York: Harper & Row 1962)، الصفحة 167.

4- أقرأ مقالة ماهيش أنانث وبين ديكسن في الفصل الثامن من هذا الكتاب حول أخلاقيات قرار بروس الشاب في أن يصبح باتمان.

5- هيدغر، الكينونة والزمن، الصفحة 342.

6- المرجع السابق، الصفحة 319.

7- المرجع السابق، الصفحة 347.

8- "الرجل الذي سقط" من قصة Secret Origins (طبعة عام 1989)، المعاد طبعها في Batman Begins: The Movie and Other Tales of the Dark Knight (2005).

9- على سبيل المثال، راجع "الفريسة" (من قصة Legends of the Dark Knight الأعداد #11- 15 1990)، و"إيمان" (الأعداد #21-23 1991).

10- أنظر في شهادة باتمان أمام اللجنة الفرعية الحكومية بشأن مسألة الأبطال الخارقين: "نحن مجرمون بالتأكيد، ودائماً ما كنّا كذلك. بل علينا أن نكون كذلك". (The Dark Knight Returns).

11- هيدغر، الكينونة والزمن، الصفحة 443.

12- المرجع السابق، الصفحة 332.

13- كأمثلة على هذا التعاطف، لاحظ علاقته المعقدة مع كاتوومان وذي الوجهين.

14- هيدغر، الكينونة والزمن، الصفحة 308.

15- المرجع السابق، الصفحة 311.

16- قصة Legends of the Dark Knight، الأعداد #23، 26 (أوكتوبر 1991).

17- أشكر كل من رولف ساමويلز وكين لي لمراجعتهم للنماذج الأولية لهذا الفصل.

16

مواجهة باتمان ضد الموت والفزع والحرية

بقلم: ديفيد م. هارت

باتمان عاقد العزم؟

في بانثيـون أبطـال القصص المصورة الخارقين، لا توجد هنالك شـخصية أكثـر تركيـزًا وتصميمًا من باتمان. فقد حظي سـوبرمان بوقـت من أجل علاقته مـع لويس لين، ودائماً ما يكون سـبايدرمان قلقاً حول العمـة ماي ووظيفته في الديلي بوغل، ودائماً ما ينشغل فريق فانتاستيك فور بالمشاحنات العائلية. ولكن يبدو أن باتمان يكرس كل لحظة من حياته لأجل حربه الشخصية على الجريمة، وهو مسعى يتخذه ليكون سبب وجوده. وحتى في المناسبات القليلة التي يقوم فيهـا باتخـاذ خيارات قد تبدو أنها تمنحه ما يشـبه الحياة الاجتماعيـة «الطبيعية»، كحضـور أحد الحفلات الخيرية برعاية مؤسسـات واين، حيـث دائماً ما يكون مـع امرأة جميلة كعشـيقة، فأن باتمان يبرر قيامه بتلـك الأفعال كجزء من مهمته الأهم. فعلى سـبيل المثال، يسـاعد ظهوره مع عارضة الأزياء، على الحفاظ على سـمعته كرجل لعوب وتزيل الشك حول إمكانية كون بروس واين هو باتمان. والذهـاب أيضـاً إلى حـدث عام بصفة بـروس واين قد يتيـح الفرصة له لجمع

معلومات داخلية وسماع الشائعات. إن ربط كل عمل بحربه الشخصية يمنح مشروع حياة باتمان وحدة متماسكة؛ حيث أن كل ما يفعله يخدم هدفاً واحداً أعظم.

لكن مكمن الصعوبة في شخصية تلتزم بشدة بهدف واحد هو أن الشغف «المفرط» يمكن أن يبدو أحيانًا كالجنون بعض الشيء. في الواقع، ومنذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين، اختار العديد من الكتاب دفع تفاني باتمان المتطرف إلى أقصاها لدرجة أن الشخصية غالباً ما تبدو وكأنها تقف على حدود الاختلال العقلي، فلم يكن يبدو مدفوعاً بنيّة إيثارية لخلق عالم أفضل، بل بإكراه لا يستطيع مقاومته ناجم عن صدمة الطفولة. يبدو أن محبي باتمان قد سئموا هذا التفسير في السنوات الأخيرة، واستجابت قصص دي سي المصورة بالتركيز على نسخة «أكثر لطفاً واعتدالاً» من الشخصية. حيث يبدو أن الإجماع الجديد بين مؤلفي باتمان ومحبيه هو أن جعل دافعية باتمان للإقتصاص من المجرمين مجرد ناتج بسيط عن نفسية متضررة ربما نال من الجانب البطولي لشخصية باتمان. إذ يبدو بأن النسخة «الشرسة والحازمة» من باتمان تسعى إلى ما لا نهاية للانتقام بدلاً من العدالة، وبالنسبة لثقافتنا الحالية على الأقل، فلا يبدو كون المرء مدفوعاً بعوامل انتقامية عملاً بطولياً البتة.

يثير قرار محرري القصص المصورة الخاص بتطهير باتمان من بعض شياطينه النفسية - حرفيًا، في 52 #30 (29 نوفمبر 2006) - وإعادته إلى مظهر بطولي أكثر تقليدية، بعض الأسئلة الفلسفية المهمة المتعلقة بمشكلة حرية الإنسان. فعلى سبيل المثال، هل يفعل باتمان ما يفعله لأنه اختار طريقاً يؤمن أنه الصواب، أم أنه ببساطة يفعل ذلك لأنه يشعر وكأنه لا يستطيع فعل أي شيء آخر؟ بطرح هذا السؤال بصورة فلسفية، قد نسأل ما إذا كان سلوك باتمان قد تقرر سلفاً من خلال ماضيه، أو إن كان هناك جانباً يجعل بالإمكان القول أن خياراته تتم بحرية. وعلاوة على ذلك، إن لم يكن ماضيه قد قرر سلوكه سلفاً،

فهل لنا أن نفسر تفاني باتمان في مهمته بأي طريقة أخرى غير القانون الميكانيكي للسبب النفسي والنتيجة، والتي قادت فيها صدمة طفولته إلى حتمية حاجته لمعاقبة الأشرار؟ وهل يمكن لهذا التفسير البديل أن يسمح لنا بالاحتفاظ بمفهوم تقرير المصير الذي يبدو مرتبطًا بنبل البطل؟

سيقدم هذا الفصل بعض الإجابات المحتملة على هذه الأسئلة إستناداً لفلسفة مارتن هيدغر (1889-1979). وعلى طول الطريق، سوف نستكشف مشكلة فلسفية كلاسيكية تعرف باسم «الإرادة الحرة مقابل جدلية الحتمية». ومن خلال دراسة دوافع باتمان وأفعاله عبر أحدى الشخصيات الرئيسية في الفلسفة الحديثة، سوف نسلط بعض الضوء على الطريقة التي أتخذ بها فارس الظلام خياره للحياة (إذا كان لديه بالفعل خيار).

آلفريد والمظهر

يميز هيدغر نفسه عن سابقيه من خلال التغلب على الفارق الفلسفي بين المظاهر وبين ما يوصف بأنه «حقيقي». هذا الفارق، الذي سيطر على الخطاب الفلسفي منذ بداياته الأولى، يتم التعبير عنه عادة في الفلسفة الحديثة بـ»ثنائية الذاتي والموضوعي». ففي الحياة اليومية، نستخدم هذا التصنيف عندما نقول أن الرأي الفلاني «ذاتي فقط»، على عكس الموضوعية المفترضة للعلوم التجريبية.

يوجد في صميم هذا الفارق تصورٌ عن الكائن البشري كذات مستقلة، يتواجد فيما يشبه «عالماً داخلياً» للعقل، والذي يُعتبر منفصلاً تماماً عن عالم الموجودات الخارجي. المشكلة في هذا الرأي هي أن رسم خط ثابت بين العالم الداخلي الذي يظهر للذات، والعالم الموجود موضوعياً خارجنا، يؤدي إلى قطيعة جذرية. حيث يصبح من المستحيل على ما يبدو إثبات أن المظاهر في أذهاننا تتوافق في الواقع مع أي شيء خارج أنفسنا في العالم «الموضوعي». وإذا

تتبعنا هذا المسار من التفكير، فربما سيبدو (من الناحية النظرية) أن الطريقة التي يبدو بها العالم لنا لا يمكن أن تكون أكثر واقعية من الهلوسة التي يواجهها باتمان عندما يصاب بغاز الخوف الخاص بالفزاعة!

في الاستجابة المتطرفة بالتأكيد للذاتي/ الموضوعي، فإن مشكلة العالم الداخلي/ الخارجي التي طُورت في كتابه الأهم الكينونة والزمن، فإن إدعاء هيدغر الأساسي هو أنه ببساطة لا يوجد فارق في العالم الداخلي/ الخارجي ذو معنى بالنسبة للوجود الإنساني.[1] وعلى العكس من ذلك، يجادل هيدغر بأن الوجود الإنساني (الذي يطلق عليه الاسم التقني دازين، المفردة الألمانية التي تعني "الكينونة" أو، بمعناها الأكثر حرفية ،"أن يكون هناك") هو دائماً "كائنٌ هناك في الخارج" بالفعل، في العالم، وبين الأشياء، وخارج ذاته.

كيف يمكن لهيدغر أن يخرج بمثل هذا الادعاء؟ إن من الواضح، ومن منظور علمي، بأننا موجودون في أجسامنا ومن خلالها؛ فاذا ما أخذ كيلر كرور قضمة هائلة من أدمغتنا، فلن يعد بإمكاننا الوجود. ولكن رد هيدغر على خط الإستنتاج هذا هو أن النهج الطبي يسترشد بنفس التفسير الفني للكينونة الذي قاد الفلاسفة إلى التمييز بين الذات والموضوع. وفي حين أنه قد يكون صالحاً وجيداً لأغراضه الخاصة (للعلوم الطبية أو لأجل تصميم قناع لكروك مقاوم للوطاويط)، فإن إعتبار الدماغ عالماً داخلياً في مواجهة العالم الخارجي لا يتضمن في جوهره حقاً ماذا يعني أن تكون إنساناً. وبدلاً من ذلك، يدعي تحليل هيدغر للوجود الإنساني أن نوعنا المعين من الوجود هو في الأساس "في العالم"، وهذا لا يعني فقط التواجد ضمن مساحة من الفضاء، ولكن أيضاً بمعنى المشاركة أو الانخراط الدائم في العالم.

لتوضيح إدعاء هيدغر حول أن الوجود الإنساني هو دائماً "الكينونة في العالم" وبالتالي دائماً خارج ذاته، فلننظر إلى طريقة آلفريد في الكينونة. كشخص عمل كرئيس خدم لسنوات طويلة، فإن لآلفريد نوعاً معيناً من الوجود، ووفقاً

لذلـك، فـإن عالمه موجـود بطريقة محدّدة جـداً. فعندما ينظر حـول غرفة ما في قـصر وايـن، فـإن آلفريد لا يرى مجـرد مجموعـة "موضوعية" من المـادة، مجرد ذرات متخذة تشكيلات معينة. بدلاً من ذلك فهو يرى ساعة الجد التي يغطيها الغبار، وقطعة القماش التي سـينظف بها السـاعة من الغبـار، والصينية الفضية التي سـيحمل بها الشـاي الى السـيد بروس، وهكذا دواليك. إنه لا يرى العالم مـن ناحية علمية موضوعية ولكنه يراه بدلاً من ذلك وفقاً لوجوده الذاتي. وما هـو أكثـر، ووفقاً لحجة هيدغر، فبقدر ما تكون هذه الأشـياء "ما هي حقاً" أي شيء، فإنها في الحقيقة ليسـت سـوى ما يفهمه منها آلفريد وفقاً لأفقه التفسيري فقـط. فإذا قمنا بسـؤاله: "ما هي الصينية الفضية؟" فإن رده المتوقع سـيكون: "إنها أداة أحمل بها الشـاي الى السـيد بروس". أمّا بالنسـبة لهيدغر، ومن منظور علمي، فيمكن تعريف الصينية الفضية بـ"أداة فضية مصقولة بالأبعاد الفلانية والفلانية"، وهذا هو أحد التعريفات المحتملة وفقاً لأحد الآفاق التفسيرية من بـين العديد فقط؛ ففـي الحين الذي يكون هذا التعريف مفيـداً من الناحية التي تخدم أهدافه، فهو لا يزال ليس بأكثر صلاحاً إطلاقاً من ذلك النابع من منظور آلفريد (أو أي شخص آخر).

إن الاسـتنتاج الرئيـسي الذي يمكننا اسـتخلاصه من هـذا الموقف هو أنه بالنسـبة لهيدغـر، فإن الإجابة الأساسـية على سـؤال معنى الكينونـة هي أن ما هـو كائن هو ما يبـدو. فموجودات معينة في هذا العالم هـي في الحقيقة ما تبديه مـن مظهـر للملاحظين، بحيث يمكـن أن توجـد صينية آلفريـد الفضية كأداة لنقل الشـاي وكنموذج للدراسـة العلمية، وذلك اعتمادًا على الأفق التفسـيري للملاحـظ؛ ولا يوجـد تفسـير أصحُّ مـن الآخـر. ولإعادتنا لمشـكلة الذات/ الموضوع، فإذا كانت الكينونة مظهرًا، فهذا يعني أيضاً أنه لا يوجد ببساطة عالم "موضوعـي" محض لكي ننفصل عنه. وبدلاً مـن عالم داخلي للذات بالإمكان فصلـه عن العـالم الخارجي، يجادل هيدغر بأننا من الأسـاس دومـاً خارجاً، في

العالم، ونتعامل مع الأشياء كما تظهر أنفسها (أو كما نستطيع القول، كما توجد) من خلال آفاقنا التفسيرية؛ فالبشر موجودون ككائنات تهتم دائماً بالأشياء (وبالتالي ترتبط بها)، وتوجد الأشياء بمظاهرها ومن خلالها.

ومع ذلك، فالتفكير بصورة أعمق بشأن وجود آلفريد يقودنا لما يدّعي هيدغر حول أن هذه هي طريقة أكثر جوهرية ليكون فيها الوجود الإنساني دائماً خارج نفسه. كنّا قد قلنا بأن الأشياء تظهر نفسها لآلفريد وفقاً لأفقه التفسيري، ولكن ما الذي يحدد هذا الأفق التفسيري؟ تكمن الإجابة في قضية آلفريد في كونه كبير خدم. حيث لا يرى باتمان الغبار فوق ساعة جده كشيء عليه القلق بشأنه؛ فهو ربما لا يلاحظ ذلك من الأساس. لكن، ولأن آلفريد كان قد أختار عيش حياته كخادم، فإن الغبار يمثل مشكلة بالنسبة له؛ حيث أنه شيء يجب أن يهتم به. إذ وفقاً لتوصيفات هيدغر، أن يكون خادماً هو مشروع بالنسبة لآلفريد، حيث أنها طريقة للحياة لا تحدد فقط كيف يبدو العالم من حوله، ولكن كيف يربطه ذلك بمستقبله. ولأن آلفريد قد قبل بهذا المشروع، فإن الساعة شيء يجب أن يتم تنظيفه على الفور، والعشاء هو شيء يجب إعداده في الوقت الذي يصل فيه السيد واين الى المنزل فوراً، والعيش كمساعد وفي لباتمان هو ما يخطط لأن يعيشه لما تبقى من حياته.

رُمي إلى عالمنا

مثلنا جميعًا، يرتبط آلفريد دائمًا بمستقبله انطلاقاً من الحياة التي اختارها لنفسه، والمشاريع التي قام بها. علاوة على ذلك، فهذا يعني أيضاً أنه مرتبط دائماً بماضيه. ففي مرحلة ما من حياته، اختار آلفريد بين الإمكانيات المتاحة له وقرر أن يصبح خادماً. ولهذا السبب يصف هيدغر الوجود الإنساني بأنه «مشروع مرمي». لكوننا نجد أنفسنا أساساً مرميين في عالم ما، فأن عدداً من الإمكانيات المحددة سلفاً تقدّم نفسها لنا.. فعلى سبيل المثال، ربما يكون

آلفريد، كشاب، قد أتيحت له الفرصة ليصبح ممثلًا محترفاً أو موظفاً في السلك العسكري البريطاني. ولكن خياره لأن يصبح كبير خدم هو خيار قد أتخذه من بين العديد من الخيارات التي رُميت إليه كشخص ألقي في حال معين. وبعد اختياره للحياة التي سيعيشها، فإنه يرتبط الآن بمستقبله بطريقة تتناسب مع (ويحددها) هذا الأختيار. وبهذا المعنى بالذات أدعى هيدغر أن الوجود الإنساني نشيط مؤقتاً. نحن البشر نعيش كما هو الحال دائماً خارج أنفسنا في الوقت الحاضر، متطلعين نحو المستقبل حتى نكون دائماً، إلى حد ما، سبّاقين من خلال الخطط التي وضعناها، وفي الوقت نفسه، يتم إلقاؤنا إلى حاضرنا من ماضٍ معين.

والأهم من ذلك بالنسبة لغرضنا، أن الطريقة النشيطة المؤقتة لوجود البشر تعني لهيدغر أننا نمثّل إمكاناتنا في الأساس. وتحدد الإمكانيات التي اخترناها في الماضي الإمكانيات المحددة المتاحة لنا في الوقت الحاضر والطريقة التي تظهر بها لنا، في حين أن توقعاتنا للمستقبل تحدد مدى ارتباطنا بتلك الاحتمالات الحالية. ولمواصلة مثالنا، فبعد أن اختار في وقت من الأوقات أن يكون خادماً، يجد آلفريد نفسه بين خيارين وهما إمّا أن ينظف الساعة من الغبار أو أن يحضّر العشاء. ولأنه يريد الإستمرار بكونه خادما فعّالا لباتمان في المستقبل، فإن آلفريد سيختار الأفضل من بين تلك الخيارات التي ستأتي بالفائدة على مستقبله.

وبدلاً من ذلك، يمكننا أن نتخيل قصة من عوالم أخرى والتي يسأم فيها آلفريد من الخدمة بوفاء ويقرر أنه يريد أن يقضي بقية حياته في هدوء وسلام دون الحاجة إلى القلق بشأن ما إذا كان صاحب العمل سينجو ليلة أخرى من القتال ضد الجريمة. في هذه الحالة، فإن قرار ما إذا كان يجب أن ينظّف أو يطبخ أولاً لن يكون له أي أهمية بالنسبة إلى آلفريد («يمكن لباتمان أن ينظف ساعاته الخاصة، فلم تعد تلك الأشياء تهمني!»)، وهناك احتمالات أخرى ستقدم

نفسها بدلاً من ذلك (مثل ما إذا كان يجب الإنتقال الى مدينة أقل خطورة أم لا).
في نهاية المطاف، تتمثل وجهة نظر هيدغر في أن مكان وزمان وجود شخص في أي وقت من الأوقات هو أقل أهمية في فهم الوجود الإنساني من ماضي ذلك الشخص وخططه للمستقبل. حيث يمكن أن تخبرنا دراسة علمية عن آلفريد أنه يعاني من الصلع ولديه شارب، لكنها لن تمكننا أبداً من فهم من هو حقاً دون معرفة الخيارات التي قام بها لنفسه والطريقة التي يريد للأمور أن تكون عليها غدًا، أو الشهر المقبل، أو بعد عشر سنوات من الآن. بالنسبة لهيدغر، يتطلب فهم هذه الأشياء فهم وجود الفرد عن طريق الاحتمالات المختلفة التي اختارها لنفسه والإمكانيات التي إنبثقت من المستقبل المخطط له.

فارس الظلام والموت

إذن ما علاقة هيدغر بمهمة باتمان؟ بكلمة واحدة: الموت. وكما يعرف حتى أقل متابعي لباتمان، فإن تجاربه مع الموت تلعب دوراً رئيسياً في جعله من هو. حيث تتضمن كل رواية لأصل باتمان المشهد الذي يشهد فيه بروس واين الشاب القتل المأساوي لوالديه، وعلينا نحن القراء أن نفهم أن هذه التجربة المؤلمة قد وضعته في طريقه لأن يصبح باتمان. لكن القصص المصورة (والأفلام) لا تخبرنا بالضبط كيف تشكّل هذه التجربة الطريقة التي يختار بها باتمان أن يعيش حياته. وإذا ما تجاهلنا الفكرة عن باتمان كشخص عاجز عن مقاومة هواجسه ومهووس بالانتقام، (كما وعد رؤساء التحرير DC أن يفعلوا)، فما هو بالضبط تأثير مشاهدة بروس واين لعملية قتل والديه عليه؟ وكيف أدت هذه التجربة به لتولي مهمته هذه؟

وهنا يبرز تحليل هيدغر للوجود الإنساني. فبالنسبة لهيدغر، يتكون الوجود الإنساني أساسًا من إمكانيات الإنسان الخاصة، وبالطبع، سيكون الموت هو الحد الأقصى لتلك الإمكانيات. ولكن بالنسبة إلى هيدغر، لا تكمن أهمية

المـوت في كونـه نهاية لحياة المـرء حرفياً، مثل نقطة على نهايـة خط ما، بل لكونه يجعل البشر يدركون حقيقة أن حياتهم، وإمكانياتهم، لها حد معين. وعلى الرغم من أننا موجودون بطريقة نشـطة دنيوياً، إلا أننا محدودون دنيوياً أيضاً، وما هو أكثـر من ذلك، هـو معرفتنا بهذا الأمر. وكما قد يقـول هيدغر: "في البداية وإلى حـد كبيـر"، لا يفكـر البشر في موتهم؛ حيث أننا نجد طرقًـا للتغطية على الموت وتجنبه. فنشـغل أنفسـنا بمشـاريعنا، بالتعقيدات التي نواجهها، ونفكر بالموت عمومًـا كـشيء يحدث لأشـخاص آخرين. إن الاعتراف لأنفسـنا بـأن "الناس يموتـون" لهـو أمر سـهل بما فيـه الكفايـة، ولكن هنـاك شيء يثير القلق بشـأن التفكير بـ"إنني سـأموت". حيث يصف هيدغر الشعور غير المريح للمواجهة الأصيلـة للاحتمالية المؤكدة لمـوت الفرد بالقلق الوجودي، وعلى الرغم من أننا كمعجبين بباتمان على دراية بالقصص المصورة للأبطال الخارقين "التي تثير فينا القلق الوجودي"، إلّا أن لهيدغر معنى دقيقاً جداً لهذه الكلمة.

في إختبـار القلـق الوجـودي، يجادل هيدغـر أن الموت يبدو كـما هو حقًا: إمكانية فنائـي. فبمجرد أن أموت، لن يكون لدي أي إمكانيات. وبعد الموت، ستكون كل خياراتي قد تمت ونفذت بالفعل، وستكون قصة "من أنا" مكتملة. لهذا السـبب يدّعي هيدغـر أن المواجهة الحقيقية مع المـوت في القلق الوجودي هو ما يضفي فرادة للوجود الإنسـاني. إذ عندما أواجه موتي، فأنا أرى أنه شيء لا يمكن لأي أحد أن يسـاعدني أمامـه، شيء يتعين عليَّ مواجهته بنفسي. وهذا بـدوره يلقي بضـوء جديد على حياتي كلها. إن إدراك موتي باعتباره النهاية التي لا مفر منها لحياتي يظهر لي أن وجودي هو ملكي وحدي. حيث سـتكون قصة حياتي المكتملة نتيجة للإمكانيات التي اخترتها لنفسي من الوضع الذي كنت قد ألقيت إليه عند الولادة. وسـأكون وحدي مسـؤولاً عن كل ما كنته ومن كنته. وعـلاوة عـلى ذلك، ففي الخوف والقلق من الموت، تختفي معاني جميع الأشـياء العادية في العالم، بحيث لا يعود للأشـياء في العالم صلة ببعضها بالمرة. إذا تخيلنا

آلفريد قلِقاً وجودياً، فلن تكون الصينية الفضية وساعة الجد من الأمور التي تهمه. فعندما يتعلق الموضوع بموته بحق، فبكل بساطة، لن تبقى تلك الأمور تعني شيئاً له على الإطلاق.

لماذا يجب أن تكون المسألة هكذا؟ وذلك لأن مواجهة موتي يضع كل مشاريعي موضع تساؤل. فالأشياء تظهر لنا من حيث صلتها بمشاريعنا، ولكن عند النظر إلى حياة الفرد ككل والتي يجلبها قلقه الوجودي، فستظهر لنا مشاريعنا على حقيقتها: كامكانيات قمنا بأختيارها لأنفسنا. وفي طريقة حياتنا اليومية المعتادة، لا يسأل الناس غالباً عن الخيارات التي اتخذوها من أجل حياتهم. فآلفريد لا يستلقي على الفراش كل صباح ويتساءل عما إذا كان لديه أي سبب حقيقي للنهوض لأنه في معظم الوقت يفكر ببساطة بنفسه على أنه خادم، ويستيقظ الخدم في الصباح لأداء وظائفهم. ومع ذلك، في القلق الوجودي، فإن كونه خادماً سيظهر كخيار اتخذه آلفريد لنفسه، وفي إظهار ذلك كاحتمال، فإن كونه خادماً سيظهر كشيء قابل للتغيير. وبمعنى آخر، فَلَم يُكتب في لوحة الأقدار أن آلفريد يجب أن يكون خادمًا لبقية حياته؛ حيث أنه يمكن أن يختار خلاف ذلك ويبدأ حياة مختلفة تماماً. بإختصار، يسمح القلق الوجودي للعالم كما هو عليه أن يتهشم، مما يجعل مشاريعك موضع تساؤل من خلال إظهارها كاحتمالات، والسماح للمرء بحرية اختياره حياة (وبالتالي عالما) لنفسه.

يجب أن أصبح وطواطاً

مع إدراكه لفنائه، فإن باتمان سيكون قادرا على الحفاظ على عزيمته بشأن مهمته، ورؤية حياته وعالمه حصرياً من خلال المشروع الفريد الذي اختاره لنفسه. فبدلاً من الشعور بالذنب بسبب وفاة والديه (حدث لم يكن له سيطرة عليه حقاً) أو بسبب الحاجة العنيفة للانتقام من تلك الخسارة المؤلمة من مجرمين

لا علاقـة لهـم بها، فربـما كان التأثـير الحقيقي لتلـك الليلة المصيريـة أن تغرس في بـروس واين الشـاب فهـماً حقيقياً لحياته عـلى أنها محدودة وفانيـة. إذا كانت إدعـاءات هيدغـر حـول علاقتنا بالمـوت صحيحة، فـإن النظـر في وفاته كقلق وجودي كان سيسمح لبروس بأن يقرر أي نوع من الحياة سوف يعيشها لنفسه دون أي اعتبـار لما ينتظره منه ما يسـمى بالمجتمـع الطبيعي. ولأنه حر في تنظيم وجوده بالكامل حول مهمة من اختياره، ومقيّد بالإمكانيات التي وجد نفسـه مرميـاً في وسـطها فقط (والتي لا تقيدك كثيرًا عندما تكـون وريثًا للمليارات)، فإن اعترافاً حقيقياً بموته المحتوم قد يكون سمح لبروس واين أن يصبح باتمان بدافع الإحساس بالمسؤولية عن وجوده بكل معنى الكلمة.

إلى حـد مـا، يتـم دعم هـذا التفسـير الهيدغـري لباتمان من قبـل القصص المصورة. حيث توضح نهاية الفصل الأول من (Batman: Year One 1987) لفرانـك ميلر بشـكل جميل فكرة القلق الوجودي بأنها تمنـح المرء حرية اختياره لحياته. فبعد أن أنهى سـنواته التدريبية في الخارج، يعود بروس واين إلى غوثام. وعلى الرغم من أنه يريد اتخاذ موقف ضد المجرمين والفساد في مدينته، إلا أنه لم يجد بعد الوسائل المناسبة لتحقيق هدفه. وبعد محاولة فاشلة لمساعدة بائعة هوى دون السـن القانونية، يجلس بروس بمفـرده في الظلام، وينزف بغزارة، خائضاً حوارًا خياليًا مع والده. وعلى الرغم من أنه يدرك أن جروحه شديدة لدرجة أنه من الممكن أن يموت، إلا أنه لا يشـعر بالقلق الشـديد حيالها. وبدلاً من ذلك، فهـو يكـون قلقاً من احتـمال ألا يجد أبدًا طريقـة لفعل ما يشـعر بأنه يجب عليه فعله. حيث يفكر داخل نفسـه: "إذا قرعت الجرس، سـيأتي آلفريد. وسيمكنه أن يوقف النزيف في الوقت المناسـب"، ولكن بعد أن فقد صبره في انتظار تجلّي الحل المناسب له، يفضل بروس أن يموت الآن بدلاً من الاستمرار بعيش حياة لا تفي بالتوقعات التي وضعها لنفسه.

وبعد مواجهة فعلية مع الموت وتذكّر الليلة التي توفي فيها والداه، يسترجع

بـروس كل الإمكانيـات التي يمكن أن يسـتفيد منهـا، إذا كان لديه فقط خطة ومشروع لتنظيمها: "لدي ثروة. ويقع قصر عائلتي فوق كهف ضخم سيكون مقرا مثاليا. . . حتى أنني أمتلك خادماً ذا تدريب في مجال الطب الحربي". ومع ذلـك، فلا شيء من هذا سـيكون مفيـداً دون وجود مشروع منظم للإسـتفادة منـه؛ فكما يقول بروس، لقد مرت ثمانيـة عشر عاماً "منذ بدأ كل شيء"، حيث كان قـد خسر كل شيء ذي معنى في حياته مستسـلماً لليـأس تماماً دون أي أمل بمـشروع يعيـد المعنى لعالمه. ثم، ودون سـابق إنـذار، يقتحم وطـواط نافذته، ليعيـد تنظيـم كل شيء. حيـث أن إمكانيـة وجود مـشروع من شـأنه أن يعطي معنى لحياته ليظهر نفسـه فجأة، قد وفر لـه إمكانية الإختيار. ففي اللحظة التي يقول فيها بروس لنفسـه: "سـأصبح وطواطاً"، سيمتلك معنى لوجوده وعالمه الجديد، ومن هذه النقطة وما بعدها، سـيتم تحديد كل الأعمال التي سـيقوم بها من خارج هذا العالم، من اختيار أصيل للحياة.

الحتمية وفارس الظلام

إذا ما عدنا الآن إلى الجدال بين الإرادة الحرة والحتمية في ضوء هذا المثال، فسيكون من السهل بما فيه الكفاية أن نرى لماذا لا يمكن لأي من هاتين الفئتين أن تحيط بجميع نواحي تحليل هيدغر لحرية الإنسـان. ففي المقام الأول، ترتكز الإرادة الحـرة أو الحتميـة على نفس ثنائيـة الذاتي-الموضوعي حتـى أن هيدغر يصمـم عـلى نقدها والتغلـب عليها. حيث تعتمـد نظريـات الإرادة الحرة على فكرة أن الذات البشرية مفصولة جذريًا عن العالم «الخارجي»، بحيث لا يمكن تحديد اختيارات المرء من قبل أي شيء خارجي. 2

مـن ناحية أخـرى، فإن الفهـم النفسي والعلمـي للحتمية يفـسر الوجود الإنسـاني بنفـس الأوصـاف التـي نطبقها عـلى الأشـياء التي يمكـن أن تكون موجـودة في متناولنـا، بحيث لا يتم بأي حـال من الأحوال اسـتثناء الخيارات

البشرية من نظام السبب والنتيجة. وبما أنه لا يوجد أكثر من لحظات قليلة في سلسلة السببية الكبيرة، فإن الحتمية تتعامل مع الخيارات البشرية باعتبارها مجرد وهم تقرير المصير. وكما رأينا، فإن تفكير هيدغر يعقد بعمق هذا الانقسام الثنائي البسيط بين الوجود الإنساني والعالم من خلال إعادة تفسير مفهوم "العالم" نفسه. وعندما يواجه بروس محدوديته في قلقه الوجودي بشكل أصيل، فإن العالم الذي كان موجودًا بالنسبة له ينجرف بعيداً، ويترك خياراته غير محددة بشكل جذري.

وعلى الرغم من ذلك، فإن خياراته تكون محدودة بسبب الاحتمالات المحددة المتاحة له والتي تظهر له الآن على أنها إمكانيات خالصة في ذات الوقت. لو لم يصطدم الوطواط بالنافذة، لربما لم تخطر على بال بروس فكرة أن يصبح باتمان، ولكن في نفس الوقت، فلا هذا الحدث، ولا وفاة والديه، يجبرانه على القيام بمهمته بالطريقة التي يقوم بها. في الواقع، تتيح تجربة القلق الوجودي لجميع إمكانياته إظهار نفسها كما هي. وهذا يعني أن إمكانية تحمل المسؤولية عن حياته الخاصة تظهر إلى جانب الاحتمالات التي تسمح له بالهرب من تلك المسؤولية بالضبط. حيث يمكن أن تنتهي تجربة الوفاة بقلق وجودي دائماً بهروب المرء من محدوديته والمسؤولية التي ورثها. كان يمكن لبروس أن يدفن تجربته مع القلق الوجودي بسهولة من خلال عيش حياة الرفاهية المتوقعة لكل ملياردير لعوب. ولربما كان هذا الأختيار فقط، هذا الرفض للهروب من نفسه، ما جعل من باتمان بطلاً عظيماً. حيث عندما كان بإمكانه أن يسلك الطريق السهل، وعندما لم يجبره شيء على فعل ما فعل، اختار بروس واين بأصالة طريقة حياته الكلّية. لقد أختار أن يصبح باتمان عندما لم يكن هنالك شيء يطالبه بضرورة ذلك.

هوامش الفصل السادس عشر:

1- مارتن هيدغر، الكينونة والزمن، ترجمة جوان ستامباش، (Albany: SUNY Press 1996)؛ أقرأ أيضاً مقالات في دليل كامبريدج حول هيدغر، تحرير تشارلز غويغنون، (Cambridge: Cambridge Univ. Press 1993).

2- أقرأ، على سبيل المثال، المقالات الموجودة في كراسة أوكسفورد للإرادة الحرة، تحرير روبرت كين (Oxford: Oxford Univ. Press 2004).

الباب السادس

الصديق، الأب.. . .المنافس؟
الأدوار الكثيرة التي يقوم بها الوطواط

17

لماذا باتمان أفضل من سوبرمان

بقلم: غالين فوريسمان

محبو باتمان وتاريخهم المؤلم

أحد النقاشات الأساسية المعتادة في عالم القصص المصورة هو المقارنة بين اثنين من عظماء الأبطال الخارقين وربما هي المقارنة الأكثر شهرة من بين جميع المقارنات، هي تلك التي بين باتمان وسوبرمان. ولسوء الحظ، ففي كثير من الأحيان يتم إقصاء باتمان دون محاكمة بسبب افتقاره إلى أي قوى خارقة، تاركين عشاق باتمان وهم يتباكون. في هذا الفصل - وكبطل خارق عظيم- سيساعد باتمان هؤلاء العشّاق على تقديم مقدمة مختصرة عن نظرية القيمة، وتحديداً حول فكرة «التفضيل».

وكما كنّا قد شاهدنا في Batman: Year One (1987)، فقد انتهت ليلة باتمان الأولى في شوارع غوثام بشكل كارثي. حيث دخل بروس واين المعركة غير مهيأ تماماً. صحيح أنه كان قد تدرب على فنون القتال لسنوات، ولكن بغض النظر عمّا تعرضه لنا الأفلام، فإذا هاجمه عدد كاف من الرجال في وقت واحد، فلن يكون كل هذا التدريب كافياً. تعلم بروس درساً من تلك المغامرة الصغيرة، ومنها طور شخصية باتمان. ونحن بدورنا يمكننا أن نتعلم من هذه المغامرة الصغيرة أيضًا أن لا نورّط أنفسنا في مشاجرة ضد أنصار سوبرمان المخلصين دون تبني شخصية خاصة بنا.

عرف بروس أن المجرمين جبناء ويؤمنون بالخرافات، وأن أفضل طريقة للقبض عليهم هي بتخويفهم. إن تجربة الطفولة خاصته في البئر (الذي أصبح فيما بعد كهف الوطواط)، واشتباكه مع وطواط في إحدى غرف منزله، قد أقنعت بروس بإرتداء عباءته وقناعه الشهيرين.

في مملكة الجدالات والخلافات، ليس هناك شخصية أفضل من الفيلسوف. من المؤكد أنه ليس مخيفاً كرجل يتنكر بزي وطواط - ففي كثير من الحالات يكون الفلاسفة مضحكين للغاية - إلّا أن الفلاسفة مدربون بشكل خاص على الجدال. فعندما تحتاج إلى زرع الخوف في نفس العدو، كن مثل الوطواط، سوداوي، ومتخفٍ، ومرعب. ولكن عندما تحتاج إلى تغيير عقل شخص حول شيء ما، فكن كالفيلسوف - حذر، ومراوغ، وصلب. وبشكل أكثر تحديداً، إذا كنت تحاول إقناع شخص ما بأن شيئًا ما "أفضل من" شيءٍ آخر، فكن مثل منظّر القيمة.

إن نظرية القيمة هي مجال الفلسفة الذي يهتم في المقام الأول بدراسة القيمة والتقييم. والتقييم هو عملية تحديد مدى جودة أو سوء شيء ما، أمّا القيمة فهي التي تجعل هذا الشيء جيداً. فعلى سبيل المثال، قد نفترض أن

"كونـه رائعاً" هو أحد الخصائص التي تجعل شـيئاً ما جيـداً. لذا وبطريقة ما فأن كونه رائعاً يمثل لنا قيمة من نوع ما. وعندما نقيم شيئاً رائعاً، كالباتموبيل، فإننا سنحتسـب قيمـة الروعة كأحد الأسـباب التي تجعـل الباتموبيل جيدة. ولسـوء الحظ، فإن ليس من الواضح ماهية القيم تحديداً. فـ"عامل الروعة" هـو مجـرد مثال على ماهيـة القيم، ولكن مـن غير المحتمل أن يكون مرشـحاً فعلياً للقيمة الحقيقية.

تكـرس معظم نظريـة القيمة لمعرفة مـا الذي يلخـص القيمة، ومن بين أمـور أخرى، يحاول منظّرو القيمة معرفة الفرق بين الشيء القيّم وبين الشيء غير القيّم. ويهتم منظّري القيمة أيضاً بشكل خاص بكيفية أن يكون شيء ما "أفضـل من" أو "أسـوأ من" شيء آخر. وفي موضوعنـا هنا، نريد أن نكون مثـل منظّـري القيمـة، لأننا نريـد أن نعرف مـا الذي يجعل باتمـان أفضل من سوبرمان.

الآن، ومن خلال تقمص شـخصيتنا الفلسفية كمنظّري قيمة، سيمكننا مواصلة سـعينا. الخطوة الأولى هي تعزيز ما في جعبتنا ببعض المفردات التي سـوف تسـاعدنا في طريقنا. حين نقول بأن باتمان أفضل من سـوبرمان، فإننا نجري مقارنة تقييمية. إذّ تعدّ المقارنات شـائعة جدًا في حياتنا اليومية، ولكن الكثير منها ليس تقييمياً بالضرورة. ففي بعض الأحيان نحاول فقط توضيح كيـف أن شـيئين متشـابهان أو مختلفـان دون أن نقول إن أحدهمـا أفضل من الآخر. وسنسمي هذه المقارنات بالوصفيّة. وكمثال على المقارنات الوصفية هو الإشـارة لإحدى السـيارات بالزرقـاء والأخرى بالسـوداء. حيث إذا ما كان هدفنـا الوحيـد هو توضيـح مدى اختلاف السـيارتين، فإننـا لا نجري مقارنة تقييمية.

تعتمـد المقارنـة التقييميـة عـلى تقييمنـا للعديـد مـن الأشـياء، وتخبرنا التقييمات أساسـاً بمدى جودة أو مدى سوء شيء ما. وبالتالي، تحدث مقارنة

تقييمية عندما نأخذ تقييمنا لشيء ما ونقارنه بتقييمنا لشيء آخر. فعلى سبيل المثال، إذا قمنا بتقييم السيارة السوداء وحددنا أنها جيدة حقًا، ثم قمنا بتقييم السيارة الزرقاء وقررنا بأنها سيئة حقاً، فسيمكننا مقارنة هذه التقييمات مع بعضها والاستنتاج بأن السيارة السوداء أفضل من السيارة الزرقاء. وبالقيام بذلك، سنكون قد أجرينا مقارنة تقييمية.

هذه المفردات المضافة تواً لحصيلتنا ستساعدنا لوصف مسعانا. حيث تدور رحى المعركة بين محبي باتمان ومحبي سوبرمان والخارقية وهو نزاع حول مقارنة تقييمية. فيعتقد محبو باتمان أن باتمان جيد حقًا وأن سوبرمان ليس جيدًا جدًا، وبالتالي يستنتجون أن باتمان أفضل من سوبرمان. حيث يقوم محبو باتمان بمقارنة تقييماتهم لهذين البطلين الخارقين. وستتوقف صحة حكمهم بشكل حاسم على ما إذا كانت تقييماتهم الأساسية لهذين البطلين العظيمين صحيحة. ومع ذلك، لا يمكننا حل هذا اللغز دون القيام ببعض أعمال التحري عن خلفياتهم.

قصة الأصل: كيف نقوم بمقارنات تقييمية؟

تشبه المقارنة التقييمية بين باتمان وسوبرمان إلى حد كبير أيَّ مقارنة تقييمية أجريناها في حياتنا، ولذلك فهناك شيء يمكن تعلمه عن طريق فحص كيفية إجرائنا لهذه التقييمات في الماضي. على سبيل المثال، فإن المقارنات التقييمية التي أجريناها ذات مرة كأطفال لا تظهر دائماً كما هي عند إجراء المقارنات كبالغين. وإذا كنّا صادقين مع أنفسنا، فعندما كنّا من محبي باتمان كأطفال غير ناضجين، فربما نكون قد أحببنا أيضاً سوبرمان وكل قواه الخارقة. والأكثر من ذلك، هو أننا قد نواجه صعوبة في شرح سبب تغيير آرائنا. وعندما يحارب باتمان الجريمة، فكلنا نعرف لماذا يفعل ذلك. حيث أننا نعلم ما فعله جو تشيل مع والديه. إن قصة أصل باتمان تساعد في

توضيح سـبب قيامه بـما يفعله كبالغ، وبطريقة مماثلـة، فنحن نمتلك قصص أصـل أيضاً. لذلك دعونا نتوقف لحظة لإستكشـاف قصصنا الأصلية لنرى كيـف وصلنا لإجراء مقارنـات تقييمية بالطريقة التي نقـوم بها. ومن خلال القيام بذلك، فقد نكون قادرين على التركيز على سبب صعوبة تبرير مقارنتنا التقييمية بأن باتمان هو أفضل من سوبرمان.

عندمـا كان أغلبنا صغاراً، كانت المقارنات التقييمية للآيس كريم تدور حول كمية الآيس كريم التي سـنحصل عليها. بعبارة أخرى، كلما كان طبق الآيـس كريـم أكـبر، كان أفضل، وبين طبقـين من الآيس كريـم، كان الطبق الأكبر هو الأفضل. سنسمي هذه الطريقة المبسطة لوضع المقارنات التقييمية بالطريقـة الكميـة. حيث أن التقييـمات الكمية هي تقييمات تسـتند إلى مقدار أو عدد شيء ما. فعندما ننتقل إلى مقارنة تلك التقييمات التي تسـتند فقط إلى الاختلافات في الكمية أو العدد، فنحن نجري مقارنات تقييمية كمية.

ولكن بعدما نشـأنا وأصبحنـا أكثر تعقيداً في أذواقنـا، لم تعد مجرد كمية كبيرة من الآيس كريم كافية لإقناعنا. حيث بدأنا نفضل أشياء كالشوكولاتة على الفانيـلا، لذلك اتخذت مقارناتنا التقييمية جوانـب جديدة أكثر تعقيدًا. حيـث تأخذنـا تقييماتنا الكمية إلى ذلك البعد فقط، لأننـا بدأنا الآن ندرك أن الاختلافـات النوعية في الأشـياء تجعـل أحيانًا الكميـات الأصغر أفضل من الكميـات الأكبر. لتفـترض بأنك تعتقد أن الشـوكولاتة أفضل من الفانيلا، فإذا كان عليك تقييم ومقارنة وعاء من الآيس كريم بالشـوكولاتة بوعاء من الآيس كريم بالفانيلا، فمن المحتمل أن الآيس كريم بالشـوكولاتة سـيكون أفضل بالنسـبة لك. سـنطلق على هـذا النوع مـن المقارنة التقييميـة بالمقارنة التقييمية النوعية.

ثـم تصبح تقييماتنـا ومقارناتنا أكثـر صعوبة عند مـزج الجوانب الكمية والنوعيـة للأشـياء معاً. فعلى سـبيل المثـال، إذا كنت بحاجـة إلى تقييم وعاء

كبير مـن الآيس كريم بالفانيـلا مقابل ملعقة من الشـوكولاتة، فإنك تواجه التحـدي الصعـب المتمثل في تحديد أي خيار منهما هـو أفضل من الآخر عن طريق مزج التقييم الكمي والنوعي. فإذا كنت تكره الفانيلا حقاً، فلن تكون أي كميـة منه مناسـبة لإستمالتك. ولكن ماذا لو كنت تعتقـد بأن آيس كريم الفانيلا هو خيار لا بأس به؟ هل سـيكون حينها الكثير من الآيس كريم ذي المـذاق الـذي لا بأس به أفضل من ملعقة صغيرة من الآيس كريم ذي الطعم اللذيذ جداً؟

الآن أظن بأن معظم محبي سـوبرمان قد سـئموا من القـراءة عن التقييم والمقارنة والآيس كريم. فقصص أصول تلك الشـخصيات تجعلهم يفكرون كمياً: حيث المزيد من القوة هو أفضل. وربما يفسر هذا سبب تحولهم إلى شيء لا يأخـذ الكثير من الشـجاعة الفكرية. مـن ناحية أخرى، فقـد تمت مكافأة جهـود محبي باتمـان من خلال معرفة مـا يجعل المقارنة بين باتمان وسـوبرمان صعبـة للغاية. وإذا كنّا قـد تعلمنا أي شيء من باتمان فهو أن معرفة المشـكلة وفهمها ضروريان لحلها. (لهذا السبب نعتقد أن الأشرار أغبياء جداً لمشاركة مخططاتهـم الشريـرة مع الأبطـال بمجرد القبـض عليهم). يمكننـا تلخيص المشـكلة بهذا الشـكل: إن مقارنة باتمان وسـوبرمان تشـبه مقارنة طبقين من الآيـس كريـم فيهما الكثير مـن الصفات المتنوعـة ضمن كميـات مختلفة. إن إدراك صعوبة إجراء مقارنة بسيطة بين نوعين للآيس كريم في بعض الأحيان يسـاعدنا على إدراك الصعوبة الكبيرة في مقارنـة اثنين من الأبطال الخارقين. ولكننـي واثق من أن محبي باتمان يشـبهون بطلهم الشـجاع (والذكي)، ولذا فهم على مستوى التحدي. (لا تخذلوني!).

مكمن الشر: التهرّب من السؤال

لقد قطعنا شوطًا طويلًا، أيها المحبون، ولكن قبل الانتقال إلى قلب هذا

النقاش، فمن المفيد ملاحظة وجود مغالطة مهمة يميل الناس لارتكابها عند التقييم والمقارنة. وهذه المغالطة هي مكمن الشر في معظم خلافات المقارنة التقييمية مثل خلاف باتمان وسوبرمان، ومن المهم بشكل خاص الانتباه إليها حتى لا نقع فيها بدورنا. والمغالطة التي أشير إليها هي استراتيجية جدلية عامة تسمى بـ»المصادرة على المطلوب»، وهي أسلوب حاذق ومخادع - بعبارة أخرى، مزيف - يمكن استخدامها في أي جدال تقريباً. وهي ذات صلة بخلاف باتمان وسوبرمان لأنها تُستخدم بشكل شائع عندما نضع قوائم من النقاط الإيجابية والسلبية لإجراء مقارنات تقييمية صعبة.

إن «المصادرة على المطلوب» هو مصطلح يساء استخدامه هذه الأيام. فكثيراً ما نسمع الناس يقولون أشياء مثل «إنه يصادر على المطلوب» عندما يكون ما يعنونه حقاً هو «إنه يثير سؤالاً»، وما يعنيه الفلاسفة عندما يقولون بأن شيئًا يصادر على المطلوب هو أن الحجة تتخذ حقيقة الاستنتاج من مقدماته المنطقية، في حين يفترض أن الحجة الجيدة ستدعم نهايتها بالأدلة أو الأسباب التي يمكن للناس الاتفاق عليها بصرف النظر عن الاستنتاج.

فعلى سبيل المثال، لنفترض بأننا أنا وأنت كنّا نتجادل حول ما إذا كانت الفانيلا نكهة أفضل من الشوكولاتة أم لا. أنا أعتقد أن الفانيلا أفضل من الشوكولاتة، ولكي أقنعك بأنّي على صواب في اعتقادي بهذا الأمر، سأقوم بصياغة الحجة التالية: «الفانيلا أفضل من الشوكولاتة، لأن الفانيلا هي أفضل نكهة في العالم». إن الاستنتاج هو أن الفانيلا هي أفضل من الشوكولاتة، والسبب وراء هذا الاستنتاج يأتي من حقيقة أن الفانيلا هي أفضل نكهة في العالم. عندما ندرس هذه الحجة، سيمكننا أن نرى أنه إذا كانت الفانيلا هي بالفعل أفضل نكهة في العالم، فيجب أن تكون أفضل من الشوكولاتة. ولكن المشكلة هي أنه إذا كنت لا تعتقد بأن الفانيلا أفضل من الشوكولاتة، فلن تكون مقتنعاً بالسبب الذي يقول بأن الفانيلا هي أفضل

نكهـة في العالم. ولكي تكون الفانيلا أفضـل نكهة في العالم، فيجب أن تكون الفانيلا أفضل من الشـوكولاتة. ولسـوء الحظ، تفترض حجتنا الأصلية بأن الفانيـلا هـي أفضل نكهـة في العـالم، وبالتالي تفـترض أن الاسـتنتاج الآخر صحيح أيضاً. لذلك، فإنها تصادر على المطلوب.

في الخلاف حول باتمان وسـوبرمان، نواجه نفس مشـكلة المصادرة على المطلـوب. في هـذه الحجـج، تُتَّخذ قـوى سـوبرمان الخارقة مـرارًا وتكرارًا كسـبب في كون سـوبرمان أفضل من باتمان. ولكن كـما هو الحال في خلاف الشوكولاتة والفانيلا، ما لم تتفق بالفعل على أن القوى العظمى تصنع أفضل أبطـال خارقـين، فأنت لـن توافق على اسـتنتاج محبي سـوبرمان. منذ عقود كثيرة، كان محبي سـوبرمان يسـتخدمون هذه الحجة الزائفة لتقويض أولوية باتمان، وهذا شرٌّ ماكرٌ يجب أن نوقفه عند حده. (هيا إلى مركبة الفلسفة!).

كما نعلم جميعاً عند التصدي لأي شرير، فمن المهم جداً تجنب الانحدار إلى مسـتوى ذلـك الشريـر. ويعنـي ذلـك، في هـذه الحالـة بالـذات، تجنب اسـتخدام المصادرة على المطلوب ضد محبي سـوبرمان. ولتجنب خطأ محبي سـوبرمان ومسـاعدتهم على رؤية الخطأ في رأيهم، سـنحتاج إلى استكشـاف مصـدر خطئهـم مرة أخـرى. وعندما كنا نستكشـف قصة أصلنـا، لاحظنا بـأن مـن الصعب للغايـة تبرير مقارنـة تقييمية عنـد مزج التقييـمات الكمية والنوعية، وهو ما نقوم به عندما نصرّح بأن باتمان هو أفضل من سـوبرمان. وواحـدة مـن أكثـر الطرق شـيوعاً للتغلب عـلى هذه الصعوبـات هي سرد إيجابيات وسـلبيات الأشـياء التي نقارنها. ومع ذلك، فهذه الطريقة بالذات حول الاختيار بين خيارين جيدين ربما ستجعلنا نصادر على المطلوب.

عندما نضع قائمة بالإيجابيات والسلبيات، فإننا نضع افتراضات حول ما يجب اعتباره إيجابيا أو سـلبيا. وهذا يعني أنك لا تقدم سـبباً حول وضع شيء ما على الجانب الإيجابي، وشيء آخر على الجانب السـلبي. إنك تفترض

ببساطة أن سمات معينة هي إيجابيات بينما الأخرى هي سلبيات. إذا فعلت شيئاً مشابهاً مع باتمان وسوبرمان، فستتألف قوائمك لإيجابيات وسلبيات كل بطل خارق من سمات الأبطال الخارقين التي تفترض أنت أنها جيدة أو سيئة. إنها مشكلة، وهذه المشكلة ستوفر أرضاً خصبة لظهور مغالطة المصادرة على المطلوب.

عندما يضع أحد محبي سوبرمان قائمة الإيجابيات الخاصة بهم، فمن المحتمل أن تكون مليئة بأشياء مثل الرؤية بالأشعة السينية، والقوة الخارقة، والقدرة على الطيران. أمّا عندما يضع نفس المحب لسوبرمان قائمة لباتمان، فربما سيشير إلى افتقار باتمان إلى الرؤية بالأشعة السينية، والقوة الخارقة، والقدرة على الطيران كسلبيات لباتمان. لكن من الواضح أن هذا التقييم غير منصف لباتمان، لأن باتمان لا يحتاج إلى تلك القدرات الخارقة ليكون عظيماً. ويتم المصادرة على المطلوب ضد عظمة باتمان حينما يفترض محبو سوبرمان بأن امتلاك باتمان لتلك الخصائص الخارقة هو شرط للعظمة.

من ناحية أخرى، يجب على محبي باتمان أن يتجنّبوا وضع قوائم مبنية على افتراض أن الميزات التي يمتلكها باتمان وحده هي الجيدة. حيث أنني أتردد في الإشارة إلى عدد المرات التي قال فيها محبو باتمان بإن باتمان أفضل لكونه أكثر ذكاءً. وعلى الرغم من أن هذا صحيح بالتأكيد، إلا أنه يسقط في نفس مغالطة المصادرة على المطلوب. إذاً، ما الذي يجعلنا نحن محبي باتمان نعتقد بأن كون المرء شديد الذكاء هو شيء عظيم جداً؟ إذ يجب أن يكون لدينا سبب وجيه للتفكير بأن هذا السبب مستقل عن تقييمنا لباتمان، قبل أن نتمكن من استخدامه كسبب لتبرير عظمة باتمان. دعونا نلقي نظرة الآن على حجة مماثلة للتأكيد على الخطأ الذي يتم ارتكابه عندما يفترض محبو باتمان هذا.

لنفترض بأننا قدمنا قائمة بإيجابيات وسلبيات باتمان. حيث لباتمان

الكثير من الأدوات الذكية، وهو يحتاجها. فما هي الخانة التي يجب أن نضع فيها استخدامه لـلأدوات الذكية، الإيجابية أم السلبية؟ كنت لأضعها في خانة الإيجابيات، كما أظن أن العديد من محبيه الآخرين سيفعلون ذلك. ولكن لأي سبب؟ إليكم أحد الأسباب التي لا نستطيع استخدامها: باتمان عظيم ولذا يجب أن تكون أدواته الذكية إضافة إيجابية له. بالطبع فإن هذا سيعتبر مصادرة على المطلوب، لأننا نحاول معرفة السبب الذي يجعل من باتمان عظيما للغاية. أمّا إذا كنت تريد تبنّي هذه الحجة، فيجب أن تكون بالشكل التالي: إن باتمان عظيم لأنه يمتلك أدوات ذكية، ويجب أن تكون أدواته الذكية إضافة إيجابية له لكونه عظيماً. حيث تدور هذه الحجة في دائرة. ولتجنب المصادرة على المطلوب، فسنحتاج إلى تسوية هذه الدائرة. وللقيام بذلك، سنحتاج إلى تبرير عظمة باتمان بشكل مستقل عن شعورنا تجاه باتمان.

إليكم هذا الاختبار كمحبين لباتمان: أشرحوا ما الذي يجعل من باتمان أفضل من سوبرمان دون افتراض أن جميع الأشياء التي لدى باتمان هي أفضل من الخصائص التي يمتلكها سوبرمان بالفعل. لو تبادر لذهننا ما الذي أوصلنا إلى هذه النقطة من النقاش، فيمكننا الرجوع لمعرفة أين انبثقت بعض الإشكالات المنطقية الرئيسية. فعلى وجه الخصوص، فكر في وضع قوائم للإيجابيات والسلبيات. حيث تبدأ هذه القوائم بافتراض أن بعض الأشياء جيدة وبعضها سيئ، على الرغم من أنها لا تخبرنا لماذا نعتقد بأنها جيدة أو سيئة. ولتجنب ارتكاب مغالطة المصادرة على المطلوب عند مقارنة باتمان بسوبرمان، فسنحتاج أولاً إلى تحديد ما الذي يجعل البطل الخارق عظيماً ثم معرفة ما إذا كان لدى باتمان أو سوبرمان تلك الميزات. بمعنى آخر، سيكون عليك اكتشاف أنواع الأشياء التي تنتمي إلى قائمة الإيجابيات والسلبيات قبل تقييم الأبطال الخارقين بشكل فردي.

استعادة العدالة: الأبطال الخارقون والشجاعة

لا شـك بأن القسـم الأخير قد انتهى بمهمة صعبـة، لكن هذا ليس وقـت اليأس. فقد اكتشـفنا ضعفاً كبيراً في هذه الاسـتراتيجيات الجدلية الشريـرة، والآن قـد حان الوقـت لتقديمهـا إلى العدالـة. ولإنجاز هذه المهمة الصعبة، سنحتاج إلى اتخاذ قرار بشأن بعض الخصائص الأساسية للأبطال الخارقين. يمكننا بعد ذلك اسـتخدام هذه الخصائص الأساسية لوضـع قائمـة بإيجابيات وسـلبيات كل من باتمان وسـوبرمان بحيث لا تكون عرضة لاستخدام مغالطة المصادرة على المطلوب لصالح أحدهما. ثم ستخبرنا تلك القوائم بمن هو البطل الخارق الأفضل بينهما.

يجب أن تكون قائمة الخصائص الأساسـية الخاصة بنا مختصرة، لأن الأمر سيستغرق كتاباً كاملاً إذا ما أردنا تغطية هذه المسألة تماماً. وتحفيزك للحصـول عـلى فكرة عن كيفية البدء في التفكـير في حل هذه المقارنة بين باتمـان وسـوبرمان. سـأقدم حجـة واحـدة ممكنـة. قد لا تكـون حجتي محكمة، ولكنها قد تبدأ نقاشـاً مثمراً حـول ما الذي يعنيه أن تكون بطلاً خارقاً، وما الذي يجعل باتمان يناسب هذا القالب أكثر من سوبرمان.

وقبـل أن نغـوص في سرد الحجـة -لأننـا نعلـم أن الأمـر عـادةً ما سـيتحول ليكون سيئاً- فهذه هي خطتي للهجوم. إن الأبطال الخارقين الجيديـن يجب أن يكونوا بطوليين، ولكي يكون الشـخص بطولياً، يجب أن يكون جريئاً أو شـجاعاً. وباتمان أكثر جرأة وشـجاعة من سوبرمان، لـذا فهـو أكثر بطولية. وكلـما كان البطل الخارق أكثـر بطولية، كان ذلك البطـل الخـارق أفضل، وبـما أن باتمـان هو أكثـر بطولية من سـوبرمان، فيمكننـا أن نسـتنتج بـأن باتمان هـو بطل خـارق أفضل من سـوبرمان. ولرؤيـة كيف تعمل هذه الحجة، دعونـا نفترض بطلاً خارقاً لنرى كيف يقارن مع هؤلاء العظماء.

تخيل، للحظة، أن يظهر بطل خارق لديه القدرة على صنع الجوارب على أقدام الناس من خلال التصفيق بيديه. وهذه الجوارب مريحة للغاية ودائمة. وفي كل مـرة يقوم فيها هذا البطل الخارق بذلك، فهو يصاب بصداع صغير. إنـه يحـب مسـاعدة الناس، ولذا فهـو يتحمـل في كثير من الأحيـان الصداع لتوفـير الجوارب لمئـات الآلاف من الناس في جميع أنحاء العالم. إنه يسـتطيع فعل شيء لا يمكن للناس العاديين القيام به، ويقدم تضحية شخصية لأجل مسـاعدة النـاس في كل مرة يتحمـل فيها الصـداع. إنه بطل خـارق، ونحن مهتمـون، بالطبع، بتحديد مـدى أهمية هـذا "Argyled Avenger البطل المزركش" حقاً.

لقد اقترحت بأن هناك شيئاً واحداً يفصل الأبطال الخارقين العظماء عن الآخرين الأقل عظمة وهي الجرأة والشجاعة. وهناك، بالطبع، عوامل أخرى مثل عظمة أهدافهم، ولهذه الحجة سنفترض بأن باتمان وسوبرمان متساويان في هـذا الأمـر. إن البطل المزركش هو بطل خارق كذلـك، ولكنه ليس رائعاً لأن بطولته تأتي من وضع الجوارب على أقدام الناس مقابل معاناته من صداع صغـير. ولو كان يخاطر بحياته بطريقة أو بأخرى للقيام بهذه الخدمة الرائعة، فمـن المحتمل أن نتحدث عنه بأكثر من كونه بطلًا خارق، على الرغم من أن أهدافه ليسـت بدرجة سمو أهداف باتمان وسوبرمان. إن الجرأة والشجاعة، إذن، أمـر أسـاسي لتقييـم البطل الخارق. حيـث لو كان البطـل الخارق ليس بتلك الجرأة والشجاعة، فهو لن يكون بتلك العظمة أيضاً.

مـا الـذي يتطلبـه الأمر لكي تكـون جريئاً أو شـجاعاً؟ حيـث لا يمثل تحمل الصداع شجاعة كبيرة، حتى لو كان تضحية لأجل مساعدة الآخرين. ولكـن لمـاذا لا يمثل هذا الصداع الدائم شـجاعة كبيرة؟ أحد الأسـباب هو أننـا لا نعتقد بـأن الألم الدائم مؤهل ليعتبر مخاطرة، ونعتقد أن القيام بأشـياء خطيرة يمكن أن تعني بأن الشـخص القائم بها شـجاع. إذ قد يؤدي الذهاب

إلى العمل إلى إصابة معظم الناس بصداع، لكننا لن نستلم شهادات بسالة لحضورنا الدائم. ومن ناحية أخرى، فعندما يواجه شخص ما خطراً لمساعدة الآخرين، فإننا عادة ما نقول إن هذا الشخص شجاع.

من المهم أيضاً أن يعلم البطل أن ما يفعله هو أمر خطير حتى نفكر بهم كأمثلة للجرأة والشجاعة. فعلى سبيل المثال، هناك فرق كبير بين الشخص الذي يركض في مبنى محترق لإنقاذ الأطفال في الوقت الذي يعلم فيه أنه قد ينهار في أي لحظة، والشخص الذي يركض معتقداً بأن هذه النار صغيرة ومن غير المرجح أن تضر به. فالشخص الشجاع يفهم أن ما يفعله أمر خطير ولكنه يواجهه على أي حال.

والآن لنعد إلى باتمان وسوبرمان. إن لكليهما أهدافا سامية متمثلة في إنقاذ الأرواح والحفاظ على العدالة، ولكن واحدا منها فقط يواجه الخطر بشكل طبيعي ويعرف ذلك. واحد منهم فقط هو جريء وشجاع باستمرار، في حين أن الآخر يشبه إلى حد كبير البطل المزركش.

لا يمتلك باتمان أي قوى خارقة، فهو ليس مضاد للرصاص، ولا يستطيع الطيران، ولا يستطيع أن ينظر من خلال الجدران لمعرفة ما يحدث ورائها، والأكثر من ذلك، فهو ذكي بما يكفي ليعلم أنه يعرض نفسه باستمرار للخطر لأجل مساعدة الآخرين. لذلك فإن باتمان أكثر جرأة وشجاعة من سوبرمان. بمعنى آخر، فإن باتمان يتحمل مخاطر أكبر لمساعدة الناس أكثر من سوبرمان. وفي هذا الصدد، فإن باتمان أفضل من سوبرمان، مما يعني أنه في قائمة الإيجابيات والسلبيات، باتمان هو بطل خارق أفضل من سوبرمان وبفارق مهم للغاية.

حسب تقديرنا، فقد توصلنا إلى هذا الاستنتاج دون أن نستخدم مغالطة المصادرة على المطلوب ضد سوبرمان. إذ لم يكن علينا النزول إلى مستوى محبي سوبرمان. حيث تم تحقيق هدفنا من خلال التفكير في ما الذي يجعل

الأبطـال الخارقين عظـماء قبل أن نطبق معايير نا عـلى تقييمنا، وكان نموذجنا الخيـالي - البطـل المزركش - نقيضاً مفيداً لمسـاعدتنا في تقييـم جميع الأبطال الخارقين. (هل رأيت؟ لقد كان مفيدًا بعد كل شيء!).

يُتبع..

إن هـذا لا ينهـي النقاش بالطبـع. حيث أظن أن بعض محبي سـوبرمان الذيـن سئموا من تعلـم كيفية التفكـير بإنصاف اختـاروا الانتقـال إلى نهاية هـذا الفصـل لمعرفة الاسـتنتاج، وذلك منحهـم وقتاً للتفكـير في العديد من الاعتراضات على حججي ضد شـجاعة سـوبرمان. صحيح أن سـوبرمان، في بعـض الأحيـان، شـجاع، وصحيح أيضـاً أن باتمان في بعـض الأحيان لا يكـون شـجاعاً. فبعد كل شيء، ستسـاعد دروع باتمـان في صد الرصاص أو تسـاعده طائرتـه على الطيران، ولكـن المقارنة الكمية البسـيطة هنا هي أنه في أكثـر الأحيـان، يكون باتمان أكثـر بطولية من سـوبرمان. المفارقة العظيمة في هذا كله هي أن الأشياء التي يحبها الكثير من محبي سوبرمان حول سوبرمان، كل ما يمثل قواه الخارقة، هي نفسـها الأشـياء التي تمنعه من أن يكون أفضل مـن باتمان. فبعد كل شيء، ألا يكون سـوبرمان في أوج بطوليته عندما يكون حجر الكريبتونايت أو السـحر موجودًا؟ يبدو بأن قلة تواجد الكريبتونايت هو أمر سيء بالنسبة لمحبي سوبرمان!.[1]

هوامش الفصل السابع عشر:

1 - أود شكر كل من تشارلز متيفيير وجون ريدوي لإلهامهم المؤلف بالكثير من الأفكار الإضافية لهذا الفصل.



18

الصديق الأفضل في العالم؟

باتمان، سوبرمان، وطبيعة الصداقة

بقلم: دانيال بـ. مالوي

«لـن يختار أحد الحيـاة دون أصدقاء حتى لو امتلـك كل عناصر الترف الأخرى».

- أرسطو، الأخلاق النيقوماخية

»لا أعلمكـم القريـب، بـل الصديـق أعلمكـم. ليكـن الصديـق حفل الأرض بالنسبة لكم ونكهة أولى تستبق مجيء الإنسان الأعلى".

- نيتشه، هكذا تكلم زرادشت

الأفضل في العالم

مـن بين جميـع الأبطـال الخارقـين في القصـص المصـورة، لا يوجد من يرمـز للتناقـض أكثر من ثنائي باتمان وسـوبرمان، الفريـق الأفضل في العالم. فأحدهما يمثل ذروة الكمال والإرادة الإنسـانية، وهو رجل عادي قطع وعدًا

غير عادي في الليلة التي قُتل فيها والداه أمام عينيه وكرس كل لحظة في حياته لتحقيقه منذ ذلك الحين. والآخر هو الابن الأخير لجنس فضائي ميت، أرسل للأرض كمحاولة يائسة، تم تبنيه من قبل زوجين مزارعين لا أطفال لهما، ليربياه على قيمهما التقليدية. ولكنه مبارك بحمض نووي فضائي جعله يتمتع بقوى وقدرات تفوق بكثير قدرات البشر.

إضافةً إلى الاختلافات في أصولهم وقدراتهم، فهناك اختلافات جوهرية في أساليبهم أيضاً. قارن فقط بين ازيائهم: حيث تظهر شخصية باتمان بزي مقنع داكن يتناقض تناقضاً كبيراً مع زي سوبرمان الملون والذي لا يتضمن قناعاً. في حين يلهم سوبرمان الأمل والثقة، يعتمد باتمان على زرع الرعب في قلوب الآخرين ويستغل إيمانهم بالخرافات. إنه لأمر استثنائي وجود هذين النقيضين في عالم واحد، ولكن هناك شيء أكثر روعة حول هذين الكائنين المميزين، و هي صداقتهما.

ما يجعل صداقتهما جديرة بالاهتمام بشكل خاص هو أن باتمان وسوبرمان، اللذين يتفقان حول القليل جداً، يختلفان حتى حول طبيعة الصداقة نفسها. قد يبدو هذا غريباً في البداية. فالجميع يعرف ما هي الصداقة، أليس كذلك؟ ويوافق الجميع على طبيعتها، أليس كذلك؟ ولكن كلتا الحالتين خطأ. إذ يناقش الفلاسفة طبيعة الصداقة منذ زمن أفلاطون، وما زالوا غير قادرين على الاتفاق عليها. عندما تفكر في الأمر، فمن الواضح أن هناك درجات وأنواعا مختلفة من الصداقة. لديك صداقة معينة مع الجار والذي تقول له مرحباً كل صباح، لكن الصداقة التي تشاركها مع الأشخاص الذين نشأت معهم تختلف عن تلك، من حيث الدرجة والنوع.

وبالمثل مع باتمان وسوبرمان، حيث يدعو كل منهما الآخر بالصديق، ولكن كل واحد منهما يعني شيئاً مختلفاً تماماً عندما يقول ذلك. ضع في اعتبارك فقط الأشخاص الآخرين الذين يرتبطون بهم. فلدى سوبرمان لويس لين،

صديقته وزوجته؛ وصديقه جيمي أولسن؛ والعديد من الأبطال الآخرين في عالم DC. أمّا باتمان من ناحية أخرى، فليس لديه أصدقاء آخرين. من المؤكد أن لديـه معارفـه ورفاقه كآلفريد وروبـن ونايت وينـغ وأوراكل وهانتريس وغيرهم. فـ"عائلة الوطواط"، كما يتم دعوتها بصفتها حلقة باتمان الداخلية، هـي كبيرة حقاً. ولكن، مع اسـتثناء محتمل لكاتومـان (حيث أن علاقتها مع باتمـان غير واضحة عـلى الإطلاق، فلا أحد منهم هو صديـق له. إنهم مزيج غريب من أفراد الأسرة والجنود في حربه، ولكن سوبرمان فقط هو الصديق الحقيقي في عالم باتمان.

وفي حين أن سـوبرمان وباتمان همـا صديقان بالتأكيد، فإن صداقتهما مع بعضهـما البعـض لها معـان مختلفة. حيث يمكـن تتبع مفهـوم الصداقة الذي لسـوبرمان مع الفيلسـوف أرسـطو (384 – 322 قبل الميـلاد)، في حين أن مفهـوم باتمـان للصداقة ينـدرج ضمن أصول فيلسـوف مختلـف تماماً، وهو نيتشه (1844 – 1900).

ذلك السوبرمان – أي شخص هو!

لـذا، هـل يعتبر سـوبرمان صديق خارق؟ من السـهل أن نـرى أن كال إيل هو شـخص ودود. سـواء بشـخصيته العادية أو تلك الخارقـة التي ينقذ بهـا العـالم مرتديـاً الأحمـر والأزرق، فإن سـوبرمان هـو من صنـف الرجال الذيـن نتمنى وجودهم حولنا. قد يكون سـاذجاً وقديم الطراز بعض الشيء بالنسبة للبعض، ولكن دعونا نواجه الأمر: هل بإمكانكم التفكير في التوجه لشخص أفضل منه عند احتياجكم للمساعدة؟.

كم هو عظيم أن يكون سـوبرمان صديقك؟ هل يمكنك التفكير في أي شخص آخر لمساعدتك على التحرك؟ حيث سينتهي منك في ست ثوانٍ، مع

استراحة لتناول القهوة. أو ماذا عن حفل للشواء في الهواء الطلق؟ إذ أنك ستستفيد من رؤيته الحرارية لإشعال الفحم، ورؤيته المجهرية للتأكد من أن جميع الكائنات المجهرية الضارة في اللحوم ميتة، ومن نفسه خارق البرودة للحفاظ على المشروبات الغازية باردة؟ سيكون حفل شواء لرجل واحد! وتلك لا تمثل سوى ميزاته الجسدية؛ فدعونا لا ننسى الصفات الشخصية لسوبرمان. فلم يطلق عليه «فتى الكشافة» الأقدم في العالم من فراغ، فهو جدير بالثقة ومخلص ومفيد ومهذب ولطيف ومبهج وشجاع. بالتأكيد، قد لا يكون هادئاً، أو ممتعاً بشكل خاص، ولكنه مُعتمَد عليه وذو طباع جيدة، وكل مجموعة من الأصدقاء بحاجة إلى شخص واحد على الأقل بمثل إيثاره. وليس من المضر أن يكون لديك شخص خارق الإيثار مثل سوبرمان.

لذا، فمن السهل معرفة سبب رغبة أي شخص في اتخاذ سوبرمان كصديق. لكن هذه المراجعة لسمات سوبرمان الشخصية تثير تساؤلاً معيناً، حيث نظراً للطافته بشكل عام وموقفه الإيجابي المتفائل تجاه العالم وجميع من فيه، لماذا يختار شخص مشرق مثل سوبرمان صداقة شخص مثل باتمان، الكابتن الحقيقي للإحباط؟ فكر في الأمر: إن أعظم عدو لباتمان هو تجسيد البهجة، بالإضافة للجوكر. بحيث أن في إحدى المرات، وعندما كانت رصاصة من الكريبتونايت تستقر بالقرب من قلبه، طلب سوبرمان من باتمان أن يسديه معروفاً ويظهر روح الدعابة. 1 إن الوقت الوحيد الذي كان يستمتع فيه باتمان هو عندما كان يؤذي الآخرين، أولئك الذين يستحقون الأذى منهم. يشبه هذا الثنائي كابتن فريق كرة قدم يحب التسكع مع فتى غريب الأطوار مثير للرعب. إذاً ما الذي يجعل سوبرمان يعتبر باتمان صديقاً، ناهيك عن اعتباره صديقاً مقرباً أيضاً؟.

من ناحية ما، يمكننا أن نقول بأن ذلك يرجع فقط إلى اللطف الذي يتمتع به سوبرمان بشكل عام. فهو من نوعية الرجال الذي سيحاولون تكوين

صداقات مع سمكة قرش، وسينجح بذلك على الأرجح. ولكن هناك عاملا مهما آخر في علاقته مع باتمان. فذلك العملاق الأزرق لا يكتفي بصداقة باتمان، بل إنه يثق به حقاً. إنه معجب به حتى، مما يثبت أنه رجل خارق حقاً، لأن حتى الأشخاص الأقرب والأعز على باتمان لم يكونوا معجبين به هكذا. ولكن المهم هنا هو عامل الثقة. فسوبرمان الشهير لا يمكن أن يصيبه الضرر إلا بفعل مادة واحدة: وهي الكريبتونايت. ولسوبرمان عينة صغيرة من الكريبتونايت مسبوكة على شكل خاتم، خاتم كان قد عهد به إلى باتمان.

إذن ما الذي يجعل سوبرمان مقرّباً جدًا من باتمان؟ لماذا يثق به فوق الجميع؟ لماذا لا يترك الخاتم مع أكوامان؟ أو مع وندرومان؟ إن الجواب يكمن في فهم سوبرمان للصداقة، ولماذا هو أقرب إلى باتمان من أي شخص آخر في مجتمع الأبطال الخارقين.

سوبرمان الأرسطي

من الناحية الفلسفية، فإن فهم سوبرمان للصداقة أقرب إلى تصور أرسطو لأعلى أنواع الصداقة. حيث تلعب الصداقة دوراً رئيسياً في النظرية الأخلاقية لأرسطو.[2] وبطبيعة الحال، ليس لدينا الوقت أو المساحة الكافيتين لتناول كامل تفاصيل نظرية الصداقة لأرسطو. ولكن لحسن الحظ، نحن لا نحتاج إلى ذلك، لأن الكلمة التي تُترجم إلى عبارة "صداقة" من لغة أرسطو اليونانية لها معنى أوسع بكثير. وهذه الكلمة هي philia، ويستخدمها أرسطو لتغطية مجموعة أوسع من العلاقات من مجرد "الصداقة"، ولهذا السبب يمكننا التركيز فقط على أعلى نوع من الصداقة لأرسطو.

في كتب الأخلاق النيقوماخية التي تتعامل مع philia، يناقش أرسطو غالبية أنواع العلاقات الإنسانية، بداية من الروابط العائلية ووصولاً إلى

العلاقة بين المشتري والبائع. ومن الواضح أن معظم هذه العلاقات لها القليل أو لا تمتلك أي ارتباط بعبارة "الصداقة" كما نفهمها. ومع ذلك، فإن أرسطو يناقش بإسهاب شيئاً يشبه الفهم الحديث للصداقة. ضع في اعتبارك أن نظرية أرسطو مقترحة كجزء من نظرية أخلاقية شاملة. وبالنظر إلى ذلك، فلا ينبغي أن يكون مفاجئاً بأن أسمى درجات الصداقة، والأكثر استحساناً، هي الصداقة بين رجلين صالحين.

هناك عدة أسباب لذلك. فأولاً، وحدهم الأشخاص الطيبون بإمكانهم أن يحبوا بعضهم البعض بنقاء وبساطة لمن يكونون، لشخصياتهم ذاتها. ولهذا السبب نفسه، فإن هذا النوع من الصداقة يدوم لمدة أطول. فالصديق الحقيقي يحب شخصية صديقه، وهو شيء لا يتغير إلّا قليلاً مع مرور الوقت. أمّا الأصدقاء الآخرون، أصدقاء المتعة أو المنفعة، فهم أصدقاء فقط طالما يمكنهم توفير المتعة أو المنفعة لبعضهم البعض. لقد عانى الكثيرون منا من هذه الأنواع من الصداقة، فتلك الفتاة التي كنت تلعب معها فقط لأنها كانت تمتلك أروع الألعاب، وذلك الشخص الذي كنت تحدثه في الكلية فقط لأنه كان يمتلك سيارة، وهلم جرا. هذه الصداقات، بالطبع، تميل إلى أن تكون قصيرة الأجل. أمّا أسمى أنواع الصداقة فهي تلك التي لا تميل فقط إلى البقاء لفترة أطول، بل وتشجعنا على أن نكون أفضل.

تميل صداقات سوبرمان لأن تكون من أسمى الأنواع. ببساطة هو ليس لديه أصدقاء مثيرين للريبة. فلويس لين، وجيمي أولسن، وبيري وايت كلهم أناس طيبون. وأصدقاء سوبرمان الخارقون جميعهم أبطال، وهم جميعاً يتطلّعون إليه. لقد اعترف سوبرمان ذات مرة لفلاش بأنه يجد بأن كل الثناء الذي يسمعه من صغار الأبطال الخارقين كثيرٌ عليه، وبأنه غير متأكد ممّا لو كان قادرا على الارتقاء إلى مستوى تلك السمعة.3 (من المثير للاهتمام، أنه في وقت لاحق من نفس القصة، يقف سوبرمان الند للند أمام ملاك!).

وهـذا ينطبـق أيضـاً على صداقة سـوبرمان مـع باتمان. قد يكـون باتمان شـخصية مظلمة، وقد يسـتخدم أساليب مبنية على زرع الخوف، ولكن تحت كل ذلـك، فهو رجل صالح في حسـاب سـوبرمان. ومن بـين جميع أصدقاء سـوبرمان، فباتمان هو الأكثر حرصاً وشراسة. ولو دعت الحاجة، فقد يكون هو الشخص الوحيد القادر على استخدام خاتم الكريبتونايت ضد سوبرمان. ولكن متى ستدعو الحاجة لذلك؟ سيتم استخدام خاتم الكريبتونايت، وقد تم اسـتخدامها بالفعل، عندما يضل سـوبرمان الطريـق. إذاً، بمعنى ما، فإن الخاتـم هو شـهادة على هـذا الجانب مـن صداقتهم، فقد وجـد ليحافظ على سوبرمان كشخص صالح.

ولكن هذا لا يكفي لتفسير الرابطة الوثيقة بين العملاق الأزرق وفارس الظلام. فلتفسـير ذلك، يجب أن ننتقل إلى أرسطو، الذي يخبرنا بأن صديقك هو نسـخة أخرى منك. وهذا يعني، من بين أشياء أخرى، أنك تريد الأشياء نفسـها لصديقـك التي تريدها لنفسـك. ولكن هذا يعني أيضـاً أن صديقك هـو نوع من المرآة لنفسـك. وبهذا فإن لسـوبرمان الكثير مـن المرايا ولكن لا توجـد مرآة جيـدة مثل باتمان. لماذا؟ بالرغم مـن كل اختلافاتهم، لكن باتمان وسوبرمان بشكل عام يتشاركان القيم نفسها. كما يمثل كلاهما ذروة النجاح. فمـن بـين جميع الأبطال في عـالم DC، باتمان هـو واحد من القلائـل الذين لم يلهمـوا مـن قبل سـوبرمان. وعلى هذا النحـو، يمكنه، على عكـس الأبطال الخارقين الآخرين، الوقوف على قدم المسـاواة مع سـوبرمان. والمساواة، بعد كل شيء، هي أمر أساسي في هذا النوع من الصداقة. فالأبطال الآخرون غير متسـاوين حقاً مع سـوبرمان. فالكثير منهم يتبعون قيادته. إذ يقول أرسـطو بـأن على الرغم مـن أن الصداقة ممكنة بين غير المتكافئـين إلّا أنها لا تكون في أسمى درجاتها في تلك الحالة.

ألا تعتقد ذلك؟ لنفترض أن لديك رجلاً ثرياً ورجلاً فقيراً يشتركان في

المصالح والقيم والأهداف. هل يمكن أن يكونا أصدقاء؟ سترغب ضمائرنا المنادية بالمساواة بالصراخ بـ"نعم، بالطبع يمكنهم ذلك". ولكنهم لا يستطيعون ذلك، ليس بالدرجة التي ستعتبر سامية. فمخاوفهم واهتماماتهم مختلفة للغاية، وسوف تتدهور الصداقة بسرعة. ينطبق الشيء نفسه، وإن كان بطريقة أقل دراماتيكية، في علاقة سوبرمان مع الأبطال الآخرين. إنه بطلهم، وبسبب ذلك فهو غير مسموح له بالفشل. وبدا ذلك جلياً حين كشف كل من سوبرمان وباتمان عن هوياتهم السرية لزملائهم أعضاء فرقة العدالة الأمريكية، فقد أعلن أحدهم أنه لم يكن يعتقد بأن لسوبرمان هوية أخرى![4] فبعد كل شيء، كيف يمكن أن يكون سوبرمان مجرد رجل؟.

أي نوع من الأصدقاء هو باتمان - أو بروس واين؟

الآن وقد رأينا أي نوع من الأصدقاء هو سوبرمان. ولكن ماذا عن باتمان؟ عند طرح هذا السؤال، فنحن نواجه مشكلة لا نحتاج لمناقشتها عند الحديث عن سوبرمان: وهي مسألة الهوية. لأنه وعلى الرغم من وجود مسافة ما بين شخصيتي سوبرمان وكلارك كينت، إلا أنها ليست بالكبيرة: فهما يمتلكان نفس القيم والدوافع وما إلى ذلك. الفرق الحقيقي الوحيد هو أن سوبرمان يظهر المزيد من الجمال والثقة - أوه، والقوى الخارقة. ولكن بين باتمان وبديله المغرور، بروس واين، فإن الاختلافات واضحة. لن نذهب إلى أبعد من ذلك في مسألة الهوية، ولكن يجب أن نلاحظ الاختلافات بين وجهي باتمان، لأنك ربما سترغب بأحدهما كصديق ولكنك لن تتمنى الآخر.

كان بروس واين ليشكّل صديقاً ممتازاً بعدّة طرق. فالرجل لديه مال أكثر مما لدى إله، ويقيم الكثير من الحفلات الضخمة، ويحب مشاركة ثروته وتبذيرها، ولديه من الصلات ما سيدفع زعماء العالم للقتل من أجلها. لا تهتم بحقيقة أنه سلس وعصري ووسيم. من الذي لا يريد أن يتخذ بروس

كصديـق؟ نعـم، بالتأكيـد فأن سـوبرمان هو الرجـل الأنسـب لإقامة حفل شـواء، لكن باسـتطاعة بروس توفير اللحوم وأنواع الضيوف الذين لا تمانع في قضـاء بعض الوقت معهم. لن تكون أبداً صديقـه «المقرب» بالطبع؛ فهو متقلـب المزاج عندما يتعلق الأمر بذلك. ولكـن إذا كنت تبحث عن صداقة منفعة أو متعة، فلن تجد أفضل من السيد واين.

باتمان، من ناحية أخرى، ليس بمتقلب المزاج كشـخصيته المغرورة. فلو تمكنـت من الاقتراب منه، فسـتجده صديقاً مخلصاً. مـن ناحية أخرى، وعلى عكس شـخصيته المغرورة، فـإن باتمان ليس صديقاً جيـداً للمتعة أو المنفعة. فهـو ليس باجتماعي أو محب للحفـلات. فما هي المتعة التي يمكنك الحصول عليهـا مـع رجل نشـاطه الأسـاسي هـو التفكير بعمـق وترويع الشـياطين؟ فالمرات الوحيدة التي يبتسـم فيها هي عندما يتسـبب بالألم أو يخطط لإلحاق الألم بالأشرار. وتلك هي مشـاكله السطحية فقط!. حين يتعلق الأمر بفكرة صداقة منفعة مع فارس الظلام، فسـتظهر هناك عقبة رئيسية وهي: أنه أذكى منـك، ولديه خططـه الخاصة. باتمان لديـه دافع، ومن بعـض النواحي، فهو مكيافيلي تماماً في حربه على الجريمة. إنه يتلاعب بالجميع من حوله، ولا أحد يعرف بالضبط ما الذي يجري في رأسه.

لقـد كانت هناك عدة قصص ممتازة في السـنوات الأخيرة لاسـتكشـاف هـذا الجانب من باتمان. أولاً، في قصـة (Tower of Babel 2001) الخاص بفرقة العدالة، فقد تم الكشـف عـن أن باتمان قد وضع خططاً لهزيمة زملائه الخارقـين من فرقة العدالـة "أصدقائه"، كما كان يعتبرهـم. هل تريد صديقا يخطـط سراً لهزيمتك؟ في قصة أخرى، خلال قصة مصورة ذات صلة بباتمان بعنـوان "Bruce Wayne: Fugitive"، تخلى باتمان عـن هوية بروس واين وكذلك عن دائرته الداخلية من العلاقات، لأنه شعر بأنهم قد أصبحوا عقبة أمـام عملـه.[5] وبذلـك، فقد أدار ظهره لأقـرب شيء لديه كعائلـة منذ مقتل

والديه. أخيراً، وفي الفترة التي سبقت ظهور قصة Infinite Crisis لـDC، تم الكشف عن أن باتمان قد طور وأطلق قمراً صناعياً يدعى Brother Eye، للتجسس على جميع البشر في الأرض، بما في ذلك زملائه الخارقين.[6] في كل حالة، فقد اكتشف الأشخاص الأقرب إلى باتمان، الذين عدوه كصديق لهم، أنهم تعرضوا للتلاعب أو للخيانة (أو كليهما) من قبله.

خلال ذلك كله، فقد استمر باتمان في اعتبار سوبرمان صديقه. فعلى سبيل المثال، بعد سرقة خططه المضادة لفرقة العدالة واستخدامها من قِبل راس الغول، فقد تم التصويت على فصل باتمان من الفرقة، وكان تصويت سوبرمان هو الصوت الحاسم للقضية. لم يمانع باتمان في تصويت كل أعضاء الفرقة ضده، بما فيهم بلاستيك مان (والذي ضمه باتمان الى الفرقة بنفسه)، ولكن تصويت سوبرمان ضده أشعره وكأنه قد تعرض للخيانة. ماذا يعني ذلك؟ من المؤكد أن هذا يعني شيئاً مختلفاً وشيئاً أكثر مما هو الحال في قضية سوبرمان، لأن باتمان لا يصنع صداقات بسهولة، ولا يثق بأحد بسهولة. ومثل سوبرمان، فلباتمان دائرة من الأشخاص المقربين، ولكنهم ليسوا أصدقاءه. وهو يرتبط بالأبطال الخارقين، ولكنهم ليسوا أصدقاءه أيضاً.

كان تصويت سوبرمان بمثابة خيانة لصداقتهما، في حين أن أصوات بلاستيك مان، ووندرومان، وأكوامان لم تكن كذلك، لأن الثلاثة الأخيرين لا يعتبرهم باتمان بمثابة أصدقاء له. لما لا؟ ما الذي يشترك به باتمان مع سوبرمان ولا يشترك به مع الأبطال الخارقين الآخرين؟ إن العنصر الأهم بالنسبة لنا هو أن باتمان يعتبر سوبرمان نداً له. وهذا هو المفتاح في كل من مفهوم سوبرمان وباتمان للصداقة، ولكنهما يمتلكان أفكارا مختلفة عن المساواة. فكرة سوبرمان عن المساواة شيء يشبه المساواة الأخلاقية. فجميعنا، بحكم كوننا كائنات تمتلك القدرة على اتخاذ قرارات مبنية على فهمنا للخطأ والصواب (وكلاء أخلاقيين)، فأننا متساوون مع سوبرمان وبالتالي فنحن

نمثل أصدقاء محتملين بالنسبة له. لكن بالنسبة إلى باتمان، فإن كون الشخص وكيلا أخلاقيا لن يؤهله ليكون نداً لـه. فلو كان الأمر كذلك، لكان بإمكان جميـع أعضاء دائرتـه الداخلية أن يكونـوا أصدقاء له، بدلاً مـن كونهم مزيجا غريبا من أفراد أسرة ومسـاعدين يقيمون معـه، وكذلك الحال مع زملائه في فرقة العدالة. أمّا سـوبرمان فهو صديقٌ لباتمان لأن باتمان يعتبره مسـاوياً له، ليس من حيث كونه وكيلا أخلاقيا، ولكن من حيث قدراته وشـخصيته. إذ أن قوى سوبرمان التي لا تُحصى، وما يمتلكه من براعة وقيادية، تجعله مساوياً لباتمان. المساواة في صداقات باتمان تعني المساواة في القوة. وتماشياً مع ثقافته الأرستقراطية وتربيته، لم يُخلق الناس متساوين من وجهة نظر الوطواط.

باتمان النيتشوي

لكـي نفهـم صداقـة باتمان مع سـوبرمان، علينـا الانتقال إلى فيلسـوف مختلف.[7] إن مفهوم نيتشـه للصداقة يَصعُب تفسيره أكثر من مفهوم أرسطو، ويعـزى ذلـك في جزء كبير منـه إلى أنه لابد من تجميعه مـن بعض التعليقات الناقصة. ومع ذلك، فقد تمت الإشـارة من قبـل إلى العلاقة العامة بين باتمان ونيتشـه، وهـي أن باتمـان يمثـل Übermensch، أو «الإنسـان الأعـلى».[8] وهناك علاقة بين الإنسـان الأعلى ومفهوم نيتشـه للصداقة. ففي هكذا تكلم زرادشـت، يقول نيتشه: "يجب أن تحب في صديقك الإنسان الأعلى، وتضعه نصـب عينيك كغاية لوجودك".[9] ومن المثير للاهتمام أنه في الترجمات المبكرة لنيتشـه، غالباً ما يتم اعتبار "الإنسـان الأعلى" على أنه "سـوبرمان". حيث يمثـل سـوبرمان لباتمان شيئاً يمكـن أن يكونـه البشر، ليس مـن حيث قواه وقدراته بالتأكيد، ولكن من حيث قيمه وفضائله. في الحقيقة، فإن سـوبرمان هو شيء يتمنى باتمان في أن يكونه، ولكن لا يمكنه ذلك.

هـذا لا يعني أن باتمان يريد أن يكون سـوبرمان، ليس في جميع الجوانب

على الأقل. فباتمان لا يريد قواه الخارقة. في الواقع، وخلال إحدى القصص كان قد وضع وعيه في جسم سوبرمان. ووصف التجربة بأنها مبهجة وخطيرة، فالإغراء، كما قال، هو في عدم الاعتماد على ذكائه، والرجوع إلى القوة الخارقة.[10] لذلك، وعلى عكس أي شخص آخر على هذا الكوكب، فإن باتمان لا يريد قوى سوبرمان. بدلاً من ذلك، فهو يرغب في تقليد صديقه من حيث شخصيته. فباتمان يتمنى أن يثقَ بالآخرين ومتفائلاً مثل سوبرمان. ليس الشيء "الخارق" هو ما يريده باتمان، بل "الرجل" ذاته. إذ بالنسبة لباتمان، فإن سوبرمان هو المثال الحي لما يمكن للرجل أن يكون عليه.

فكر في الأمر على هذا النحو: سوبرمان هو نصف إله يحاول كسب ثقة الناس. ولذلك فعليه أن يقرب المسافات أثناء تعامله معهم. لذا فهو يتصرف مثل فتى الكشافة، والجميع (مع بعض الاستثناءات المعروفة) يحبه. أمّا باتمان، من ناحية أخرى، فهو إنسان عادي يحاول القيام بأشياء غير عادية. وعليه أن يخلق أسطورة حوله تعمل كجزء من درعه. نحن نعلم جميعاً أن المجرمين جميعهم جبناء ومؤمنون بالخرافات. ولكن من أجل استخدام تلك الخرافات والجبن ضدهم، يجب على باتمان أن يبعد نفسه عن المواطنين الذين يحميهم. إذ ليس من الكافي بالنسبة للمجرمين فقط أن يروا غموض باتمان، فعلى الجميع أن يفعلوا ذلك أيضاً، أو أن الرقصة ستنتهي. وهذا يخلق، بطبيعة الحال، حياة معزولة وحيدة يفرضها هو بنفسه.

إن هذا التقدير الكبير لا يسير بإتجاه واحد. فما لدينا حتى الآن هو نوع من عبادة الأبطال المألوفة، هي نوع العلاقة التي تربط سوبرمان مع معظم الأبطال الخارقين الآخرين في عالم DC. ولأجل أن تكون علاقتهم علاقة صداقة، بالمعنى النيتشوي، يجب أن يكونوا متساوون ويتعاملون بالمثل. فعلى سبيل المثال، يعتبر سوبرمان قدوة بالنسبة لباتمان، ولكن في الوقت نفسه، يعتقد باتمان بأن لدى سوبرمان الكثير لتعلمه، لماذا؟ فعلى الرغم من كل قواه

وفضائلـه، فإن كال إيـل بعيد كل البعد عن الكمال، وبعيـد كل البعد عن أن يكون الإنسان الأعلى لنيتشه. إن قوى العملاق الأزرق تجعله عرضة للخطر، وتحديـداً لاعتقاده هو بأنه غير معرض لأي خطر. لقد نسي – على الرغم من "موتـه" – أنـه لا يـزال فانياً، وأن صورته الوردية للبشر غير دقيقة تماماً. إن مسـاهمة باتمان في صداقتهما هي محاولة لتعليم سـوبرمان جميع الدروس التي تعلمها بقسوة من مقتل والديه، ومن سنوات تدريبه، ووعيه الكامل بضعفه وضعـف الآخريـن. فباتمـان هو مـدرس صعب المراس، كما يشـهد كل من نايـت وينغ وروبـن وأوراكل، وأكثر ما يبرع في تعليمـه هو القتال، فصداقته لسوبرمان لا تصل لأوجها إلّا حينما يضطران للمواجهة.

عندما تتهشم الصداقة: باتمان ضد سوبرمان

تصبـح الاختلافـات في الطريقة التي يتعامل بهـا دعامتا عالم DC هذان في صداقتهـما أكثـر وضوحاً عندما تتعرض فيها صداقتهـما إلى تجارب حادة. بدايـة، فـأن المعارك ليسـت ممتعة، ثم هنـاك العامل الإضـافي المتمثل في قتال صديـق. لكـن وكـما يتعلم معظمنـا عاجلاً أم آجـلاً، فلا يمكننـا دائماً تجنب المواقف غير السـارة. ويبدو بأنه لا يمكن للأبطال الخارقين ذلك أيضاً، لأن باتمان وسوبرمان سيجدان نفسيهما في مواجهة بعضهما البعض.

إنهـا لعبـة دائمة بين المهووسـين في كل حدث أن يسـألوا من سـيفوز في معركـة بـين س وص. ماذا لو تقاتل سـبايدر مان ضد دارث فيـدر؟ ماذا لو تصـارع هي -مـان مع هالك؟ من سـيفوز بين غالاكتوس وأنتـي مونيتور؟ وواحـدة مـن أقدم هـذه الجدالات هي مـاذا لو قاتـل باتمان سـوبرمان، من سيفوز؟ الجواب المنطقي هو سوبرمان. فالقوة الخارقة، والسرعة، والحواس الفائقـة، والطـيران، والرؤيـة الحرارية، والرؤية بالأشـعة السينية، والنفس البـارد؟ لا توجـد هنالـك مقارنة، أليـس كذلك؟ خطـأ. إذ سـيفوز باتمان.

وبدون بذل الكثير من الجهد. وفي كل مرة، لماذا؟ لأنه باتمان. فهو لا يرحم، وذكي، ودائم الاستعداد. أوه، ولديه إمكانية الوصول إلى الكريبتونايت. وفي كل مرة يتواجه فيها العملاق الأزرق وفارس الظلام ضد بعضهما البعض، يفوز باتمان بالمواجهة.

وترجع سلسلة هزائم سوبرمان أمام باتمان إلى منهاج كل واحد منهما في القتال، اضافة لطريقة مقاربتهم لبعضهم البعض. حيث ينظر سوبرمان إلى باتمان كصديق بالمعنى التقليدي. فهو يثق بباتمان ويعتقد (مخطئاً) أنه لن يؤذي صديقاً له. ولكن كما وصف باتمان الاختلاف بينهما بنفسه ذات مرة قائلاً: "في أعماقه، فإن كلارك شخص جيد أساساً. ولكن في أعماقي، أنا لست كذلك".[11] يواجه سوبرمان باتمان بحذر ورفق شديدين. حيث يمتص لكماته، تاركاً نفسه مفتوحاً أمامه. إنه يحاول قتال باتمان بشرف، وهو ما يفعله إلى حد ما بالفعل. والأهم من ذلك، فإن سوبرمان يفهم ما يمكنه فعله لباتمان إذا أراد ذلك. فالقوة التي يتمتع بها تجعل الأمر الأكثر أهمية بالنسبة له هو كبح جماح نفسه. لذلك فحتى في أوج المعركة، لا يستخدم سوبرمان كل ما يملك من قوى ضد باتمان. حيث لا يستخدم سرعته أو قدرته على الطيران؛ ويحاول ألا يستخدم رؤيته الحرارية أو أنفاسه الباردة. في الحقيقة، فإن سوبرمان يريد الاقتراب من القتال بطريقة عادلة بقدر ما يمكن.

ولهذا السبب فهو يخسر، حيث أن باتمان لا يقاتل بعدالة. إنه لا يقاتل مثل سوبرمان. فهو يعرف جيداً بأن سوبرمان لديه أفضلية كاملة في معركة عادلة، فما الداعي من القتال بعدل؟ ففي جميع معاركهم، سواء في غوثام أو متروبوليس أو في أعماق الفضاء، يستخدم باتمان البيئة لصالحه. ويعني ذلك أحياناً استخدام شبكة الكهرباء في المدينة بأكملها لصعق العملاق الأزرق، كما فعل في Hush. (هذا صحيح: لصعقه. إن التعرض لكهرباء تكفي

لتشغيل مدينة بحجم نيويورك لن يؤذي سوبرمان، ولكنه سيوقفه مؤقتاً).
وهذا يعني أحياناً إعداد أفخاخ مقدماً تحضيراً للقتال، كتنشيط أشياء مثل صواريخ الصياد ذات الرؤية بالأشعة السينية، أو المتفجرات التي ستسقط تسعين طناً من الصخور على سوبرمان عند تفجيرها. فأي ميزة، مهما كانت صغيرة، ستستحق الاستخدام.

وهذا يعني أيضاً الاستفادة من نقاط ضعف سوبرمان. هذا صحيح: نقاط الضعف (بصيغة الجمع). أوضح نقاط الضعف، والذي يستخدمه باتمان دائماً، هو الكريبتون. ولكن لدى سوبرمان نقطة ضعف أخرى ناتجة عن اختلاف القوة بينه وبين باتمان أو، في الحقيقة، بينه وبين الجميع. في إعتقاد سوبرمان، فهو أقوى بكثير من. . . حسناً، من الجميع تقريباً، ويجب أن يحرص على عدم التسبب في ضرر دائم. قد يكون باتمان أخطر رجل على هذا الكوكب، كما دعاه سوبرمان ذات مرة، ولكنه لا يزال مجرد لحم وعظم، مثل بقية البشر. ومن وجهة نظر باتمان، فسوبرمان مغرور ومتغطرس، ويقلل من قدر خصومه بكل حماقة. فإعتماده على قواه يعني أنه لم يتعلم أبداً التفكير الاستراتيجي، وهو فنّ كان قد أتقنه فارس الظلام منذ فترة طويلة.

ربما تكون أفضل طريقة لشرح كيفية تعامل باتمان مع سوبرمان هي من خلال التفكير في مصطلح "الاحترام". للاحترام العديد من المعاني، وكثير منها مهم أخلاقياً. فعلى سبيل المثال، يمكن للمرء أن يتحدث عن نوع من الاحترام الذي يدين به أي إنسان لإنسان آخر بالإعتماد على حقيقة أن كليهما وكيلان أخلاقيان. ثم هناك أنواع الاحترام الموجهة للأصدقاء والزملاء والأشخاص الذين يود المرء أن يحذو حذوهم. وهذا كله هو جزء من كيفية تعامل باتمان مع العملاق الأزرق. ولكن هناك نوعاً آخر من الاحترام يدخل اللعبة، وهو الاحترام الذي يدين به المرء لمنافسه. وهذا هو الفرق الرئيسي بين باتمان وسوبرمان: حيث أن سوبرمان لا ينظر إلى باتمان على أنه منافس،

ولكن باتمان وعلى عكسه يفعل ذلك. إنهما في تنافس، سواء إعتقدا ذلك أم لا. وهكذا، فعندما يتم الدفع بهما ضد بعضهما البعض، كما يحدث أحياناً، يكون باتمان مستعداً لذلك دائماً.

أفضل الأصدقاء الخارقين على الإطلاق؟

ما هي الدروس التي يمكن أن نستخلصها من صداقة باتمان وسوبرمان؟ أول الدروس التي سوف تأتي إلى ذهننا، وربما تكون تافهة إلى حد ما، هي أن المعارك لا يجب أن تنهي الصداقات. ولكن معظمنا يعرف ذلك ما إن يصل لسن السادسة، لذا دعونا ننتقل إلى شيء أكثر أهمية وهو: أن الخلافات الأساسية، حتى حول طبيعة الصداقة نفسها، لا يجب أن تنهي الصداقات. وحتى عدم القدرة على فهم بعضنا البعض هي ليست عقبة أمام الصداقة. يعرف سوبرمان أنه لن يفهم تماماً ما يحرك صديقه الأكثر قتامة أبداً، تماماً كما يعترف باتمان (مع بعض الإحباط) بأنه لن يفهم أبداً سذاجة سوبرمان الظاهرة. إنهما يعلمان أنهما ينظران إلى العالم، وإلى بعضهما البعض، بطرق متباينة، ولكن هذا لا يدمر صداقتهما، بل يجعلها ويجعلهما اقوى. إن الاختلافات وسوء الفهم بين باتمان وسوبرمان تعزز من صداقتهما من خلال توفير شيء لهما للعمل عليه. ومن المؤكد بأن هذه العملية مدعومة بالأرض المشتركة التي يتشاركانها: فأهدافهما المشتركة، وأساليبهما المتميزة، تبقي هؤلاء الأصدقاء الأكثر روعة في العالم مرتبطين ببعضهم البعض، ويقومون بحماية وتصحيح بعضهم بعضاً. وهذه الاختلافات، إلى جانب رغبتهم وقدرتهم على العمل معاً، تجعل كلا بطلينا أفضل بكثير فيما يفعلون مما هما عليه.

هوامش الثامن عشر:

1- قصة Superman /Batman العدد #1 (أغسطس 2003).

2- لقد قضى خُمس الأخلاق النيقوماخية خاصته وهو يناقش أنواع وخصائص الصداقة. أرسطو، الأخلاق النيقوماخية، ترجمة تيرينس إيروين (Indianapolis: Hackett 1999)، الصفحات 119-153.

3- العدد #7 من JLA (يوليو 1997).

4- العدد #48 من JLA (يناير 2001).

5- قصة Bruce Wayne: Fugitive المجلد 1-3 (2002-2003).

6- قصة The OMAC Project (2005).

7- للحصول على تحليل ممتاز لعلاقة باتمان من وجهة نظر أرسطية، ولمعرفة لماذا لا يمكن لأسمى أنواع الصداقة أن تكون ممكنة لباتمان، أقرأ فصل "باتمان والأصدقاء: أرسطو وحلقة فارس الظلام الداخلية" لمات موريس، الأبطال الخارقون والفلسفة، تحرير توم موريس ومات موريس (Chicago: Open Court Press 2005)، الصفحات 102-117.

8- فصل "الإنسان الأعلى الحقيقي: باتمان كأسطورة إنسانية"، لسي. ك. روبرتسون، كتاب الإنجيل وفقاً للأبطال الخارقين، تحرير ب. ج. أوروبيزا (New York: Peter Lang 2005).

9- فريدريك نيتشه، هكذا تحدث زرادشت، ترجمة والتر كوفمان (New York: Penguin 1978)، الصفحة 62.

10- قصة JLA: Foreign Bodies (نوفمبر 2000).

11- قصة Batman: Hush، المجلد 1 (2004).

19

الخروج من ظل الوطواط: أرسطو، كانط، وديك غرايسون في التربية الأخلاقية

بقلم: كارستن فوغ نيلسون

بطل خارق من دون قوى خارقة

يعتبر باتمان بطلاً خارقاً دون امتلاكه لقوى خارقة. حيث أنه شخص مختلف تمام الاختلاف عن سوبرمان مثلاً، والذي تتجاوز قواه وقدراته ما لدى البشر الإعتياديين. فلا يمكن لأي قدر من التدريب أو الإعداد أن يحول إنسانا ما إلى سوبرمان.

ولكن لا يلزم وجود حيل علمية خيالية فائقة أو قوى ما ورائية حتى يكتسب شخص ما قوى باتمان وقدراته. وقد يكون هذا هو السبب في أن باتمان قد ألهم وجذب عدداً من التلاميذ والمتدربين: نايت وينغ وروبن (أو العديد منهم) وأوراكل وهانتريس، على سبيل المثال لا الحصر. ولأسباب مختلفة، فقد كرّست هذه الشخصيات جميعها حياتها لمواصلة الكفاح ضد الجريمة، واختارت باتمان كمعلم لها، لماذا؟ لأن قوى باتمان، على عكس سوبرمان، أو وندرومان، أو سبايدرمان، هي قوى بشرية معقولة. إذ أن ما

يكونه باتمان، وما أصبح عليه، ليس نتيجة لظاهرة طبيعية غير قابلة للتفسير أو حادث علمي غامض. ولكن بدلاً عن ذلك فهي نتيجة لسعي إنساني متفانٍ (أو يمكن وصفه بالهوس) لتحقيق الكمال الجسدي والعقلي والأخلاقي. قد يكون الأمر بعيد المنال، ولكنه أمر ممكن للإنسان العادي، من ناحية المبدأ على الأقل، أن يكرس حياته للتمارين الجسدية والدراسة بكثافة حتى يكون بإمكانه الوصول لنفس التفوق البدني والعقلي والأخلاقي الذي لباتمان.

أرسطو والتعلم من خلال التجربة

فكرة أنه يمكنك تعلم أن تكون إنساناً جيداً أو فاضلاً من خلال محاكاة أو تقليد قدوة أخلاقية هي فكرة قديمة جداً. حيث ناقش الفيلسوف اليوناني أرسطو (384 – 322 قبل الميلاد) هذه الفكرة بشكل محدد منذ ما يقرب من 2500 عام في كتابه «الأخلاق النيقوماخية». إذ سأل أرسطو سؤالاً أساسي جداً وبسيطاً للغاية وهو: كيف يمكن لنا أن نصبح بشراً صالحين؟ وكانت إجابته على نفس القدر من البساطة: نصبح بشراً جيدين بنفس الطريقة التي نصبح بها جيدين في معظم الأشياء الأخرى، أي من خلال الممارسة والتكرار. وكما كتب: «أي شيء يتعين علينا أن نتعلم القيام به فنحن نتعلمه من خلال القيام الفعلي به: إذ يصبح الناس بناة عن طريق البناء وعازفين بالعزف على الآلات الموسيقية. وبالمثل، فنحن نصبح عادلين من خلال القيام بالأفعال العادلة، ومعتدلين عن طريق القيام بالأفعال المعتدلة، وشجعانا من خلال أداء الأعمال الشجاعة».[1]

للوهلة الأولى، قد يبدو هذا شعورا فطريا. فكيف يمكن أن نتعلم أي شيء دون فعله، أو على الأقل محاولة القيام به؟ إذ أن هذه هي الطريقة التي نتعلم بها الرياضيات، وقيادة السيارة، ورمي الباترينغ، وهكذا. ولكن يبدو أن هناك مشكلة في فكرة أرسطو. إذ يبدو من السهل بما فيه الكفاية التمييز

بين الأنشطة والإجراءات التي تنطوي عليها، مثل بناء منزل أو العزف على آلة موسيقية، ولكن كيف نجرب الأفعال العادلة والاعتدال والشجاعة؟ وكيف نحدد ما إذا كان أي فعل معين يجسد الفضائل التي نحاول اكتسابها وتطويرها؟.

ولحسن الحظ كان لأرسطو إجابة على هذه المشكلة: إذا كنا نريد أن نعرف ما يعنيه أن تكون عادلاً أو معتدلاً أو شجاعاً، فيجب أن ندرس هؤلاء الأشخاص الذين يتصفون بهذه الفضائل.[2] فالشخص العادل، بعد كل شيء، هو الشخص الذي يقوم بأفعال عادلة بشكل منتظم وموثوق؛ والشخص المعتدل هو الشخص الذي يمكن الاعتماد عليه في عدم الإفراط في الانغماس؛ والشخص الشجاع هو الشخص الذي يواجه المخاطر دون أن يتراجع. لذا، فإذا أردنا معرفة المزيد عن العدالة أو الاعتدال أو الشجاعة، يجب أن ننظر إلى هؤلاء الأشخاص المثاليين من الناحية الأخلاقية والذين نعتقد أنهم في الحقيقة عادلون أو معتدلون أو شجعانا.

ومع ذلك، فإذا كنا نريد أن نكون عادلين أو معتدلين أو شجعانا، فلا ينبغي لنا فقط أن ندرس تصرفات الأشخاص العادلين والمعتدلين والشجعان. بل علينا أيضاً أن نحاول تقليد أفعال هؤلاء الأشخاص، على أمل أن نتمكن خلال العملية من اكتساب صفاتهم الأخلاقية أو فضائلهم المثيرة للإعجاب. فإذا كنا نريد أن نكون شجعانا، فعلينا القيام بأعمال مشابهة لتلك التي يقوم بها الرجل الشجاع؛ وإذا كنا نريد أن نصبح معتدلين، فيجب علينا القيام بأعمال مشابهة لتلك التي يؤديها رجل معتدل؛ وهلم جرا.

هل يعتبر باتمان مثالاً أخلاقياً نموذجياً بالنسبة لبشري؟

لنتأمل العلاقة بين باتمان وروبن. لا يقتصر دور باتمان على تعليم روبن

مهارات معينة بشكل محدد فقط، مثل كيفية استخدام الباترينغ أو أفضل طريقة لنزع السلاح من يد المجرمين. ولكن من خلال كيفية تصرفه في مواقف محددة، حيث يزود باتمان روبن ببعض المعايير والقواعد الأخلاقية؛ مثل فكرة أنه ينبغي ملاحقة المجرمين بلا هوادة، وأن المخاطر يجب مواجهتها دون توانٍ، وأن على المرء أن يحاول جعل العالم مكاناً أفضل. من خلال الاقتداء بباتمان، من خلال محاولة التصرف كما يتصرف باتمان، لا يكتسب روبن بعض المهارات والقدرات العملية تدريجياً فقط، ولكنه يكتسب أيضاً نظرة أخلاقية وعددا من الفضائل (كالشجاعة والشعور بالعدالة) المتعلقة بهذا الأفق.

وبهذا يعتبر باتمان مثالاً جيداً لما كان يفكر فيه أرسطو عندما اقترح أن نتطلع لشخص فاضل للحصول على إرشادات حول كيفية أن نصبح أشخاصاً أفضل أخلاقاً. ففي مدينة غوثام، في عالم DC بشكل عام، وحتى في واقعنا الدنيوي، ينظر الكثير من الناس إلى باتمان كقدوة أخلاقية بشرية. وذلك لأسباب وجيهة: فباتمان شجاع وذكي بلا أدنى شك. حيث أن لديه شعورا قويا بالعدالة، وهو قادر على الحفاظ على برودة أعصابه حتى في خضم المعارك، وهو على استعداد للتضحية بحياته وسعادته لجعل العالم مكاناً أفضل. وكلها تمثل صفات مرغوبة وقيمة نتمنى لو يمتلكها المزيد من الناس. لذا، وبناءً على اقتراح أرسطو، ينبغي لنا جميعاً أن نحاول أن نكون أكثر شبهاً بباتمان، وأن نتصرف كما يتصرف هو، على أمل أن نتمكن تدريجياً من اكتساب بعض الفضائل التي لديه. يبدو بأن نايت وينغ، وروبن، وأوراكل، وغيرهم من الأبطال الذين اختاروا باتمان كنموذج مثالي لنمذجة حياتهم وتهيئتها، يتبعون نصائح أرسطو السليمة. فلقد اختاروا محاكاة أفعال وسلوكيات الشخص المثالي من الناحية الأخلاقية من أجل اكتساب وتطوير الصفات المرغوبة أخلاقياً التي يمتلكها.[3]

تأثير السُلطة!

ومع ذلك فهناك العديد من المشكلات في تفسير أرسطو. فقد يكون محقاً تماماً في أننا نكتسب فهمنا الأول للصواب والخطأ عن طريق اتباع أمثلة الأشخاص الذين نعتبرهم قدوة أخلاقية. عملياً، فأن الأشخاص الذين يتخذهم الأطفال قدوة أخلاقية، في أكثر الأحيان، هم أشخاص في موقع السلطة، مثل آبائهم ومدرسيهم، وما إلى ذلك. لذا فليس من المستغرب أن ينظر روبن إلى باتمان كشخص يستحق الاتباع والتقليد. فكل من روبن الأول والثاني، ديك غرايسون وجيسون تود، يعتبران باتمان أباً لهما بطريقة ما. حيث تبنى بروس واين ديك غرايسون بوصاية قانونية بعد مقتل والديه، وتبنى جيسون تود بعد أن فاجأه وهو يحاول سرقة إطارات الباتموبيل.[4]

ولكن لا ينبغي اتخاذ الناس كقدوة أخلاقية لمجرد أنهم في مواقع السلطة؛ إذ يجب اعتبارهم مثاليين أخلاقياً لأنهم مثاليين أخلاقياً. فلا ينبغي اعتبار باتمان شخصاً يجسد العديد من الفضائل القيّمة لكونه باتمان فقط، ولكن لأنه يجسد هذه الفضائل فعلياً. وعلى الأطفال أن يختاروا الإعجاب بالأشخاص الذين يستحقون فعلاً أن يتم الإعجاب بهم ويحاكوهم، بدلاً من الأشخاص الذين صادف وأنهم شخصيات في موقع السلطة فقط. إذ لا يعد الآباء والمعلمون نماذج أخلاقية مثيرة للإعجاب بالضرورة، وحقيقة أن الأطفال كثيراً ما يعجبون بوالديهم ويقلدونهم لا تعني أن والديهم يستحقان الإعجاب والتقليد بالفعل. تخيل فقط ما كان سيحدث لو أن الجوكر، وليس باتمان، كان قد تبنى ديك غرايسون.

لنسمي هذا بـ«خلاف غوردن - يندل»

إذن كيف نعرف أن الأشخاص الذين نعتبرهم فاضلين أخلاقياً هم

فاضلـون أخلاقياً بالفعل؟ قد يعتقد معظم النـاس في مدينة غوثام، وكذلك معظمنـا في العـالم الواقعي هنا، بأن باتمان شـجاع، وذكي، وعـادل، وقوي، ومـا إلى ذلك. ولكن لا يعتقد الجميع بهذا بالفعل. حيث يعتقد بعض الناس بأن باتمان هو حارس قانون مسـتقل خطير، إذ يشـكل عـدم احترامه المتعمد للقانون تهديداً أكبر بكثير للمجتمع مما تشـكله أفعال المجرمين الذين يساهم بإلقاء القبض عليهم.

مسـألة ما إذا كان باتمان بطلاً أم شريـراً هو موضوع مهم للغاية في قصة فرانـك ميلـر The Dark Knight Returns (1986).[5] فعندمـا اسـتقال جيمـس غـوردون من منصـب مفوض الشرطـة في مدينة غوثـام، كان طلبه الأخـير هـو أن يطلب من خليفته، إلين يندل، أن تسـتفيد ممـا لدى باتمان من معلومـات وتتعلم منه. ولكـن بدلاً من ذلك، فإن أول إجـراء تقوم به يندل كرئيس جديد لقسـم الشرطة هو التنديد بباتمان بصفته حارساً مقنعاً خارجاً عـن القانـون وتوقيع مذكـرة توقيف لإلقاء القبـض عليه على الفـور. لتندم ينـدل على هذا القـرار لاحقاً، وبنهاية القصة، تتحـول لدعم تصرفات باتمان بالفعـل. ولكن رد فعلها المبدئـي، وردود الفعل الأخرى من قبل العديد من الشـخصيات التي تظهـر في قصة ميلر، هو رفض واضـح لفكرة كون باتمان شخصاً يستحق الثناء من الناحية الأخلاقية.

إن الاختـلاف حول الوضـع الأخلاقي لباتمان يكشـف أن مجرد اعتبار شـخص ما فاضلاً أخلاقياً ويسـتحق المحاكاة لا يعني أنـه في الحقيقة فاضل أخلاقياً ويسـتحق المحاكاة. ولكن كيف يجب أن نقرر ما إذا كان شـخص ما فاضـلاً أخلاقياً بالفعل؟ فنحن ببسـاطة لا يمكننا الاعتماد عـلى الرأي العام أو نصيحـة الآخريـن، حيـث يمكن للرأي العـام أن ينقسـم ويمكن للناس أن يختلفـوا. فكل من جيمس غـوردون وإلين يندل أشـخاص أذكياء للغاية ويعيشان في نفس البلد، بل وفي نفس المدينة، ويتقاسمان الكثير من المعتقدات

والقيم الأخلاقية. لكنهما يختلفان بشدّة حول الوضع الأخلاقي لباتمان. إذ لا يمكن لكل من غوردون ويندل أن يكونا على صواب في الوقت ذاته، إذاً كيف سنقرر من المحق بينهما؟ والأهم من ذلك، إذا لم يكن لدينا تصور واضح يتفق عليه الجميع حول من الذي يتمتع بالفضيلة الأخلاقية ومن الذي لا يتمتع بها، فكيف يمكننا أن نصبح أشخاصاً أفضل أخلاقياً؟ يبدو بأن مفهوم أرسطو للتعليم الأخلاقي يواجه مشكلة.

وفي الزاوية الأخرى هناك. . .كانط!

يمكن تتبع هذه الاعتراضات على فلسفة أرسطو للتربية الأخلاقية رجوعاً إلى الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (1724 - 1804). إذ في كتابه المؤثر «أسس غيبيات الأخلاق» (1785)، انتقد كانط فكرة أنه يمكننا استخدام البشر المثاليين أخلاقياً لتحديد ما يجب فعله، وكيفية التصرف، وما إذا كان هناك إجراء معين يعتبر صوابا أو خطأ: «لكل مثال. يتم تقديمه لِيْ يجب أن يُقيَّم وفقاً للمبادئ الأخلاقية، ليثبت فيما إذا كان يستحق أن يكون مثالاً أصيلاً، وبالتالي يصلح كنموذج».[6] ادعى كانط أن هذا سيكون صحيحاً حتى بالنسبة إلى يسوع، وكان سيقول الشيء نفسه عن باتمان أيضاً كما نفترض. إذ لا يمكن تحديد ما إذا كان باتمان إنساناً مثالياً من الناحية الأخلاقية بالفعل، ويستحق الإعجاب والتقليد، من خلال الإعتماد على ما يعتقده الآخرون عنه فقط، أو من خلال سلطته الظاهرية. نحن بحاجة إلى أن نسأل مباشرة ما إذا كان باتمان يجسد المعايير والمتطلبات الأساسية للأخلاق.

بالنسبة لكانط، فإن أهم ميزة للوجود الإنساني، وبالتالي أهم قيمة أخلاقية، هي الحرية. حيث جادل كانط في كتاب أسس غيبيات الأخلاق بأن السمة المميزة للبشر هي قدرتهم على توجيه حياتهم وفقاً للمبادئ أو

القوانين العقلانية والعالمية والتي اختاروها هم أنفسهم. وقد أطلق كانط على هذه القدرة أسم الإستقلالية، وادعى بأن كون المرء مستقلاً، قادراً على توجيه حياته وفقاً للمبادئ العالمية التي يتم اختيارها أو تشريعها ذاتياً، هي ماهية الحرية الإنسانية: "ما الذي تكونه حرية الإرادة إذاً غير الإستقلالية، أي أن تكون ملكية الإرادة قانوناً لذاتها؟".[7]

وفقاً لكانط، فإن كل إنسان لديه القدرة على التصرف بشكل مستقل بقدر ما هو عقلاني.[8] لكن لا يستخدم كل شخص هذه القدرة أو يدركها فعلياً. فبعض الناس لا يعيشون حياتهم وفقاً للمبادئ التي اختاروها لأنفسهم، ولكن وفقاً للطريقة التي يعتقد الآخرون أنه يجب عليهم العيش بها. ويدعو كانط الظروف التي تحدد حياتك وتصرفاتك بواسطة سلطات أو قوى خارجية بالتبعية.[9] في "ما هو التنوير؟" يقدم كانط الوصف التالي لما يعنيه أن يكون المرء في موضع التبعي ويشرح لماذا لا يتخلى الكثير من الناس عن هذا الوضع حيث يقول: "من المريح جداً أن تكون قاصراً! فإذا كان لديّ كتاب يفهم لأجلي، ومستشار روحي لديه ضمير لأجلي، وطبيب يقرر نظاماً صحياً لي، وهكذا، فأنا لن أزعج نفسي على الإطلاق. إذ لست بحاجة إلى التفكير فيما لو كان بوسعي الدفع فقط؛ حيث سأعهد للآخرين بالأعمال التي أجدها مزعجة بالنسبة لي بكل سهولة".[10]

كانت التبعية على مدار التاريخ، كما يدعي كانط، هي الخيار المتعارف لمعظم الناس. لقد كان الآلهة والكهنة والملوك والأطباء والسياسيون منشغلين في تقرير كيف ينبغي للبشر أن يعيشوا ولم يتركوا إلا القليل من الإستقلالية لهؤلاء الأفراد. ولم يحتج معظمهم على ذلك، لماذا؟ لأنه من السهل والمريح السماح للآخرين بتحديد ما نفكر فيه وكيف نتصرف. حيث يتمثل الغرض الأساسي من التربية الأخلاقية، بالنسبة لكانط، في نقل الناس من هذا الوضع المريح للتبعية إلى درجة يمكنهم من خلالها

ممارسة قدرتهم على الاستقلالية بشكل فعال. ويعتقد كانط أن هذا يتعارض إلى حد ما مع فكرة أرسطو في التربية الأخلاقية باعتبارها تعتمد على عملية تقليد ومحاكاة الأشخاص الآخرين في المقام الأول. "إن المقلد (في الأمور الأخلاقية) هو من دون شخصية، لأن الشخصية تتحدد من خلال الأصالة في التفكير" على حد تعبير كانط.[11] والمشكلة في فكرة أرسطو هي أنه من خلال السماح لتصرفات شخص آخر (شخص كباتمان على سبيل المثال) في تحديد الكيفية التي سأتصرف بها، يبدو بأنني أسلم نفسي لسلطة خارجية: أي أحيل المسؤولية عن حياتي إلى شخص آخر رافضاً قبول عبء اتخاذ القرار في كيف أعيش وما الذي يجب أن أكونه بنفسي.

يقدم المسلسل التلفزيوني الشهير Batman (أو ربما غير الشهير) في الستينيات مثالاً متطرفاً لما يدور في خلد كانط. إذ أن واحدة من أكثر السمات إثارة للغضب في هذا المسلسل، حتى بالنسبة للجماهير، هي الطريقة التي يظهر بها روبن (الذي لعب دوره برت وارد) كنسخة رخيصة من باتمان (آدم ويست). فباتمان هو من يخرج بجميع الأفكار اللامعة، أمّا روبن فهو يقوم باتباعه فقط. وكلما نجح شرير الأسبوع في محاصرة باتمان وروبن بشراكه، بحيث أنهم "لن يخرجوا أبداً من هنا على قيد الحياة" من هذا الفخ، كان دائماً باتمان – وليس روبن – هو الذي يجد الطريق الوحيد وغير المعقول غالباً للهرب. وعندما يتوجب على الثنائي اكتشاف بعض الأدلة الغامضة، فإنه دائماً ما يكون باتمان – وليس روبن – هو من يتمكن من فك شفرتها. المشكلة لا تكمن في كون روبن لا يحاول ذلك؛ ولكنها في أنه كلما حاول إظهار المبادرة والتفكير بمفرده، فإنه يفشل لأنه لم يكتسب إطاراً مستقلاً للعقل. إذ أنه قد أكتسب أسلوب باتمان في التفكير بشكل أقل فعالية من النسخة الأصيلة.

إذاً نحن نواجه مشكلة. فمن ناحية، تبدو نظرة أرسطو عن كيفية اكتساب وتطوير البشر نظرة أخلاقية مقنعة للغاية؛ إذ أننا نقلد ونحاكي أولئك الذين نعتبرهم مثاليين من الناحية الأخلاقية، ومن خلال محاولاتنا لتتبع نموذجهم، فإننا نكتسب تدريجياً بعض القيم والمعايير والفضائل. ومن ناحية أخرى، يبدو كانط محقاً أيضاً في الإصرار على أن الاستقلالية، أي القدرة على تحديد المبادئ والقواعد التي تشكل مسار حياة المرء ذاتياً، وهي سمة أساسية لما يعنيه أن يكون الإنسان إنساناً. والمشكلة هي أن هاتين الفكرتين تبدوان وكأنهما تسيران في اتجاهات مختلفة. حيث يعتقد أرسطو أن الأمثلة التي وفّرها أشخاص آخرون تلعب دوراً مهماً في التربية الأخلاقية؛ بينما يعتقد كانط بأن الاعتماد على تصرفات وسلوك الآخرين لإخبارنا بما يجب فعله يرقى ليكون إنكاراً للإستقلالية. إذاً فمن المحق بينهما؟.

ربما يكون كلاهما على حق جزئياً على الأقل. إذ يبدو واضحاً أن معظم الأطفال غير قادرين على توجيه حياتهم بوعي وفقاً للمبادئ العالمية التي اختاروها هم أنفسهم. إنهم ببساطة لا يملكون القدرة على القيام بذلك. فلو تبنينا رأي كانط جدياً، فإن إحدى أهم مهام التربية الأخلاقية يجب أن تكون في تزويد البشر غير الناضجين بهذه القدرات. ولكن قد تكون إحدى الطرق التي يكتسب بها البشر القدرات اللازمة للاستقلال الكامل هي عن طريق تقليد ومحاكاة الأشخاص الآخرين، ولا سيما الأشخاص الذين يبدو بأنهم يجسدون فضائل أخلاقية مهمة. إذا كان الأمر كذلك، فربما يكون كل من أرسطو وكانط على حق تماماً: حيث يصف أرسطو المراحل الأولية في عملية التربية الأخلاقية، في حين يركز كانط على هدف هذه العملية أو نهايتها. وربما لن يوافق كانط ولا أرسطو على هذا، ولكن

لـو أقررنـا بأن كلاهمـا كان لديه شيء صحيـح، فقد يكون هـذا هو الثمن الـذي يتعـين علينـا دفعـه. حيث في الفلسـفة، كما هـو الحـال في الحياة، لا يمكنـك افـتراض أن كون شـخص ما على حق في شيء واحـد، يجعله محقاً في كل شيء آخر.

سـنتمكن مرة أخرى من استخدام علاقة باتمان وروبن لصقل فهمنا. حيـث تتمثـل أحـد الاختلافات بـين روبـن مـن المسلسـل التلفزيوني في الستينات وروبن الموجود في القصص المصورة في أن الأول لا يتمكن مطلقاً من تطوير شخصية مستقلة وإطار ذهني (لا يزال في حالة من التبعية)، بينما يفعل الآخر ذلك. ففي القصص المصورة، يطور ديك غرايسون، أول من جسـد روبن، حياة منفصلة عن باتمان ومستقلة عنها. إذ تخرج من المدرسة الثانوية (وذلك ليس بالأمر الهين حين يكون مترافقاً مع مسـاعدة باتمان في محاربـة الجريمة)، وترك مدينـة غوثام للالتحاق بالجامعة، ثـم يقوم بقيادة نسـخ عديدة من التين تايتنز. وفي اللحظة الحاسـمة في حياته المهنية، يتخلى ديك غرايسـون عن هويته كروبن، يتبنى شـخصية خارقة جديدة يدعوها بنايـت وينغ. ويـؤدي به هذا القرار في بعض القصـص القليلة الى مواجهة قوية ضد باتمان والذي يرفض في بداية الأمر تخلي ديك غرايسـون/ روبن عنـه كمسـاعد له. ومـع ذلك، فإن نايـت وينغ يثابر ويمـضي ليصبح بطل مدينته، Blüdhaven.

لا يحـرر ديك غرايسـون نفسـه من تأثير باتمـان ويصبح مقاتـلاً محترماً للجريمة بشكل مستقل فقط، بل وإنه يستخدم القدرات والسمات الشخصية التـي اكتسـبها وتعلمها من باتمـان. فمن الواضـح أن نايت وينغ يسـتخدم مهـارات التحقيق التـي تعلمها من باتمان، والقـدرات البدنية والعقلية التي طورهـا مـن خلال التعـاون المتبـادل معه، في حربـه ضد الجريمـة. وبنفس الدرجـة مـن الأهمية رغم أنهـا أقل وضوحاً، هـي الطريقة التـي يوظف بها

نايتوينغ الشجاعة، الذكاء والنزاهة التي ساعد باتمان في غرسها فيه، لتحرير نفسه من سلطة باتمان. يتطلب الأمر شجاعة للوقوف في وجه باتمان، حيث أن معظم الأشرار (والعديد من الأبطال الخارقين) سيشهدون على ذلك، ولكن نايت وينغ قد تمكن من فعل ذلك لدرجة إقناع باتمان بإحترام قراره وتخلي الأخير عنه كروبن. وقد كان قادرا على القيام بذلك إلى حد كبير بسبب الشخصية الأخلاقية التي اكتسبها من خلال علاقته مع باتمان.

يبدو بأن ديك غرايسون قد اكتسب وطور القدرات اللازمة له ليصبح إنساناً مستقلاً، وذلك من خلال تقليد ومحاكاة شخص قدوة أخلاقية بشكل رئيسي، وهو باتمان. إذا كان هذا صحيحاً، فلا يوجد تعارض بين أرسطو وكانط بالضرورة. أو لا يوجد تعارض بالضرورة على الأقل بين الفكرة الأرسطية بأن التربية الأخلاقية تتضمن التعلم من الآخرين ومحاكاتهم والإصرار الكانطي على أهمية الإستقلالية، والقدرة على توجيه حياة الفرد لذاته وفقاً لاختياراته أو تشريعاته الذاتية حسب مبادئ عالمية.

وهذا يجيب أيضاً على سؤال آخر، ألا وهو كيف نحدد ما إذا كان الشخص الذي نعتبره مثاليا من الناحية الأخلاقية ويستحق المحاكاة هو في الواقع نموذجا أخلاقيا مثاليا. تذكر أن كانط كان يعتقد أنه لكي يكون أحد ما مؤهل كشخص مثالي من الناحية الأخلاقية، يجب عليه "أن يُقيّم وفقاً للمبادئ الأخلاقية أولاً".[12] فبالنسبة لكانط، إن الإستقلالية، أو القدرة البشرية على توجيه المرء لحياته وأفعاله وفقاً لمبادئ تقرير المصير، هي القيمة الأخلاقية الأكثر أهمية. وباستخدام المفهوم الكانطي للإستقلالية، سيمكننا الآن أن نقول بأن الشخص مثالي من الناحية الأخلاقية إذا كانت محاكاة أفعاله وسلوكه ستساعد الناس على تطوير القدرات والكفاءات اللازمة ليصبحوا بشراً مستقلين. وإذا كان ما قلناه حول نايت وينغ صحيحاً، فيمكن إذاً اعتبار باتمان شخصاً مثالياً من الناحية الأخلاقية حقاً.

الخروج من ظل الوطواط

لقد أظهر التطور الأخلاقي لديك غرايسون بأنه يمكن التوفيق بين أرسطو وكانط. حيث يمكن أن تكون الفضائل والقدرات التي نكتسبها عن طريق محاكاة أشخاص آخرين خطوة (وربما ضرورية) على الطريق لنصبح بشراً مستقلين قادرين على تحمل مسؤولية حياتنا.

وكما أشار كانط، فإن من السهل والمريح أن تكون في حالة من التبعية، أن تكون الشخص الذي حمّل مسؤولية حياته إلى الملوك والكهنة والآباء والأمهات. إذ ليس من السهل تحمل مسؤولية حياتنا الشخصية، وتعد القدرة على القيام بذلك إنجازاً، وليس شيئاً يمكن أن يحدث ببساطة. حيث يمكن للآخرين تقديم المساعدة والإرشاد لنا، ويمكن أن تلهمنا حياتهم وأفعالهم لتحسين أنفسنا، لنصبح الشخص الذي يجب أن نكون عليه. ولكن في مرحلة ما يجب أن نتوقف عن الاسترشاد بالآخرين؛ علينا أن نتوقف عن عيش حياتنا من خلال النماذج التي وضعت لنا من قبل أشخاص آخرين، والبدء في اتخاذ قراراتنا لأنفسنا حول ما يجب فعله، وكيف نتصرف، وأي نوع من الأشخاص يجب أن نكون عليه بأنفسنا نحن. بإمكان باتمان أن يلهمنا، ولكن في النهاية، ومثلما حدث مع ديك غرايسون، فأن علينا تولي مسؤولية حياتنا وأن نتخلى عن راحة العيش في ظل الوطواط.

هوامش الفصل التاسع عشر:

1- أرسطو، الأخلاق النيقوماخية، ترجمة وتحرير ج. أ. ك. ثومبسن (London: Penguin Classics 1976) الصفحات 103b2-5 تشير الأرقام إلى أرقام الصفحات الهامشية الموجودة في كل إصدارات هذا العمل.

2- المرجع السابق، الصفحات 1140a24 - 25.

3- لنقاش أكثر حول فكرة أرسطو عن الأخلاق التربوية، راجع مقالة ديفيد كايل جونسون وريان إندي رودس في الفصل التاسع من هذا الكتاب.

4- تيم درايك، روبن الثالث، هو حالة مختلفة إلى حد ما. كان تيم يملك عائلته الخاصة عندما أنضم لباتمان؛ أختار طواعية البحث عن باتمان ليصبح معاوناً له؛ ولم يتبناه بروس إلّا لاحقاً. أعتمد تيم على باتمان كأب له بدرجة أقل بكثير من تجسيدات روبن الأخرى، وربما يكون هذا هو سبب عدم خوفه من باتمان أبداً كما كان كل من ديك وجيسون.

5- بالمناسبة، كانت مشكلة المقتصين خارج إطار القانون مهمة أيضاً في بداية حياة باتمان المهنية. أظهر باتمان في قصصه المبكرة عدم أحترام أكبر للقانون مما كان عليه الأمر في وقت لاحق من حياته المهنية، حيث كانت سمة سرعان ما غيرها مؤلفوه. شاهد مناظرة ويل بروكر الثاقبة حول أصل أسطورة باتمان، الفصل الأول من باتمان من دون قناع: تحليل أيقونة ثقافية (London: Continuum International Publishing Group 2000).

6- إيمانويل كانط، أسس غيبيات الأخلاق، ترجمة ماري غريغور، في مجلد الفلسفة العملية لطبعة كامبريدج لأعمال إيمانويل كانط (Cambridge: Cambridge University Press 1999)، الصفحة 408. جميع الإشارات اللاحقة لكتابات كانط هي أرقام الصفحات القياسية الهامشية الموجودة في جميع الطبعات اللائقة لنصوصه.

7- المرجع السابق، الصفحات 446-447.

8- المرجع السابق، الصفحة 440.

9- المرجع السابق، الصفحات 433-441.

10- "ما هو التنوير؟" لكانط، ترجمة ماري غريغور، في مجلد الفلسفة العملية لطبعة

كامبريـدج لأعـمال إيمانويـل كانـط (Cambridge: Cambridge University Press 1999)، الصفحة 36.

11- "الأنثروبولوجيا مـن وجهـة نظـر براغماتيـة" لكانـط، ترجمـة روبـرت لـودن (Cambridge: Cambridge University Press 2006)، الصفحة 293.

12- أسس غيبيات الأخلاق لكانط، الصفحة 408.



20

طاوية الوطواط

البات - تزو (في مقابلة مع مارك د. وايت)

- السيد وطواط - تزو، شكراً لك على السماح لي بمقابلتك، خاصة أنك لم تتحدث لأحد سابقاً عن علاقتك الفريدة ببروس واين، والمعروف للبعض أيضاً بباتمان.

- على الرحب والسعة. إن كانت كلماتي المتواضعة هنا ستنتهي في تقديم الفائدة لأي كان، فأنا سعيد لقيامي بذلك. ونعم، كما قلت، فإنني أعرف بروس مذ كان طفلاً صغيراً. فقد كنت صديقاً لعائلته، ولوالده تحديداً كما تعلم. كان الدكتور واين رجلاً صالحاً، ودائماً ما أفكر فيه هو وزوجته، وصغيرهما بروس بالطبع.

لقد حاولت أن أكون صديقاً لبروس منذ وفاة والديه المبكرة. لقد حاولت إرشاده لطريق أكثر إنسجاماً، ولكنه قد أختار طريقاً مختلفاً، وهو ما دعاه بـ«طريق الوطواط».[1] وعلى الرغم من أنني لم أكن موافقاً على توجهه ذاك، لكنني حاولت تقديم المشورة له قدر المستطاع.

- لماذا لم تكن موافقاً على خياره هذا؟

- لا تسيء فهمي أرجوك، فهو يمتلك قدراً غير محدود من الخير بصفته باتمان. ولكن حياته كباتمان هي حياة خالية من توازن، والتوازن ضروري لكل الأشياء، وللبشر خصوصاً. وأهمية التوازن هي واحدة من التقنيات المركزية لأساتذة الطاوية، مثل لاو - تزو وتشوانغ - تزو، وقد كانوا بمثابة أساتذة لي من خلال ما كتبوا، كما أنا بالنسبة لبروس.[2]

- أساتذة الطاوية؟

- نعم، الطاوية فلسفة شرقية قديمة، يرجع زمنها لزمن لاو - تزو، وهي تركز على التدفق الطبيعي للكون. يسمي الصينيون هذا طاو، أو «الطريق»، لعدم توفر إسم أفضل لها. في الحقيقة يقول لاو - تزو بأن الطريق هو ما لا يمكن تسميته.[3] ويحاول الطاويون مناغمة أنفسهم مع الطريق من خلال موازنة القوى المتضادة ضمن ذواتهم، كالضوء والظلام، الأنوثة والذكورة، النعومة والشدّة، وهو ما يطلق عليه الطاويون اسم الين واليانغ.

- هل هو ذلك الرمز الدائري الأبيض والأسود الشهير؟

- صحيح، حيث يمثل الرمز التوازن بين القوى المتضادة والتي تحدد كل شيء في العالم الذي نعيش فيه. إذ تمثل اليانغ (النصف الأبيض من الدائرة) الذكورة، والشدّة، والقساوة، بينما تمثل الين (النصف الأسود من الدائرة) الأنوثة والرقة والحنان. والطريقة التي يظهر بها كلا النصفين كأفاعٍ يطارد أحدهما ذيل الآخر تبين أن كلا النصفين يتدفق نحو الآخر ويحدد الآخر في نهاية المطاف. وهذا مُبين أيضاً في النقطة البيضاء وسط النصف الأسود والنقطة السوداء وسط النصف الأبيض، حيث يخبرنا ذلك بأن أصول كل جزء تقبع ضمن الجزء الآخر.

ومنذ ذلك اليوم المشؤوم، أخشى أن يكون بروس قد سمح لجانب اليانغ خاصته بأن يهيمن عليه، مؤمناً بأن من الضروري تخليص مدينته

الحبيبة غوثام من المجرمين المنتشرين فيها، متناسياً بأن عليه أن يستمر باحتضان جانب الين فيه.

- هل يعني هذا بأنه يمتلك الين؟

- نعم، فكل شخص يمتلك هذا الجانب، وهو لا يمثل إستثناءاً، فبإمكانك أن ترى ذلك الجانب منه في أقل لحظات حياته توتراً، خصوصاً عندما يكون برفقة ديك وتيم. . .

- تقصد بذلك كل من روبن الأول وروبن الحالي؟

- صحيح، إذ كان بروس صارماً ومتطلباً جداً معهما، وذلك وفقاً لجانب اليانغ فيه، ولكن كانت لديه لحظات رقيقة معهما أيضاً (رغم ندرتها).

- ألم يقم مؤخراً بنوع من (السعي الروحي) مع ديك وتيم؟ هل تعتقد بأن ذلك يظهر سعياً ما لتحقيق التوازن؟

- نعم، في العام الذي قضاه مسافراً حول العالم بعد تلك الفوضى الرهيبة مع ليكس لوثر وبرذر آي، عندما كاد ديك أن يُقتل.[4] أعتقد بأنه أدرك حينها بأن جانب اليانغ فيه قد هيمن لمدة طويلة، وقد أصبح عنيفاً وبارداً ومصاباً بجنون العظمة، حتى بالنسبة لشخصيته كبروس. لقد كتب لاو تزو بأن: «الحكماء ينبذون من أنفسهم التطرف، والعنف، والغطرسة».[5] وأنا أعتقد بأن ذلك هو ما بدأ بفعله. حيث أنني كنت قد بدأت أرى تغيراً في شخصيته بعد عودته مباشرة بالفعل، حيث قرر بعد فترة وجيزة من عودته تبني تيم. وقد أظهر هذا النوع من الحنان لإبنة سلينا كايل الجميلة، هيلينا، وقد سمعت بأنه قد قام بإهدائها دبدوباً وهو يرتدي زي باتمان!.

وكان قد سامح الساحرة حتى، تلك التي كان أسمها. . .

- أتعني زاتانا؟ قارئة العقول؟

- نعم، زاتانا، تلك الفتاة اللطيفة، على الرغم من كونها عصية على

الفهم في أغلب الأحيان.

- ها!

- حتى أنا كنت متفاجئاً عند سماعي بذلك، فقد أعتقدت بأن بروس لن يسامحها أبداً بعد إنتهاكها لعقله كما فعلت.[7] ولكن كما ترى، فجانب الين الدافئ والرقيق فيه قد تقبّل عيوب الآخرين وقد بدأ بالتجلي أكثر منذ عودته. إنه لا يزال بحاجة لجانب اليانغ فيه بالطبع، ليس لأجل أن يكون باتمان فقط، ولكن لأجل أن يكون شخصاً كاملاً، في تناغم مع العالم والطاو. فكل شخص فينا بحاجة إلى ذلك التوازن بين الشدّة والرقّة، بين الذكورة والإنوثة.

- لماذا فعل باتمان ذلك؟ إذ أن أحد سماته الرئيسية هي تفانيه وعزمه في محاربة الجريمة.

- ولكن شخصاً من دون توازن لا يملك إنسجاماً، «حيث أن معرفة الإنسجام تدعى بالثبات، ومعرفة الثبات تدعى بالوضوح».[8] فالعديد من معلمي بروس كانوا قد علموه هذا، ولست أنا فقط.[9] حيث يتم تعريف العالم من خلال ثنائية القوى المتعارضة التي يجب أن تكون متوازنة لكي تكون فعالة، وهذا هو معنى أختلاط الأبيض والأسود في رمز الين واليانغ. كتب لاو تزو: «إن الوجود والعدم ينتج أحدهما الآخر: فالصعوبة والسهولة يكمل أحدهما الآخر، الطول والقصر يشكّل أحدهما الآخر، الإرتفاع والإنخفاض يتباينان مع بعضهما البعض، الصوت والصدى يؤكد أحدهما الآخر، الماضي والمستقبل يسيران قدماً جنباً لجنب مع بعضهما البعض». 10 إذ أن من دون ما هو مثير للإشمئزاز، لن نميز الجميل؛ ومن دون الظلام، ما كان ليكون ضوءاً. نحن بحاجة لما هو سيء لتمييز ما هو جيد، كيف كنّا سنعلم ما هو جيد من دون ذلك؟.

- أنظر لـبروس كمثال، فهو مُعرّف من خـلال العديد من الثنائيات. فهـو يعيش علناً في قصر واين الفخم والفسـيح، ولكنه يقضي معظم وقته في كهـف مظلـم وكئيب، مغطى بفضلات الخفافيش (أشـياء مقرفـة). إنه أحد أغنى الأشـخاص في العالم، أحد قادة الصناعة، ولكنه ينفق الكثير من ثروته في القضايـا الخيرية، بالإضافة لتمويله لأنشـطته المضـادة للجريمة. لقد كان بإمكانه أن يعيش حياة مليئة بالرفاهية بكل سـهولة، لكن بدلاً من ذلك فقد كرس نفسـه لأداء مهـمات يعرف أنه لن ينال التقدير عليهـا، محارباً الجريمة، ومكافحـاً الإرهاق والإصابة التي كانت ستسـقط أي شـخص آخر مكانه. إنـه أحد أذكـى وأكثر البشر تعلـماً في العالم، فضلاً عن كونـه نموذجاً للكمال الجسـدي، رغم ذلك فهو لا يتفاخر بتلك الميـزات التي يملكها، ولكن بدلاً من ذلك فهو يستخدم قدراته تلك لصالح البشرية، غير مطالب للفضل عن إنجازاته..

فكـر بهـذا، صديقـي، إذ بالرغـم مـن كل قواه الجسـدية، وزيـه المظلم والمخيـف، وحجمه وحضـوره الهائل، فإن أكثر سـمات باتمـان ترهيباً هو ما ليـس له وجـود حتى، ظله! فكما كتب لاو - تزو: «يسـتخدم الوعاء حين لا يوجد شيء. عندما نفتح أبوابا ونوافذ غرفة ما، فذلك عندما لا يكون هنالك شيء مـادي ثمين في تلـك الغرفة». 11 يمكن أن يكون الـلا شيء أكثر أهمية مـن المادة، حيث يسـتخدمها بروس «لزرع الخـوف في قلوب المجرمين»، كما يحب أن يقول هو.

الآن مـا الـذي كنـت أقولـه، أوه حسـناً، إن بإمكانـه أن يكـون أحادي التوجـه كـما تقول. فلو كنت أملك قرشـاً مقابل كل مرة طلبـت فيها منه أن يأخذ إجازة ويسـتمتع بصحبة إحدى النسـاء الجميـلات والذكيات اللواتي إلتقاهـن عـلى مدى أعـوام، فكنت لأسـتطيع تذويب تلك القروش لسـبك عملـة شـديدة الضخامة، كتلـك الإسـطوانة الموجودة في كهـف الوطواط.

ولكنـه لم يكن ليقوم بذلك إلّا عندماً يخدم فعلـه هذا الصالح العام في محاربة الجريمة، أي رجل سخيف هو!.

(ضحـك) عملـة عملاقة، نعـم، إن ذلك يذكرني بقصة. هـل تعلم بأن في أحد المرات كان بروس شـديد الوحدة فطلب مـن زميله أكوامان - ليس هـذا الشـاب الجديد، بل ذلك الموجود في النسـخة القديمة لفرقـة العدالة - أن يسـاعده في إسـترجاع إحدى قطع المتحف الرهيبة والتي سـقطت في شق أرضي بعـد أن ضرب زلـزال مدينـة غوثـام؟ لم يكن يجرأ عـلى أن يطلب من زميلـه هـذا الحضور للقائه، ولكنـه قام بإغرائه للحضور مسـتخدماً حيلة ما بدلاً من ذلك. إنه رجل لا يطاق، خائف جداً من إظهار مشاعره، والإعتراف بحاجته، حتى مع أولئك المقربين منه. [12]

- هل ورث كلٌ من ديك وتيم عدم إتزان بروس؟

- أوه، إنهما لم يرثا ذلك لحسن الحظ. خذ ديك على سبيل المثال، فعلى الرغم من كل بحثه الروحي، فهو رجل شاب يحافظ على الين واليانغ خاصته في حالة من التوازن. منذ أن كان طفلاً صغيراً، حديث العهد برعايتنا له. . .

- هل كنت مشتركاً في تربية ديك؟

- ماذا؟ لا. .بالطبع لا، على الرغم من أنني كنت قد رأيته مرات قليلة أثنـاء زيارتـه لبروس على مـدى أعوام. ومثلـما كنت أقول، فعـلى الرغم من صدمته بالوفاة المبكرة والعنيفة لوالديه، مثلما حدث مع بروس، فإن ديك قد نجح في الحفاظ على لطافته الأصيلة، ضوء ليوازن به الظلام.

- عليـه ذلـك، إذ لم يكـن مـن الممكن له أن يكـون متجهـماً تماماً وهو يرتدي ملابس داخلية خضراء ضيقة وأحذية تشبه أحذية الجنيات!.

- أوه! لا تذكرني بذلك . . . (ضحك) آسف، لقد قمت بتشتيتي مرة أخرى، توقف عن ذلك.

أتعلم، سمعت بأن ديك بشخصيته البالغة المعروفة بنايت وينغ، يمثل الجانب الأنثوي لباتمان، وتلك هي وجهة نظري فيه بالضبط. إنه يهتم بأصدقائه حقاً، ليس بالطريقة التي يهتم بها بروس من منطلق المسؤولية، ولكنه يهتم بهم ولهم بحق. تأمل فقط فترة عمله مع الغرباء مؤخراً، والتي كان من المفترض أن تكون مجموعة عمل مكونة أبطالا خارقين، عوضاً عمّا يشبه العائلة، كالتايتنز، وهم حلفائه السابقين. ولكنه أكتشف بأنه لا يستطيع فعلها، أكتشف استحالة أن لا يهتم بزملائه، والذين أصبحوا أصدقاءه حقاً، ولم يعد بإمكانه تحمل قيادتهم نحو المخاطر. وبالطبع، لمن قام بتسليم قيادة هذه المجموعة؟ سلمها لبروس بالطبع، والذي كان سعيداً جداً بتجميع عصبة من الأبطال مستعدين لإتباعه حتى لنيران الجحيم.[13]

- ماذا عن تيم، روبن الحالي؟

- أوه، تيم هو من أخشاه. فلقد خسر الكثير جداً منذ أن بدأ مشواره المهني في محاربة الجريمة جنباً الى جنب مع بروس، فقد خسر والدته في وقت مبكر من ذلك، ثم خسر والده في وقت لاحق، وحبيبته ستيفاني براون، والتي كانت تحارب الجريمة إلى جانبه بصفتها The Spoiler سبويلر (وكروبن خلال الوقت القصير الذي كان باتمان "متقاعداً" فيه) وإثنين من أعز أصدقائه وهما كونر كينت وبارت آلين.[14] وجميعهم كانوا قد ماتوا على أيدي المجرمين مثلما حصل لوالدي بروس. لو كان لأي أحد الحق في أن يغرق وسط اليأس ويفقد رقته وطبيعته الحنونة لصالح جانبه الشديد والمنتقم فهو تيم. في الحقيقة لقد أخبرني مرة أنه عندما توفيت والدته ورقد والده في المستشفى مشلولاً، فقد بدأ "يميل إلى جانبه المظلم"، وشعر بـ"أن شياطين الليل بدأت تزحف ساحبة إياي إلى الجحيم الأبدي".[15]

ولكني أعتقد بأن تيم في النهاية، قد شعر بدنو هذا الخطر؛ إذ أنه شاب شديد الإدراك لذاته. وكما كتب لاو - تزو: "أولئك الذين يعرفون الآخرين

هــم حكــماء؛ أمّا أولئك الذين يعرفون أنفســهم فهم متنــورون". [16] لقد رأى ما فعلت الخسارة لبروس، كما تعلم، عندما جاء تيم إلينا في بداية الأمر. . .

- «إلينا»؟

- آسف، لقد فعلت ذلك مرة أخرى، كنت أقصد عندما جاء لبروس، بعد إكتشافه هويته السرية، حيث قال بأن باتمان بحاجة إلى روبن، وبأن باتمان قد غرق كثيراً داخل نفســه بعد وفاة روبن الثاني، جيســون تود. حيث أصبح شــديد القسوة والغضب، ســامحاً مرة أخرى لليان خاصته بالهيمنة على الين. أنا أعتقد بأن روبن كان يمثل الين لليانغ الخاص بباتمان بطريقة ما دائماً، يمثل الضوء لموازنة ظلامه.

- أنا أعتقد ذلك أيضاً. كما أنني لم أدرك أبداً الدور الذي لعبه الموت في الدائرة الداخلية لباتمان، بمن فيها ديك. . .

- لقد تحمل ديك حصته من الخسارة بالتأكيد، بدءاً من والديه بالتأكيد وانتهــاء بالمدينة التي تم تبنيه فيها، بلودافن، ومن ضمنها أصدقاؤه المقربون. ولكنه كان يفهم طبيعة الموت على أغلب الظن، وكنا نأمل في أنه قد كان قادراً على مساعدة تيم. (وربما بروس حتى).

- ما الذي تعنيه بـ»طبيعة الموت»؟.

- المــوت هو جــزء فقط من حلقــة طبيعية ويجب أن يتــم قبوله كجزء مــن الطريق الذي نتخذه جميعاً. كتب تشــوانغ - تزو بشــكل جيد حول هذا الموضــوع قائــلاً: «إن كنــت بســلام في زمنك وتعيش بإنســجام، فــإن الحزن والسعادة لن تؤثر عليك». [17] وقد تساءل عن تفضيل الحياة على الموت حيث كتب: «كيف لي أن أعلم بأن رغبتي في الحياة ليســت وهماً؟ كيف لي أن أعلم بأن النفور من الموت لا يشــبه ســوى متشرد لا يعلم طريق العودة؟. . .كيف لي أن أعلم بأن الموتى ليسوا نادمين على شوقهم للحياة من البداية؟». [18]

- أعتقد بأن قيام جيسون تود من الموت مثال جيد على ذلك، أليس كذلك؟

- نعم، فمن الذي يقول بأنه قد أصبح الآن أكثر سعادة مما كان عليه في حالته السابقة وهو ميت؟.

أوه، جيسون المسكين، لقد كان شديد الغضب والتوحش، وغير قابل للتحكم، كان سيصبح كل شيء بإمكان بروس أن يصبحه لو كان بإستطاعته الحفاظ على غضبه وثورته. كتب لاو - تزو: «عندما تصل الكائنات إلى ذروة قوتها، فهي تتلاشى؛ وهذا يسمى بغير الموجه. ومن هو غير موجه، يموت مبكراً».[19] كان جيسون بحاجة لتعلم التحكم بنفسه؛ وقد حاولنا جميعاً تعليمه ذلك. وللأسف، فلم يبدو بأن عودته قد علمته الكثير عن هذا الأمر. كتب تشوانغ - تزو بأن «كمال الفضيلة هو في أن تهتم بعقلك بطريقة لا يمكن للمشاعر فيها أن تؤثر عليه عندما تكون على علم بالفعل بأن لا شيء سيؤثر عليه أساساً، وتكون بسلام مع نفسك حول ما كتبه لك القدر».[20] لكن قدره غير واضح، سننتظر ونرى ما يحدث، وليس باستطاعتي سوى التمني بأن يتمكن من قبول ما لا يستطيع تغييره، وعلى بروس أن يتعلم ذلك أيضاً بكل تأكيد.

- إننا لا نستطيع مناقشة تود دون تناول قاتله الجوكر، بالطبع.

- الجوكر. حسناً، أعتقد بأنه كلما تحدثنا عنه أقل كلما كان ذلك أفضل. فأنا متأكد بأن لدى الآخرين أكثر بكثير ليقولوه عنه مما لدي أنا.[21] ولكن من المثير للاهتمام بشكل كافٍ أنني أتذكر ما قاله بروس مرة بأن ديك قد قال له: «الجوكر موجود بسببي أنا. كيف لي أن أفرض النظام والذي هو مهم للحياة في غوثام في الوقت الذي يكون فيه الجوكر هو الفوضى التي تقوض هذا النظام؟».[22] وهذا هو مثال آخر حول كيف يساند هذان الشريكان أحدهما الآخر. (وحكمة ديك الناشئة، كما أجرؤ على القول).

- لقد لاحظت بأنك لم تذكر آلفريد إلى الآن.

- أوه، ألم أفعل؟ حسناً، لا يوجد الكثير لقوله عن السيد بينيورث كما أفترض، عدا كونه خادماً وفياً، وناصحا موثوقا، عدا كونه مثالاً للتواضع. إذ «يعتني الحكماء بأنفسهم، لكنهم لا يمجدونها».[23]

- إنه شبيه بك إلى حد ما أيها المعلم..

- أوه، أعتقد بأن ذلك صحيح. في الحقيقة فإنني دائماً ما أعتبرت آلفريد مثالاً للرجل الحكيم، أو رجاحة العقل في الفكر الطاوي. فقد كتب لاو - تزو بعد كل شيء بأن "يقوم الحكماء بخدمات لا تتطلب جهداً ويقدمون إرشادات من دون الحاجة للكلام".[24] وهذا ينطبق جداً على آلفريد، كما أعتقد. وبالطبع، فقد قام بتحجيم بروس بمكانته الحقيقية في مناسبات كثيرة، كما أستطيع أن أقول.

- بالفعل.

- عفواً؟

- عذراً، لقد علق شيء في حنجرتي فقط.

- هل ترغب أن آتي لك ببعض الماء؟

- شكراً لك، لا داعي لذلك.

- الآن وبعد أن فكرت في الأمر أكثر، يبدو لي أن آلفريد يجسد مفهوماً مهماً جداً للطاو، وهو مفهوم wei-wu-wei، أو "الفعل من دون الفعل".

حيث كتب لاو - تزو: "أفعل اللافعل، وكافح من أجل أن لا تكافح".[25] إذ يعرف الرجل الحكيم متى عليه أن لا يفعل شيئاً، وهو بذلك يفعل شيئاً. حيث يقدم آلفريد مساعدة لا تقدر بثمن لباتمان، من خلال رؤية ملاحظة لم يرها بروس، أو احتمالية لم يتخيلها، أو رؤية قيّمة كانت قد فاتته. فعقل آلفريد منفتح، لذا فهو يرى كل شيء في ذات الوقت. وقد

روى تشوانغ – تزو قصة جزار ماهر جداً، لدرجة أنه لم يشحذ شفرته مطلقاً منذ تسعة عشر عاماً. وقال الجزار بأنه عندما يُقطّع ثوراً، "تكون للمفاصل مسافات بين بعضها البعض، في حين أن نصل الساطور يكون غير حاد. وعندما يتم وضع ما هو حاد في ذلك الذي يحوي على مسافات بينية، سيكون هناك مجال واسع لتحريك النصل".[26] إن آلفريد هو مثل هذا الجزار، فهو قادر على رؤية ما هو موجود، وكذلك ما هو غير موجود، والذي غالباً ما يكون أكثر أهمية.

"لا يقوم الحكماء بأفعال عظيمة؛ وهذا ما يمكّنهم من تحقيق عظمتهم".[27] آلفريد ليس باتمان، ولكن لم يكن بروس ليكون باتمان لولاه. وقد كتب تشوانغ – تزو: "يوافق الحكماء بين الصواب والخطأ، تاركين الآخرين في توازن طبيعي".[28] وعلى آلفريد أن يوافق بين الصواب والخطأ لدى بروس، مراقباً صحته وآلامه، سعادته وحزنه، هدوءه وغضبه، ومحاولاً موافقتها مع التوازن الطبيعي للأشياء، مع الطاو.

إنها مهمة شديدة الصعوبة للقيام بها، ولكن هذا هو طريق آلفريد، وقد اختار السير به، وليس ضده. إنه يذكرني بما كتبه لاو – تزو عن المياه إذ قال: "لا يوجد شيء في العالم أكثر مرونة وليناً من الماء. ومع ذلك، فعندما يهاجم القساة والأقوياء، فلا يمكن أن يصمد أمامه أي شيء، لأنهم لا يملكون طريقة لتغييره. إذ أن المرونة تتغلب على الصلابة، ويتغلب اللين على القوة".[29] فالمياه تنساب خلال أصابعك بلطف، ولكن مع مرور الوقت فبإمكانها نحت الجبال. إنها صبورة، مثلها مثل آلفريد، وهو درس آخر يمكن أن يتعلمه بروس منه. وكما تعلمون، فإن العديد من فنون الدفاع عن النفس التي اتقنها بروس على مر السنين تستند إلى مبادئ الطاوية الأساسية كالمرونة واللين، فهي مثلاً تعلم الفرد استخدام حجم الخصم وطاقته ضده. ولكن هل أخذ بروس تلك الدروس إلى جوهر الجوانب الأخرى من حياته؟!.

كـما تعلم، فقد كتـب لاو - تزو: "أنا أمتلك ثلاثة كنوز وأحافظ عليها؛ الأول هو الرحمة، والثاني هو الزهد، والثالث هو ألّا أكون متغطرسـاً لدرجة الهـوس بالسـلطة المطلقـة".[30] وأنا أتخيل آلفريـد وهو يقول ذلك عن نفسـه أيضاً.

- هذا يشبه تقريباً ما فعله بالضبط. . .

- عفواً؟

- لا تعر اهتماماً لذلك. . .

- هل لديك شيء آخر لتقوله أيها الشاب؟.

- لا يا سيدي، أنا فقط مبهور من الحماسة التي تكلمت بها عن آلفريد، خصوصاً وأنك قد قلت قبل دقائق قليلة بأنك «لا تملك الكثير لتتحدث فيه عنه».

- (صمت)

- حسناً، شكراً جزيلاً لك سيدي، لقد كان نقاشاً تنويرياً جداً.

- عـلى الرحب والسـعة يا عزيـزي. والآن لو تسـمح لي فلدي بعض أعمال التنظيف لأقوم بها.

هوامش الفصل العشرون:

1- قصة Shadow of the Bat الإضافة السنوية #3.

2- التفاصيل الدقيقة لحياة لاو تزو وتشوانغ تزو، بما في ذلك هوياتهم الحقيقية (هل تبدو مألوفة؟)، هي لغز. يعتقد على نطاق واسع بأن الداوديجنغ قد تم تجميعه من مصادر مختلفة في حدود العام 500 قبل الميلاد، وتعود كتابات تشوانغ تزو الرئيسية لحوالي العام 300 قبل الميلاد.

3- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل الأول، الصفحات 25-32. كل الأسئلة من هذه التحفة قد تُرجمت من قبل توماس كليري ويمكن إيجادها في كلاسيكيات الطاوية المجلد الأول (Boston: Shambhala Publications 1994)، الصفحات 12-47.

4- أقرأ العدد #7 من Infinite Crisis (يونيو 2006)؛ حدثت الرحلات السنوية خلال السلسلة 52 (2006-2007)، ولكن تم عرضها بشكل صريح في أحيان قليلة فقط.

5- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل 29.

6- العدد #53 من Catwoman (مارس 2006)، أعيد طبعها في: Catwoman: The Replacements (2007).

7- تم الكشف عن مسح الذاكرة في فلاش باك في Identity Crisis (2005)؛ سامحها بروس في العدد #834 من Detective Comics (سبتمبر 2007).

8- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل 55.

9- "في تعاليمه لديه العديد من الأساتذة، كل منهم بفلسفته الخاصة. يتفق أساتذتي على نقطة واحدة فقط: لتكون محارباً عليك أن تحقق التوازن." (باتمان، في العدد #8 Batman Confidential، أوكتوبر 2007).

10- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل 2.

11- المرجع السابق، الفصل 11.

12- يخسر القرش العملاق في Catalysm (1998)؛ حلقة آكوامان الموجودة في العدد #18 من Gotham Knight (أغسطس 2001).

13- أقرأ العدد #49 من Outsiders (سبتمبر 2007).

14- تتوفى والدة تيم في "طقوس المرور" (الأعداد #618-621 من Detectice Comics، العام 1990)؛ ووالده في Identity Crisis عام 2005؛ ستيفاني في العدد #633 من Batman (ديسمبر 2004)، والتي أعيدت طباعتها في War Games Act Three عام 2005؛ كونر في Infinite Crisis عام 2006؛ وبارت في The Flash: The Fastest Man Alive العدد #13 (يونيو 2007).

15- العدد #621 من Detective Comics (سبتمبر 1990)؛ راجع أيضاً الصفحات الثلاث الأخيرة من العدد #167 من Robin (ديسمبر 2007) فيما يتعلق بوفاة والد تيم.

16- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل 33.

17- تشوانغ تزو، تشوانغ تزو، الفصل 3، الصفحة 68، توجد "الفصول الداخلية" لتشوانغ تزو ضمن كلاسيكيات الطاوية، المجلد الأول، الصفحات 51-100، حيث الترجمات التي أقتبست منها، تُرجمت مرة أخرى من قبل ثوماس كليري. هذه الفصول هي الأكثر شهرة والوحيدة التي تُنسب إلى الأستاذ ذاته. يمكن العثور على تشوانغ تزو الكامل، المتضمن للتعليقات التي وضعها باحثون آخرون، في نصوص من الطاوية، المجلد الأول والثاني (Mineola NY: Dover 1962).

18- تشوانغ تزو، تشوانغ تزو، الفصل 2، الصفحة 64.

19- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل 35.

20- تشوانغ تزو، تشوانغ تزو، الفصل 4، الصفحة 73.

21- في الواقع، أقرأ مقالات روبيتشاود ودونوفان وريتشاردسون ضمن هذا الكتاب.

22- العدد #614 من Batman (يونيو 2003)، المضمّن في Hush المجلد الثاني (2003).

23- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل 72.

24- المرجع السابق، الفصل 2.

25- المرجع السابق، الفصل 63.

26- تشوانغ تزو، الفصل الثالث، الصفحات 66-67.

27- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل 63.

28- تشوانغ تزو، الفصل الثاني، الصفحة 60.

29- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل 78.

30- المرجع السابق، الفصل 67.

المساهمون

ماهيش أناناذ: أستاذ مساعد في قسم الفلسفة لجامعة ساوث بيند، أنديانا. مجال دراسته وتدريسه الرئيسي يتضمن الفلسفة الإغريقية القديمة، والأخلاقيات الطبية، وفلسفة البايولوجيا، وفلسفة العقل. وهو مؤلف كتاب «دفاعاً عن المفهوم التطوري للصحة: الطبيعة، المعايير، والبايولوجيا البشرية» (أغسطس 2008) و»قراءة سبوك للأدمغة: مقدمة عن فلسفة العقل»، في ستار تريك والفلسفة (جلسة علنية 2008). يأمل ماهيش سراً أن يكون باتمان بعد تقاعد بروس واين، ولكنه يعلم بأن ذلك لا يمثل سوى أمنية فقط نظراً لشخصيته الحالية والمتطلبات الجسدية لذلك الزي الضيق اللعين!.

سام كولينغ: طالب دكتوراه في قسم الفلسفة لجامعة ماساشوستس، أمهرست. عندما لم يكن يكتب رسالته في الدكتوراه في الميتافيزيقيا ونظرية المعرفة، فإنه كان يقضي وقته بلهفة منتظراً صدور كتاب باتمان والفلسفة.

جيمس ديجيوفانا: أستاذ مساعد في الفلسفة في كلية جون جاي للعدالة الجنائية/ جامعة ولاية نيويورك وناقد سينمائي حائز على جوائز من صحيفة توكسون الأسبوعية. وقد كتب عن جماليات العوالم الخيالية، وأخلاقيات

تقنيـة زرع الأعصـاب، وإمكانيات خلق الـذات في الفضاء الافتراضي. وقد نـشر أيضًا عددًا مـن القصص القصـيرة، وكان مخرجًا وكاتباً مشـاركاً لفيلم روائي طويل بعنوان «Forked World".

بين ديكسـون: حاصل على كرسي وليام ليـون في الأخلاقيات المهنية في أكاديميـة القوة الجوية الأمريكية. درّس سـابقاً في جامعـة ماريلاند، مقاطعة بالتيمور. نشر الأستاذ ديكسون مقالات حول موضوعات التقدم الأخلاقي وفكرة الكرامة الإنسانية.

سارة ك. دونوفان: أستاذ مساعد في قسم الفلسفة والدراسات الدينية في كلية فاغنر. تشمل اهتماماتها التعليمية والبحثية الفلسفة النسوية والاجتماعية والأخلاقية والقارية.

كريسـتوفر م. دروهـان: حاصـل عـلى الدكتـوراه في فلسـفة الإعـلام والاتصـال في مايـو 2007 مـن كلية الدراسـات العليا الأوروبية، سـاس- فيي، سـويسرا. يشـغل الدكتور دروهان حاليًا منصب المدير المساعد للشعبة الكنديـة في كلية الدراسـات العليا الأوروبية، بالإضافـة إلى أنه يعمل أحيانًا كأسـتاذ مساعد في المدرسة. كاتب نشط ومحرر، وقد نشر العديد من الأعمال الدراسية في الفلسفة، وعلم السيميائية، والنظرية الثقافية.

غالين فوريسـمان: محاضر في قسم الفلسـفة في جامعة نورث كارولينا في غرينزبورو. يدرس دورات في المشـاكل الأخلاقيـة المعاصرة، وعلم الجمال، والمنطق.

ديفيد م. هارت: طالب دراسـات عليا في قسـم الفلسـفة بجامعة ديبول في شـيكاغو. يركـز بحثه عـلى التقاطعـات بـين الفينومينولوجيـا والأخلاق والسياسـة، خاصة تلك التي تحدث في فكر مارتن هايدغر وإيمانويل ليفيناس وجان بول سارتر.

جيسون ج. هوارد: أستاذ مساعد في الفلسفة في جامعة فيتربو، يتخصص في الفلسـفة والأخلاقيات الأوروبية في القرن التاسـع عـشر والعشرين. وقد نشر مقالات في مجالات علم النفس الأخلاقي، والفلسفة للأطفال، والفلسفة الاجتماعية/ السياسية.

راندل م. جينسـن: أسـتاذ مساعد في الفلسـفة في كلية نورث ويسترن في أورانج سـيتي، أيوا. تشـمل اهتماماته الفلسـفية الأخلاق والفلسفة اليونانية القديمة وفلسـفة الدين. وقد سـاهم مؤخراً في فصول من كتب ساوث بارك والفلسفة، 24 والفلسفة، باتل ستار غالاكتيكا والفلسفة، وأوفس والفلسفة.

ديفيد كايل جونسون: يعمل حاليًا أستاذًا مساعدًا للفلسفة في كلية الملك في ويلكز باري، بنسـلفانيا. تشمل تخصصاته الفلسـفية فلسفة الدين والمنطق والميتافيزيقيـا. وقـد كتب أيضًا فصولًا عن سـاوث بـارك وفاميلي غاي وذخ أوفس وباتل ستار غالاكتيكا وكونتين تارنتينو وجوني كاش وسيقوم بتحرير كتـاب سلسـلة فلسـفة بلاكويل والثقافـة الشـعبية القادمة عـن الأبطال. قام بتدريس العديد من الفصول التي تركز على أهمية الفلسفة في الثقافة الشعبية، بما في ذلك دورة مخصصة عن ساوث بارك.

ستيفن كريشنر: أستاذ في قسم الفلسفة في جامعة ولاية نيويورك في كلية فريدونيـا. وقد كتب كتابين: الصحراء، القصاص، والتعذيب (University Press of America 2001)، والعدالـة مـن أجـل المـاضي (SUNY Press 2004)، وعددا من المقالات حول الجنس والعنف والعنصرية.

دانيال ب. مالوي: أسـتاذ مسـاعد في الفلسفة في جامعة ولاية أبالاشيان في بون، نورث كارولينا. يركز بحثه على نظرية القرن العشرين النقدية (خاصة نظريـة هربرت ماركـوز) وتطبيقها عـلى القضايا المعاصرة مثـل التكنولوجيا الحيوية والإرهاب.

كارستين فوغ نيلسون: طالب دكتوراه في معهد الفلسفة وتاريخ الأفكار في جامعة آرهوس، الدنمارك. اهتماماته الرئيسية هي فلسفة إيمانويل كانط، والفلسفة الأخلاقية، وفلسفة الثقافة الشعبية، وقد نشر مقالات باللغة الدنماركية حول كل هذه المواضيع.

رون نوفي: يُدرس دورات في الأخلاق والميتافيزيقيا وفلسفة العقل في قسم الفلسفة والدين بجامعة سنترال أركنساس.

بريت تشاندلر باترسون: يُدرس اللاهوت والأخلاق في جامعة أندرسون في ساوث كارولينا. وقد كتب مقالات تحلل المسؤولية الأخلاقية في عالم سبايدرمان، والمنطق النفعي في 24، وصور الخلاص في لوست (التي نشرتها أيضا بلاكويل). بحثه الحالي يحلل خيال لويس، تولكين، وولف، وكارد.

كريس راغ: طالب دكتوراه في قسم الفلسفة في جامعة ماساتشوستس - أمهرست.

ريان إندي روديس: محاضر زائر في جامعة ستيفن أوستن الحكومية في ناكوغدوتشس، تكساس، بينما يكمل أطروحته في جامعة أوكلاهوما. تشمل اهتماماته البحثية الأخلاقيات ورموز المحارب والشرف.

نيكولاس ريتشاردسون: أستاذ مساعد في قسم العلوم الفيزيائية في كلية فاغنر في مدينة نيويورك، حيث يُدرس الكيمياء العامة واللاعضوية والطبية المتقدمة.

كريستوفر روبيتشاود: مدرس للسياسة العامة في كلية جون إف كينيدي للعلوم الحكومية بجامعة هارفارد. ينهي حاليًا شهادة الدكتوراه في الفلسفة في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا.

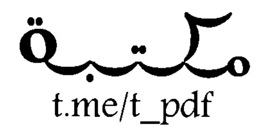
جيسون ساوثورث: يكمل حاليًا درجة الدكتوراه في الفلسفة في جامعة

أوكلاهوما، نورمان، أوكلاهوما، وهو أيضًا مدرس مساعد في جامعة ولاية فورت هايز، هايز، كانساس.

توني سباناكوس: أستاذ مساعد في العلوم السياسية والقانون بجامعة ولاية كلير وأستاذ مساعد في السياسة بجامعة نيويورك. وقد كتب العديد من المقالات وفصول الكتب حول الاقتصاد السياسي والديمقراطية والمواطنة في أمريكا اللاتينية، وألف كتابًا بعنوان «إصلاح البرازيل» (Lexington Books 2004). كان أستاذا زائراً في برنامج فولبرايت في جامعة برازيليا (2002)، وهو حاليا أستاذ زائر في برنامج فولبرايت بمعهد دراسات السياسات المتقدمة في كاراكاس، فنزويلا.

مارك د. وايت: أستاذ مساعد في قسم العلوم السياسية والاقتصاد والفلسفة في كلية جزيرة ستاتن / جامعة ولاية نيويورك، حيث يُدرس دورات دراسية تجمع بين الاقتصاد والفلسفة والقانون. وقد كتب العديد من المقالات وفصول الكتب في هذه المجالات؛ ساهم في فصول الكتب الأخرى في هذه السلسلة التي تناولت ميتاليكا وساوث بارك وفاميلي غاي وذه أوفس؛ وشارك في تحرير كتاب الاقتصاد والعقل (Routledge 2007).

الفهرس


مكتبة
t.me/t_pdf

باتمان والفلسفة
الخوض في روح فارس الظلام

ما الذي يدفع شخصاً ما للذهاب الى هذا الحد؟ هل ما يفعله باتمان هو جيد، أو صائبٌ أو فاضل؟ وما الذي يقوله هوسه وتفانيه للـ«مهمة،» عمّن يكون؟ كيف يتعامل مع والديه وأصدقائه وأعدائه؟ وكيف هو الحال حين تكون باتمان؟ كل تلك هي أسئلة فلسفية صميمية، وعندما نقرأ قصص باتمان، فلا يمكننا الإمتناع عن التفكير في هذه الأشياء (ومن ثم كتابة أفكارنا) إن العشرون فصلاً في هذا الكتاب تستكشف قضايا في الأخلاق، والهوية، والصداقة والسياسة، وأكثر من ذلك أيضاً، باستخدام أمثلة مستقاة من قصص باتمان الشهيرة.

«من الكتاب»

هذا كتاب أعده وقدّم له كل من مارك د. وايت وروبرت آرب، يتناول باتمان وقصصه الشعبية المصورة لاستنباط أمثلة تناقش وتحاور قضايا معرفية وأخلاقية عديدة، على منوال ما تقوم به الدراسات الثقافية ودراسات ما بعد الحداثة في الغرب اليوم.

كتابٌ شيّق جدير بالقراءة.

«الناشر»

telegram @t_pdf

أن تبدأ.. هذا كل ما لديك

